مفيد فوزى

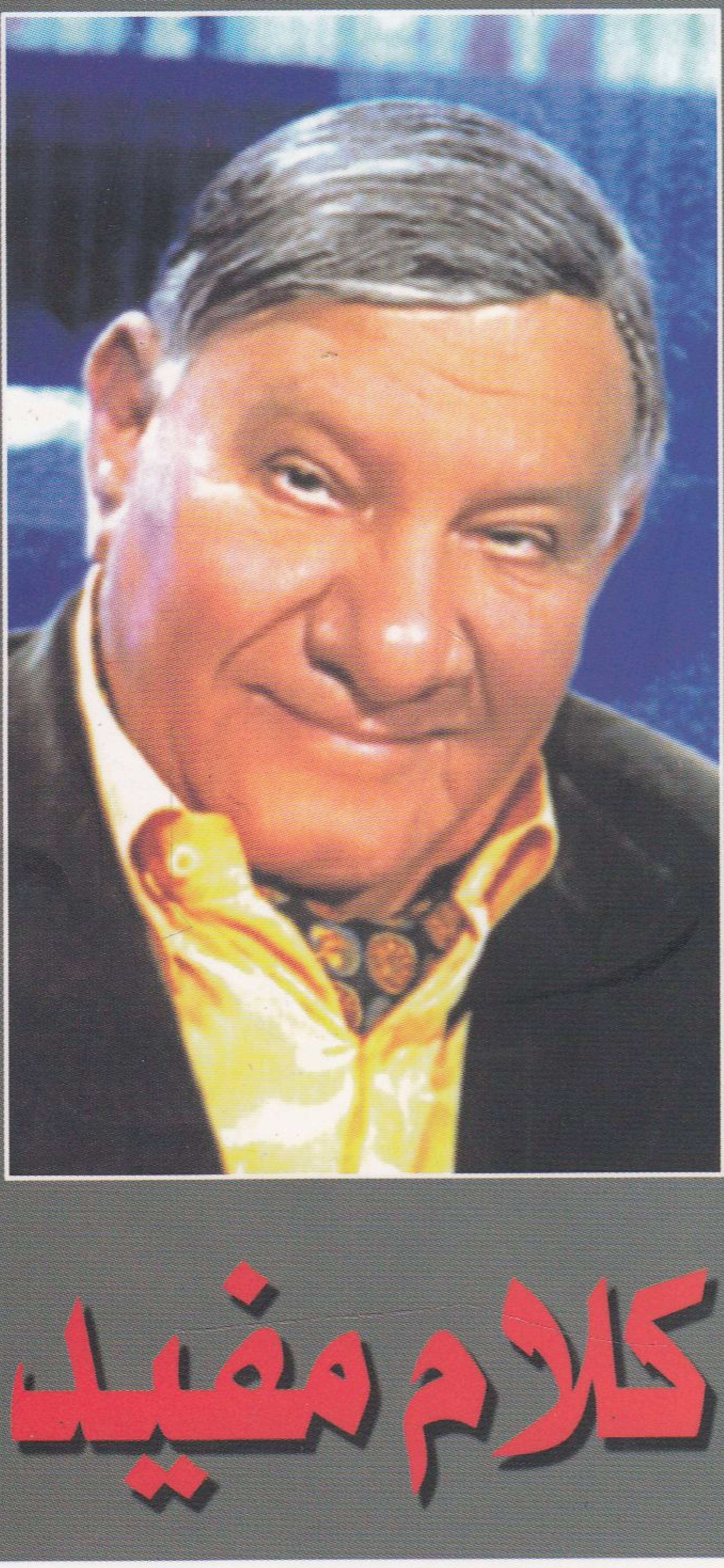

كلام مفيد

رؤى حياتية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

كـــلام مفيـــد

رؤى حياتية

مفيد فوزى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر

سعد عبد الرحمن

الإشراف والمتابعة

جمال العسكرى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

الإعداد والتنفيذ

عماد مطاوع

• كلام مفيد
روى حياتية
• مفيد فوزى
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
24x17 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور.
• اللوحات الداخلية:
للفنان/ د. حسينى على محمد
• التدقيق اللغوى: عادل سميح
• رقم الإيداع: ١٤٤١٨/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-174-4
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897
البريد الإلكترونى:
elnashr@yahoo.com
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

كـــلام مفيـــد

المحتوى

- أعتذر! 9
- كفى يا شيخ! 13
- سترة النجاة تحت المقعد! 17
- رقم موبايل الرئيس 21
- نص تشطيب! 25
- التحرش السياسى فى وسط البلد! 27
- ست الدنيا.. يا فيروز! 31
- مشوار المشاوير! 33
- هو البلد كله زعماء وقضاة؟! 35
- إنها خريطة للغضب! 39
- خطاب عاطفى إلا قليلا! 43
- من حق مصر أن تتجمل ولا تكذب! 47
- نظرية العسل والبصل فى الحب! 51
- من أدب الافتقاد.......... 55
- حوار مع جبل الذهب! 59
- أسأل ولن أكف عن السؤال! 63
- نزهة بين حقد ستان وجحود ستان 67
- أنا مدين لهؤلاء.......... 71
- مقال مهم.......... 75
- قصيدتك رديئة وخطك أسوأ!.......... 79
- أنت صدّفة على رمال شاطئ الحياة!.......... 83
- دمعة وكل أنهار الدموع!.......... 87
- لحظات ألم جميل قبل الولادة!.......... 91
- بيتك هو قلعتك!.......... 95

- شهادة على حاضر! 99
- رسالة إلى بيومى محمد بيومى! 103
- صداقة هذا الزمن! 107
- ملعونة الكلمة التى. ..!.. 111
- إنها عملية تستيف أوراق! 115
- ساركوزى.. والوجه الآخر! 119
- هؤلاء هم أعداؤك يا وطنى! 123
- إلا قارة النفس! 127
- أبحث عن امرأة! 131
- الكلمنجي! 135
- صابر صبور الأخرس..! 139
- أنا لم أعتزل الغرام! 143
- آخر النهار وأنت تخلو لنفسك! 147
- اسألوا ولا تكفوا عن السؤال! 151
- هذه الدنيا وإن ابتسمت! 155
- دمعة على خد الزمن! 159
- رسالة إلى امرأة ترفضنى! 163
- خدعوك فقالوا دقة قديمة! 167
- أهمية أن تكون مقامرا! 171
- تحديق أكثر لحالة الملل! 175
- من لا يعرف .. لا يحزن! 179
- الذاكرة.. الشقاء والهناء! 183
- بطاقة رقم قومى مختلفة! 187
- شطار هذا الزمن! 191
- إنها مفرمة الحياة! 195
- هل هو اليأس أم التحديق أكثر؟ 199
- نجوم الكرة.. وعلماء مصر! 203
- السيارة ٢٨٥ إسعاف! 207
- هل جفت ينابيع مشاعرنا؟ 211

- في يـوم مـيلادى! 215
- لم يبق لنا غير الساحرة المستديرة! 219
- خطاب غرام ينقصه الغرام! 223
- ألمانى واحد قاتل وليست ألمانيا! 227
- أعطنى أذنيك يا قداسة البابا.. 231
- هل أنت تعس أم تعس جدا؟! 235
- الخسيس والنفيس! 239
- صيفية على شاطئ الحيرة! 243
- تلك الليلة التى زارنى فيها.. الأرق! 247
- عفوا أنا إنسان سعيد! 251
- إن كنت طبيبى فساعدنى! 255
- مفهوم الجرأة فى البرامج الحوارية 259
- الكلمة بين الجدية وحبوب الزعامة! 263
- إن أتيت الروض يوما! 267
- عطش إلى شيء غير .. الماء! 271
- نهر الحياة بين الماضى والحاضر 273
- رسائل عاشق مسكون بأخرى! 277
- يا أهل المحبة! 281
- فاتن حمامة .. زمن الروقان! 285

أعتذر!

أعتذر ولا أملك إلا الاعتذار فى زمن «داسوا» فيه على التسامح، وهتكوا فيه عذرية المحبة وأعلنوا وفاة الفروسية.

أعتذر عن هياج البحر، رحت أشكو له قنوطى وإحباطى، فرمانى بالصمت وبعض من أصدافه، حاولت أن أسمع وشوشاته فابتلعنى صخب الطريق، انكفأت على وجهى، لأغفو هربا من حاضر مر ومستقبل غامض فلم أستطع، ظللت أنظر إلى الحياة بعيون زجاجية مات جفنها فلا ينبض لها رمش لكى أحتفظ بهدوء، أفتقده.

أعتذر عن «تعديل» مواقفى، هذا - يا أصدقائى - ليس زمن المواقف الثابتة، فلكل زمن مواقفه على مقاس مصالحه، وأنا كتمت مواقفى الحقيقية بين ضلوعى وكلما غافلتنى وتسللت إلى شفتى أو سن قلمى، فهما أدوات بوحى.. أخمدت أنفاسها واسترحت، هذا زمن الموجة، والأقنعة والوجوه السبعة وألوان الطيف والضمائر المستعارة، فالشجاعة اسمها تهور، والأمانة اسمها غفلة، والوداعة اسمها جبن، والسماحة ضعف، والحوار فذلكة، والفهم غباء.

أعتذر عن النهش فى الكلمات واستنباط معان أخرى لا علاقة لها بمضمون الحروف، ولا خطر ببال المجمع اللغوى حارس لغة الضاد أن الزمن أعطى لهذه الكلمات مذاقا مختلفا تعافه النفس الأبية.

أعتذر للعشاق العشاق، فحدائق الغناء صارت مزروعة صبارا واضطرت الفراشات أن تهاجر، الود أصبح بالأجر ورعشات الأصابع بفاتورة، والعناق بالخناجر الناعمة والرسائل الزرقاء بالموبايل، بساتين الحب صارت جدباء والخصوصية غدت مخترقة، وأسهم كيوبيد انكسرت قبل أن ترشق فى القلوب فى مواسم العصافير.

أعتذر عن الغش: المياه الملوثة والخضار المسموم والفاكهة المحقونة هرمونات والنهود المنفوخة وعيون العدسات الملونة الصامتة وترقيع الوجوه والجرائد الفضاحة والقنوات المشبوهة، والمجالس المحلية الصامتة والوزارات التى تحرث فى البحر، وأبواب المسئولين المفتوحة المغلقة بإحكام، والمال العام المهدر، والشاشات الثرثارة بالأمر، والرحمة السياسية بالقتلة، والحناجر المزيفة تحت القبة، وبرلمان الكيف والقروض والقمار وحوش بردق.

أعتذر لأسماك القرش، فقد ظهرت أسماك قرش من بشر زماننا أكثر افتراسا وفتكا، أسماك قرش آدمية، بجوارك وخلفك وأمامك، تشعر بالأمن معها، ولكنها تظهر مخالبها إذا اقتربت من مياه مصالحها الإقليمية، لحظتها تقلب القوارب الطافية والسفن العائمة وتكفر بفيروز والشياطين، عضتها موجعة وفى كلامها سم قاتل، أسماك قرش آدمية روجت للأنانية والنفعية والاحتكارية عينى عينك.

أعتذر عن الذين لا يفهمون اللعبة عن قصور فى الفهم أو يعانون من أنيميا فى الخيال، فهؤلاء لا يصدقون ما يجرى فتصيبهم الدهشة أو السكتات القلبية أو الذبحات الصدرية أو الأورام المختبئة، إنها لعبة «الأورام» المستطرقة الدامية.

أعتذر للأطفال إذا دفع الأهل مبالغ باهظة لتعليمهم ولم يحصدوا تعليما، فالمدارس مساحات هائلة وملاعب وتماثيل رخام ع الترعة بلا خطة.. وإذا خططت عادت مكسورة لخطة الوزارة والوزارة فى المغارة.

أعتذر لشباب الجامعات عن التسطيح، فالأساتذة مشغولون بالانتدابات، والمدرسون مشغولون بالترقيات، والمعيدون مشغولون بإعداد الرسائل الجامعية، والعمداء عيونهم على الوزارة، لعل وعسى.

أعتذر عن «ممثلين» لم يحصلوا على تصاريح عمل من نقابة الممثلين ومنتشرين فى كل أجهزة الدولة، يبررون الأخطاء بخطب حماسية نحاسية ليبقوا فوق الكراسى حتى ولو كانوا محنطين يقيمون فى مدينة (نعم) أبد الدهر.

أعتذر عن هجرة عقول مصرية إلى الداخل، عقول فى المنفى، رافضة كارهة تحلم بتطبيق قانون طوارئ على صدور مسدودة المسام طالها التراب والصدأ وتتنفس حقداً.

أعتذر عن اغتيال الطمأنينة فى صعيد مصر وكفورها الآمنة، فالقلوب الطيبة صارت صحارى أشواك ملغمة تدين بالعنف وتنبذ الرحمة.

أعتذر عن ينابيع الصدق التى جفت وزادت ملوحتها وسارت القوارب نحو مرافئ الخيبة حاملة على ظهرها صراصير محدثة النعمة والسلطة والثروة وصوتها عال، أعلى من دحرجة براميل فارغة.

أعتذر عن قبح بعض مفرداتى، فأجمل مفرداتى هربت من القاموس وطاردتها فى أروقة الكتابة حتى وجدت بعضها فى ركن منزو من محبرة، لكنى لست شاعراً وأتصور أن «التغيير» بتدبيج القصائد لأن الفراشات ليس لها أنياب! والقصيدة ومضة وجدانية، لا أكثر.

أعتذر عن الرغبة فى الصدام المتحضر لفك طلاسم مجتمع فقد البوصلة والاكتفاء بالصمت والسكوت بينما هو حى فى الصدور ينخر فيها كالسوس ويتحول إلى (غل) مكتوم وعناقيد كراهية.

و...

وأعتذر عن نبرة الحزن التى «تكحل» سطورى، أعتذر حقا عن بعض راياتى المنكسة، أعتذر عن الحروف المغموسة فى ألم عام اختلط بالألم الخاص وذابا.

إننى أحاول التحرش.. بالأمل.

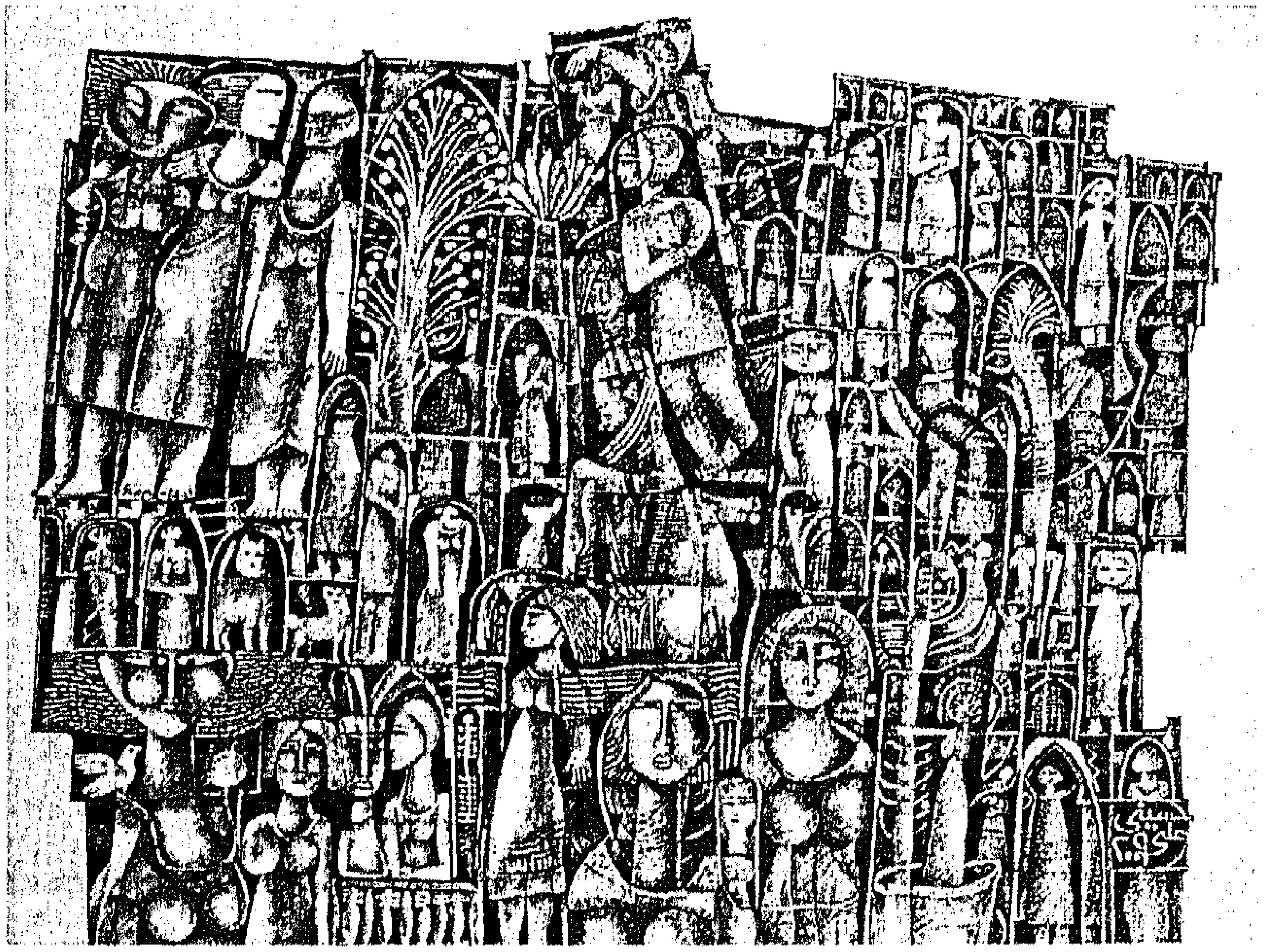

كفى يا شيخ!

هاجسي للكتابة فى هذا الموضوع، له مبرران، الأول: إيمانى المطلق بقيمة «المواطنة» وحتى إن اختفت أو كانت شعاراً بلا تفعيل، فأنا «أخترعها»، المبرر الثانى: أن «الأهرام» فهرس الحياة المصرية وشاهدها الأمين، يفتح ذراعيه محتضنا أى رأى وإن كان صادما، فالأمانة فى الكلمة، ربما كان (صدمة) للمرتعشين والخائفين، أضيف إلى السببين، أنى لست معقدا من كونى مصريا قبطيا يشعر بحساسية فى الخوض فى هذا (الشأن الإنسانى) ولا أقول الدينى، ولكن الصمت الطويل المتراكم يزيد الأمر وعورة، ويجعل مصر على شفا السقوط فى حفرة الفهم الخطأ للدين، وهناك مستفيدون من حالات الاحتقان والاختناق. والمؤسف أن بعضا من الإعلاميين ينفخون فى النار، فتتأجج وقد تأتى على الأخضر واليابس، فالمثقف ليس الكاتب الذى يكتب نظريات، إنما كل من يمارس وظيفة لها طبيعة النشاط الذهنى، مثل إمام المسجد والكاهن والإدارى والبيروقراطى والمحاسب والسياسى، هؤلاء شأنهم شأن أستاذ الجامعة والناقد الأدبى والأديب ورجل العلم والمهندس والفيلسوف والاقتصادى والمؤرخ.

عندما أذكر كلمة (شيخ) يظن البعض أنى أقحم نفسى فى مجال شائك أو أنى بلغة أدبية: أمشى فوق الأشواك حتى تدمى قدماى، أنا أظن أن الصمت المضروب حول هذا النقاش (المصرى الهوية) هو الشوك بعينه، وأنا مستعد باسم مصريتى ذات الأعماق

الموغلة فى الزمن التى (تعمدت) فى مياهها أن تدمى قدماى، وطرح الحالة جزء من التشخيص وربما كان للتبصير فى «شبورة» غير مسبوقة.

ولأكون موضوعيا صادقا، فإن هناك قسسا من الكهنوت تحولوا إلى مفكرين ونسوا دورهم الروحى وأدلوا بآراء قد تذبح شريان فكر وتؤدى إلى خصام بارد وسام، وأنا لا أصادر أفكار رجال الكهنوت وإلا كنت أمارس إرهابا فكريا أنا برىء منه، ولأن اللفظ سعد فإن دخول رجال الدين مشايخ وقسس، دعاة ورهبان ملعب الإعلام يجب أن يراعى الصياغة، فإن (الكلمات أحذية المعانى) وهذا مثل إنجليزى ربما كان سيئ الصياغة ولكنه يفى بالقصد، هناك بعض الشيوخ ومنهم الأفاضل يتطوع بالآراء المؤثرة فى نفوس الأقباط سلبا وهى آراء ورؤى تمس الثوابت الوجدانية ولا ينبغي أن تتعرض للعبث أو التأليب، فهذا مؤثم معنويا، ومثلما يقال لا تنشأ نفس عزيزة من ذل، أقول لا ينشأ سلام ووئام من ضيق أفق وشوائب عالقة بالنفس، فالعنترية فى أمور الدين مرفوضة ومستقبحة وتحرك مياه البحيرات العكرة وتبيت النفوس غير راضية ولا مرتاحة حتى ولو كتمت الأسى بين الضلوع، ساعتها أقول (اسكت يا شيخ) أقولها كمصرى أولا، أقولها متمنيا أن تقولها معى مشيخة الأزهر الشريف، المرجعية الرسمية التى نكن لها الاحترام والهيبة حتى ولو تطاول الصغار عليها. نعم، اسكت يا شيخ عندما يصدر رأى نشاز يثير الغضب ويتهامس الأقباط فيما بينهم بضجر يكبر مع الأيام، وأرفض الرد عليه من الفضائيات القبطية.

اسكت يا شيخ، فقضايا مصر كثيرة ولا تضف إلى جروحنا جروحا طائفية، إن الذين يفسرون كلامك يا شيخ، قد يغيب عنهم الوعى، ومقتلنا فى هذا البلد غياب الوعى، ويظل حلمى طوال العمر أن تكون مهمة «الإعلام المستنير» حقن الناس بالوعى، إنه الرهان الحقيقى على رفعة أمة. اسكت يا شيخ فأنا أريد إسلام السماحة والفهم، فالإسلام كدين سماوى دستور للحياة أساسه احترام الأديان والأنبياء.. هكذا سمعت من شيوخ أجلاء ليسوا بالضرورة معممين، وعندما تصبح هذه سمات الإسلام الصحيح فى دولة مدنية وليس الإسلام السياسى فى دولة دينية، سيفهمنا الغرب أكثر ويقترب أكثر ولا يعترض على مآذن مسجد فى سويسرا، ويحدث الالتحام المفقود بين الألمان والمسلمين كما عشته بنفسي وأنا أحقق فى مقتل مروة الشربينى المصرية المسلمة وكان حجابها عنوانا لإسلامها.

اسكت يا شيخ لا تحرّم أو تحلل، فالعام الهجرى تعانق مع أعياد الأقباط فى مودة لها طعم النيل المضب لتراب هذا الوطن، والمسلمون قبل الأقباط وقفوا وعيونهم مشرئبة نحو السماء لظهور نورانية العذراء مريم.

اسكت يا شيخ واقرأ التاريخ، فالأيقونة القبطية تنام فى حضن التراث الإسلامى، ومصر الرسمية ترمم آثار الأقباط القديمة وكنائسها لتحميها من تجريف الزمن، هذه أسمى آيات العمل الثقافى، إن التراث القبطى والإسلامى يتعانقان، وأى أصوات نشاز «توغر» الصدور ولا أجد كلمة أبلغ منها. اسكت يا شيخ إن حوادث ما يسمى بالأسلمة أو التنصير، هو اعتداء حقيقى على حرية الأديان، فأنا ولدت قبطيا وأنت ولدت مسلما وينبغى ألا ننقاد وراء الجهل والتخلف والتعصب المقيت.

اسكت يا شيخ (إن الدين لله والوطن للجميع) عبارة تعلمناها منذ نعومة أظفارنا، ولا نعيها، وأستغرب من «هجمة» أفكار مريضة لم تعرفها مصر الباقورى ومحمد الغزالى، هؤلاء الشيوخ الأجلاء الذين أثروا الفكر الدينى، مصر التى اختلط فيها المسلم بالقبطى باليهودى فى بوتقة واحدة لا تمييز فيها لأحد.

سألنى مرة مفكر عربى: ما ديانتك؟ فقلت له (المصرية) فقال: رد بليغ. أعود وأقول، هل فهمت يا شيخ ما أعنيه وأى قيمة أمجدها؟ اسكت يا شيخ، واسكت يا قس، كفى «تحرشا» بالأديان، أنا متعصب عنيد ولكن.. لمصر مثل كل المخلصين لوطن يسكننا.. و ..إيمانى بهذا.. ساطع.

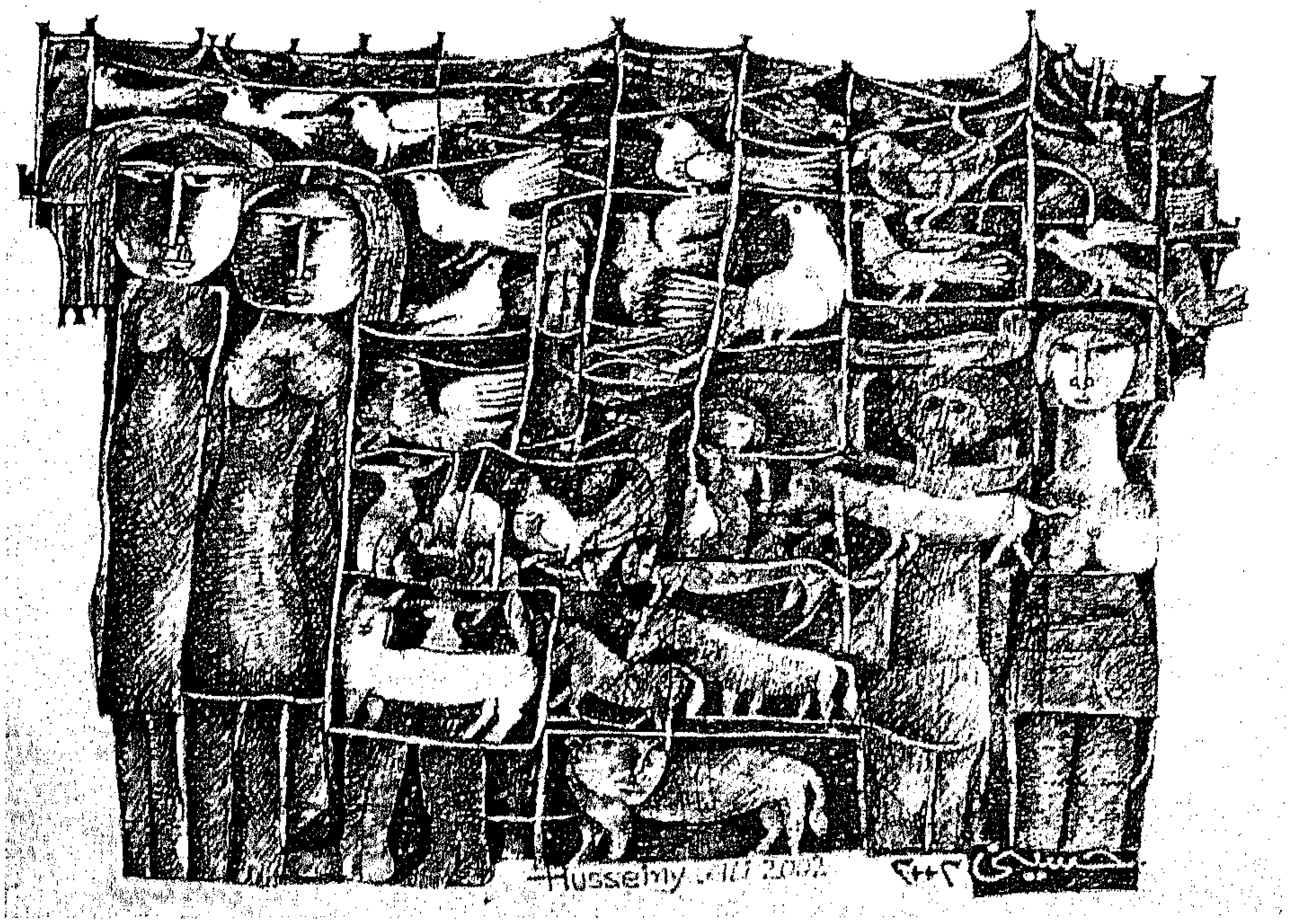

سترة النجاة تحت المقعد!

ما حاولت - ولو مرة واحدة - أن أرقب أو أصغى لمضيفة الطائرة وهى تبلغنا بطريقة مبرمجة تعليمات الأمان، وحين تقول وهى تشير بيدها على الطائرة ٧ مخارج، تنتابنى قشعريرة الخوف الذى أخبئه بين ضلوعى!

فى تلك اللحظة، خصوصا فى ظل مناخ سيئ يفرض أن يكون الحزام مربوطا، أفهم سر خوف موسيقارنا محمد عبد الوهاب من الطائرات، فهو يراها «ميتة شنيعة» ولكن يوسف إدريس كان يرى أن الموت قد يقابلنا على (رصيف مقهى فى الشارع)، وقد مات أحمد بهاء الدين على سريره أشهرا طويلة حينما فقد - وهو حى - الاتصال بالحياة.

وانتشلتنى من خواطرى جملة من أربع كلمات تنبهنى وغيرى على متن الطائرة أن «سترة النجاة تحت المقعد»! وما حاولت - ولو من باب الفضول - أن أتفقد هذه السترة! لكنها نقلت لى واحدا من المعانى المهمة التى نفتقدها فى حياتنا وهى (طوق النجاة) من غرق أو حريق أو عاصفة هوجاء، هكذا رأس الكاتب يلتقط أفكارا شاردة يعطيها ميلادا فوق الورق، وإذا استعصت عليه طاردها كالعصافير حتى تهجع فى خميلة ورق! إن سترة النجاة من مخاطر النجاح المدوى هو ما سمعته يوما من كبيرنا مصطفى أمين حين قال (انجح بالتقسيط) ذلك أن المجتمع (لا يحتمل) نجاحا يومض كالبرق كثيرا.

إن سترة النجاة أمام وزير جديد من الغرق فى التفاصيل هى تفعيل الإدارات الوسطى ومحاسبتها.

إن سترة النجاة لمحافظ جديد تكمن تحت مقعده، أى فى عقله وتجاربه والنزول من عليائه إلى الشارع الميدانى بحنكة الأيام وإلا طاردوه بعد قليل بالطوب!

إن سترة النجاة فى حياة أى مسئول من خفير درك إلى رئيس الوزراء هى أن «يخدم» الناس، تلك الكتل السكانية الضخمة، قبل الحصول على «رضاء» القيادة السياسية، بل إن رئيس الدولة فى تكليفه لوزير أو محافظ أو رئيس مؤسسة يردد عبارة «عينك ع الناس».

إن سترة النجاة من تخاريف الفهم أن تفهم أن مصر «دندراوى» مختلفة تماما عن مصر «د. نافعة»، فمصر دندراوى بالملايين تعيش وتكدح وتربى عيالها وتسكن المقابر إذا عز السكن الآدمى، ومصر (دندراوى) هى الأيدى العاملة صانعة المدن والقرى والكفور، ومصر (نافعة) بالعشرات وربما بالمئات لها أفكارها ومساحات فى صحفها، وهى التى أخرجت البرادعى من صمته، وصعدت بعمرو موسى على السطح، بينما مصر «دندراوى» مهمومة بمياه نظيفة وخضار لا ينمو فى مياه الصرف الصحى ومستشفى بحق وحقيق.

ولو اهتمت مصر «نافعة» بقضايا مصر «دندراوى» لما كان هذا حالنا، ولا تحولنا - عفوا - إلى (فئران تجارب) مع وزراء ينجحون ربما فى مدرج جامعة، ولكنهم لا ينجحون فى مدرج الشعب! إن سترة النجاة فى الاختيار الصح تحت مقعد الجهاز التنفيذى الذى يحقق شيئا محمودا لو فتش بعناية عن كفاءات من داخل الوزارات (فاهمة الموقف وعارفة أبعاده وعيوبه) بدلا من نظرية (حادى.. بادى) فى الاختيار للمواقع دون «تسكين» أو مكافأة نهاية خدمة!

إن سترة النجاة من «إعلام المسابقات والفائز أبى» وهى العودة لدور الشاشة التربوى والترفيهى بحرفية عالية ومهارات تخاطب عقول الناس ولا «ترفزهم» والاتجاه بالدراما نحو النماذج القيمة.

فماذا يهم الناس من الملكة نازلى غير بعثرة الوقت ومحاولة اللحاق بمسلسل فاروق؟ وهل المخرجة إنعام محمد على شخصية «مستوردة» لأنها تقدم مسلسلا عن عالم مصرى له بصمة اسمه مصطفى مشرفة؟ وسبق للمخرجة المصرية نفسها - غير المستوردة - تقديم حياة أم كلثوم وقاسم أمين.

إن أفلام المسابقات حجبت عن الناس «إنجازات الدولة» بعد أن صارت مجرد أخبار فى شريط الأخبار، وصار افتتاح محطة صرف صحى أو تغيير شبكة مياه تتوه تماما فى الشاشة المثيرة بلا هدف قومى.

إن سترة النجاة من طوفان (البضائع الصينية) التى ملأت الأسواق هى الاهتمام

المكثف بالتلمذة الصناعية، وهناك مشروع (مبارك - كول) لم يبق منه سوى مدرسة بائسة يائسة فى الخازندار!

إن سترة النجاة من «تذمر» الناس فى الشارع والتكشيرة التى تعلو الجباه هي (إصغاء المسئول) للشكوى المغموسة فى الأنين.

فالأذن المسدودة، تجعل الشاكى يحمل شكواه ويرحل لصحف المعارضة والفضائيات المعارضة، فإذا فشل هاجر بلا جواز سفر ومات غرقا.

إن سترة النجاة من انتخابات رئاسية أو برلمانية مبنية على استخدام العقل وليس العواطف والسير وراء مصلحة البلد لا القبلية المقيتة، هى ضخ الوعى عند الناس، فكل شعب يستحق «برلمان»، ربما كانت أنياب السلطة حادة، ولكن أظافر الشارع مخالب حادة وموجعة، وما جرى فى برلمان الـ ٨٨ عضوا لن يتكرر مرة أخرى مهما تروج صحف بذاتها أو أقلام بعينها، فالمصرى ما عاد يشترى صوته بشوال أرز أو بطانية كما حدث إثر زلزال ٩٢!

لماذا اخترت «سترة النجاة» فى سطورى المشحونة قلقا؟ لأن البديل هو الغرق أو الحريق أو العصيان المدنى، أو قرصنة غير مسبوقة تقود طائرة الوطن إلى مسار آخر.

رقم موبايل الرئيس

لقد افترضت أنى أعرف رقم موبايل الرئيس، ولكن السؤال: هل يحمل الرئيس موبايل؟ وإذا كان الرئيس يحمل موبايل فماذا عسى أن تكون أرقامه؟ لا بد أن يكون الرقم مبتكرا يليق بالرئاسة، ولكن معلوماتى المتاحة أن للرئيس سكرتارية خاصة بالاتصالات على درجة عالية من الكفاءة والمهارة والسرعة، ومعنى ذلك أنه يستخدم التليفون الأرضى ولكنه لا يستخدم التليفون اللاسلكى.. خشية وقوع الموجة السابحة فى أذن أحد وربما أمنيا، حيث تحاول الدول أن تسلط التكنولوجيا المتقدمة على تليفون الرئيس، وأميل فى التفكير إلى أن مبارك بحذر الطيار يستخدم التليفون الأرضى حتى فى الاتصال بمن يحملون الموبايلات، فلدى السكرتارية الخاصة أرقام الشخصيات فى البيت والعزبة وعند بنته المتزوجة وحماته وسكرتيرته ومكتبه خارج مصر أو داخلها، المهم أن تكون الشخصية المعنية على السماعة فى دقائق معدودة.

ولو كان للرئيس موبايل أعرف رقمه، فسوف أحفظه فى مخى وأمزق الورقة مثلما أفعل مع الرقم السرى لبطاقة الفيزا، وإن وجدت محمول الرئيس مشغولا فسوف أحاول مرة أخرى ومرات، ولن أكتب رسائل sms ليقرأها الرئيس، وعفوا لن أترك رسالة صوتية على محموله، لأنى أريد أن أتصل به مباشرة وبصوتى.

ولو كنت أعرف الرقم لاتصلت به فى السابعة صباحا أفضل أوقاته منذ أن كان رجلا

عسكريا يعتمد على نفسه وأهل البيت نيام.

وسوف أهمس فى أذن الرئيس أن الصحف التى تتجاوز حدودها تعبث بالحرية وتشوه وجه الديمقراطية التى حلمت أنت بها يا ريس.. سأقول له إن بعض الصحف تنشر معلومات تتعلق بموضوعات دقيقة لا تحتمل منطق السكوت ولا منهج الصبر الذى تتحلى أنت به، لا بد من رد، أو تفنيد، أو نفى، أو إيضاح، ولكن الصمت يؤكد المعلومات ويزرع السخط فى الصدور.

لست أطلب قصف قلم كاتب ولا تجميده، فأنت بطبيعتك تعادى هذه الأساليب فى قمع الرأى، ولكنى - كمواطن مصرى أنتمى لتراب هذا البلد - أحب هيبة الرئاسة وسمو المخاطبة لرئيس بلدى مدركا أن بسطاء الناس يصدقون ما يقرأون، فإذا ما لف الصمت المعلومات المنشورة، تأكدوا من صدقها، وإلا كان أحرى نفيها تماما، وأنها محض خيال مريض، وإذا شعر الناس بأن دعوى رفعت أمام القضاء لتفنيد معلومات ثبت كذبها فإن هذا يريحهم، فماذا تريد كرئيس دولة من ناس بلدك؟ تريد طاقات حماسهم، وتريد أن تزيل بنفسك حقول ألغام الإحباط وضمور الانتماء، وتريد حيوية شعب، والأهم هو المعانى المترسبة فى أذهان الشباب قادة الغد وكل المستقبل، إن الشباب فى حالة حيرة، فهم يسمعون الشائعات فى بلد تتوالد فيها الشائعات بسرعة الصوت. هذه الحيرة تجعلهم يكفرون بالبلد ويقررون الهجرة، وترى - يا ريس - طوابير الشباب أمام السفارات الأجنبية طلبا للسفر. الناس - يا ريس - هم المادة الخام للوطن، ويهمك أن تأخذهم بين ذراعيك بعد أن ثقلت أحمالهم فوق طاقاتهم، تقربهم من فكرك، تبثهم همومك ليشعروا بها، إن شعب مصر شعب صبور، واحتياجاتهم تحركهم، فالصرف الصحى لديهم أهم من النووى، ولقمة العيش أهم من الخطاب السياسى، سيبك يا ريس من النخب والمثقفين وأصحاب المصالح فهم مرتاحون ولكن الأغلبية تعبانة، يلهثون وراء القرش وأراملهم تتعذب فى الحصول على المعاشات، هؤلاء وطبقة الموظفين والحرفيين يشكلون الطبقة المتوسطة صانعة النشاط وضخ الدم فى العروق، هذه الطبقة المسئولة عن الدورة الدموية فى جهاز الحكم، هؤلاء يصدقون ما يقرأون ويفسرون صمتك وصبرك على نحو آخر، ولقد تمنيت يا ريس أن تساعدك ذراعك اليمنى (الحزب الوطنى الحاكم) فى مهمة إزالة الضباب، ولكن دعنى أهمس فى أذنك عبر الموبايل الذى لا أعرف رقمه، بإمكانك - يا ريس - أن تعطى بعض الوقت لقاعدة الحزب وليس لقمته.

إن مصر خطت خطوات دولة بالغة الرشد وليست مراهقة، خطت معك عبر سنوات

طوال بصدق مشاعرك كرئيس وطنى وحكوماتك تتأرجح بين الوطنية والمظهرية.. و..

ولو كنت أعرف رقم موبايلك يا ريس لقلت كلاما كثيرا فى صدرى، كلاما قد يغضبك ولكنه ليس الكلام الفاتر المعاد ألف مرة الذى تكتفى بقراءة عنوانه ولا تكمل السطور، ولو أنى أعرف رقم الموبايل الرئاسى لما ترددت بمصارحتك بما يجرى وعتابك، فبحجم الحب الذى أكنه لك يكون العتاب والمصارحة.

نص تشطيب!

لم تخلق حروف اللغة للعبث بحياة الناس أو الضحك عليهم، أو لمداعبة رغبات لا تتحقق، إنما خلقت اللغة لتعبر عن وطن لا يتضاءل على الخريطة. لغة هى لسان حال من أنهكتهم أحلام اليقظة، وحروف اللغة على سن قلم الكاتب المعنى بهموم بلده، تفتح طاقة الأمل وإن ضاقت مساحته، فهو العاشق صبابة لفرح الأطفال وبراءة الصبايا من غير انكسار، أكتب بدون سأم كالعاشق الولهان لمحبوبته مصر وما زلت أصعد إلى أعلى السور وأقفز إلى قلب الحقيقة وأعبر ممرات الدهشة وأنا أرى أشياء فى عمارة حياتنا نص تشطيب، والمفترض أنها اكتملت ونضجت وارتمت الورود فى حضن الشرفات.

فمصانع الأسمنت فى حلوان وغيرها حيث أنهك الغبار الأسود صدور ناسها وأطفالها. وحيث الكلام عن البيئة النظيفة صار أسطوانة مشروخة، قيل للمصانع المذكورة لا بد من الفلاتر وجاءت الفلاتر، فإذا جاءت لجان المحافظة على البيئة اشتغلت الفلاتر، وعندما يذهب هؤلاء تلغى الفلاتر المعنية بتنقية الهواء، ولكن ثبت لرجال الأسمنت أن الفلتر يقلل من كفاءة المصنع وبالتالى يستخدم فقط لعيون لجان البيئة!! إنها بيئة (نص تشطيب).

وعندنا جهاز للمرور وضباط وعساكر وأمناء والحق يقال إنهم طوال النهار يعملون.. وتحت أى ظروف من الجهد يبذلون، وصفافير وموتسيكلات رايحة جاية ويخيل لأى إنسان أن المرور صار قضية اقتصادية واجتماعية وليست أمنية فقط، ولكن عندما يمر عظيم أو

ضيف، تغلق السكك وينفلق الناس ويموت العيان، ولأن الأمور الأمنية صارت هاجسا، احتجبت إنسانية الطرق وكذا الانسيابية وترى الناس فى السيارات يعلنون التبرم بأسلوب فاضح، إنه مرور (نص تشطيب).

وعندنا مطار فخم نباهى به مطارات العالم، صالات سفر وصالات وصول، حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى. وطائرات محترمة وطيارون أكفاء حدث ولا حرج، وكل شيء عال العال، حتى المدخنين لهم مكان، ورجال العلاقات العامة يدونون الملاحظات والأرض تبرق من النظافة، ومع ذلك كله تقطع المسافة من الغردقة للقاهرة فى ساعة بالطائرة الميمونة وتنتظر حقائبك في ساعة وثلث!! إنه مطار (نص تشطيب).

عندنا ديمقراطية، وصل فيها التجاوز فى التعبير إلى المساس بهيبة الدولة، والصمت يغرى العابثين بالمزيد، ويكتب الكتاب المعتدلون فى أمور مهمة ويتوقعون الرد والتنفيذ. ولكن حدقات الأسى تتسع حتى تكاد تفقد حماسك للاهتمام.. وتشترى دماغك لأنها ديمقراطية صياح القطيع. إنها ديمقراطية (نص تشطيب) .

عندنا وزارة لها وزير فاضل اسمها التنمية الإدارية، أتذكرها كلما تعاملت مع مصلحة حكومية حيث عذاب الإجراءات وتعقيدها، هات ورقة من المرور، الأول شهادة من التأمينات، طيب فين ورقة السجل المدنى، اطلع على مدينة نصر، روح خد هات، أوامر موظفين على مكاتب والناس تكتم غيظها، المفروض أن هذه الوزارة لها أهداف عظيمة، أوليست تسهيل حياة الناس فى مصر هدفا عظيما وساميا؟ ولكن الوزير يتعامل مع طبقة من الموظفين استراحوا لصيغ معينة تفترس الناس ومن الصعب خلق أسس علمية مع من لازالوا يعملون بالقلم والكربون، هؤلاء يعرقلون المسيرة وخصوصا الإدارات المتوسطية التى تنفذ كلام رؤساء المصالح.

وأنا - يا سادة - لست متشائما ولا أفعل ما تفعله الأنواء بأشرعة الصيادين، إذ أمتطى أحلامى شوقا لمدينة أو مدن مريحة لا تستنفد طاقات الناس ولا تعذبهم، أنا أحلم والعلم هو التنفس. ولست أحلم بمدينة فاضلة، ذهب زمن اليوتوبيات، أنا أحلم بتوفير (الراحة) فلا تهلك الأبدان وراء ورقة أو تنفيذ حكم قضاء أو إلحاق صغير بالمدرسة أو إيجاد سرير لمريض فى مستشفى أو هواء نقى يدخل من الشباك! أحلم بعدم تهميش الإنسان البسيط لأنه يمثل الملايين فى تعداد الدولة، وأحلم بحياة أقل وحشة، يختفى فيها حزب أعداء النجاح ويقل فيها نشاط الدعاة وتزداد فيها ميزانية البحث العلمى ونغار فيها من دول حولنا ونعرف كلمة السر: الإدارة، مفتاح النجاح والفلاح والصلاح.

التحرش السياسى فى وسط البلد!

فى وسط البلد، ضجيج، ومظاهرات واحتجاجات وبلاغات وصيحات غضب، ولافتات وشعارات و.. تحرشات! كل هذا الضجيج، إفراز شريحة صغيرة جدا فى المجتمع تقدر بالمئات ولا علاقة لها بالشريحة الكبرى بالملايين، هذه الكتلة السكانية الحقيقية المكافحة والمعدمة أحيانا، التى (تطفح الدم) لتعيش. والمتأمل لوسط البلد، يكتشف أنه يشكل عصب الحياة، بل آخر خيوط الطبقة المتوسطة، فمعظمهم من التجار دافعى الضرائب ويضيقون بهذه المظاهرات لأنها (توقف حالهم) هناك جدار عازل بين محترفى الشغب، وبين السواد الأعظم لهذه الأمة، محترفو الشغب يفكرون فى وادى الحنق والحقد، يطفئون الكلوبات، (عايزينها ضلمة).

والأغلبية الكاسحة، صانعة الحياة فى كيان الأمة تحلم بكوب ماء نظيف وهدمة للعيال وحتة جبنة وبصلة وليس الحراك السياسى من مفردات حياتهم! إنهم يسمعون ضوضاء فى وسط البلد ولا يهمهم معرفة أسبابها وبواعثها، ولو اقتربوا قليلا من الضوضاء، فلن يستوعبوا النقاش العصبى المجعلص. مرت من أمامهم عواصف عارمة من الصحفيين ومن القضاة، فلم يتبينوا موضوع الخلاف مع الدولة، فلم يعيروا الأمر التفاتا، إنهم - بالحس الشعبى السليم - يدركون المقاصد والنيات لفئة من الناس وليس الوطن كله، ولو سمع هؤلاء مظاهرة عن الغلاء، لفتحوا آذانهم وعيونهم جيدا، إن الكتابات الحارة فى الصحف

عبر شوطة الأعمدة المزينة بصور أصحابها لا تغوص إلا نادرا فى أحوال هذه الطبقة التى (تطفح الدم) لتعيش، الأعمدة تكتب لبعضها تراشقا أو غزلا أو نفاقا، وتمر على أوجاع معاناة الأغلبية مرور الكرام، هل يتخيل أحد يستخدم عقله أن هذه الطبقة المكافحة مشغولة بالتحرش الجنسى فى وسط البلد؟

الحقيقة أن التحرش اللافت للنظر هو التحرش السياسى بالدولة والرموز، هناك فئة صغيرة محدودة محتقنة لأسباب مختلفة، يهمها بشكل أو آخر إثارة السخط فى البلد، إنهم ينجحون فى المحيط الصغير وفى الدائرة المحدودة ولكن الضوضاء تضيع فى الأفق لأن الأغلبية لها اهتمامات أخرى (راجعوا عدد الذين اشتركوا بأصواتهم فى الانتخابات الرئاسية: ٦ ملايين نسمة فقط)!! إن التحرش السياسى بالدولة والرموز تكسب منه الفضائيات مادة إخبارية خصوصا عندما ينبرى عضو ما فى جماعة ما ويشتم - بعروق نافرة - مصر، ساعتها تخرج من شفاه طبقة الأغلبية كلمة (عيب)، يقولونها بإيمان حتى ولو كانوا محرومين من الكوب النظيف من الماء مثل ناس البندر. وفى لحظة تأمل من الممكن أن يتساءل العاقل: كم عمودا ينشر عن صعيد مصر المهمش؟ وكم عمودا نشر بالفعل عن القضاة ومشكلاتهم وناديهم؟ كم عمودا ينشر عن المدرسين المطحونين الذى يعولون أسرهم بالكاد؟ وكم عمودا نشر بالفعل عن الحديد واحتكار الحديد وعمر أفندى؟ كم عمودا ينشر عن عذاب أرباب المعاشات مصدر القوت الوحيد؟ وكم عمودا نشر بالفعل عن التحرش الجنسى فى وسط البلد..؟

ومن خبرة العمر - إن كان للخبرة احترام - فإن قضايا الغلابة والمهمشين والمعوقين وبسطاء الناس، ليست مادة صحفية شهية، إن الكلام عن الغلابة تحصيل حاصل، وغير مثير ولا مقروء ولا يبيع! الطبقة التى تطفح الدم، لا مكان لها لأحزانها ومعاناتها، والصحف القومية - إذا نشرتها - ففى تحفظ، أما صحف المعارضة فهى تبرزها لكى تنال من الحكومة والرموز، والطبقة الرايقة العايقة لها مساحة عريضة فى الصحافة وسلم لى على الحراك الاجتماعى أو السياسى، الأمر سواء، إن عدد مشاهدى التليفزيون والفضائيات أربعون مليونا أو يزيد، وعدد قراء الصحف مليونان وربما يزيد!

لذلك فالتحرش السياسى بالدولة محدود الأثر بل ربما كان باهتا ولكنه تعبير (show) للديمقراطية التى لم نتعلم بعد تقاليدها، فنحن لم نتعلم كيف نستقبل الرأى المخالف لرأينا، إننا نشوه صاحبه ونقف له بالساطور!(راجعوا رأيا شخصيا لفاروق حسنى)، مصر، ليست وسط البلد المحتقن، ولا أحد يملك الشارع المصرى (الشارع لنا)!!

مصر هى وجع مستشفى بلا دواء وأزمة مدرسة بلا نوافذ، ومواصلات مرهقة، وبنات فى سن جواز ولا يتزوجن، وبورصة يقامر فيها الفقراء من أجل حلم صفقة تنقلهم على وش الدنيا، وإذا تحولت مصر كلها لزعماء فى وسط البلد فعلينا السلام.

قد يقول قائل إن (النخبة تقود المجتمع)، وهذا صحيح إذا تخلت النخبة عن أنيابها ومخالبها وضوضائها المفتعلة، هذا صحيح إذا استوعبت النخبة عذاب الشرائح الأغلبية، هذا صحيح، من الثابت أن ناس مصر لها همومها التى لا تغيب عن ذهن مبارك، هذا القائد الذى لا ينحنى إلا الله، ولا تهزه ضوضاء وسط البلد، ولا تزعزعه تحرشات وسط البلد السياسية، إن قائدا قلبه فى مكانه الصحيح لا نخافه أو نخشاه، نعم، إننا نخشى ونخاف حكم الجماعات التى تقاتل للوصول لكرسى السلطة، حيث تعيش مصر وقتئذ حالة (نكوص)!

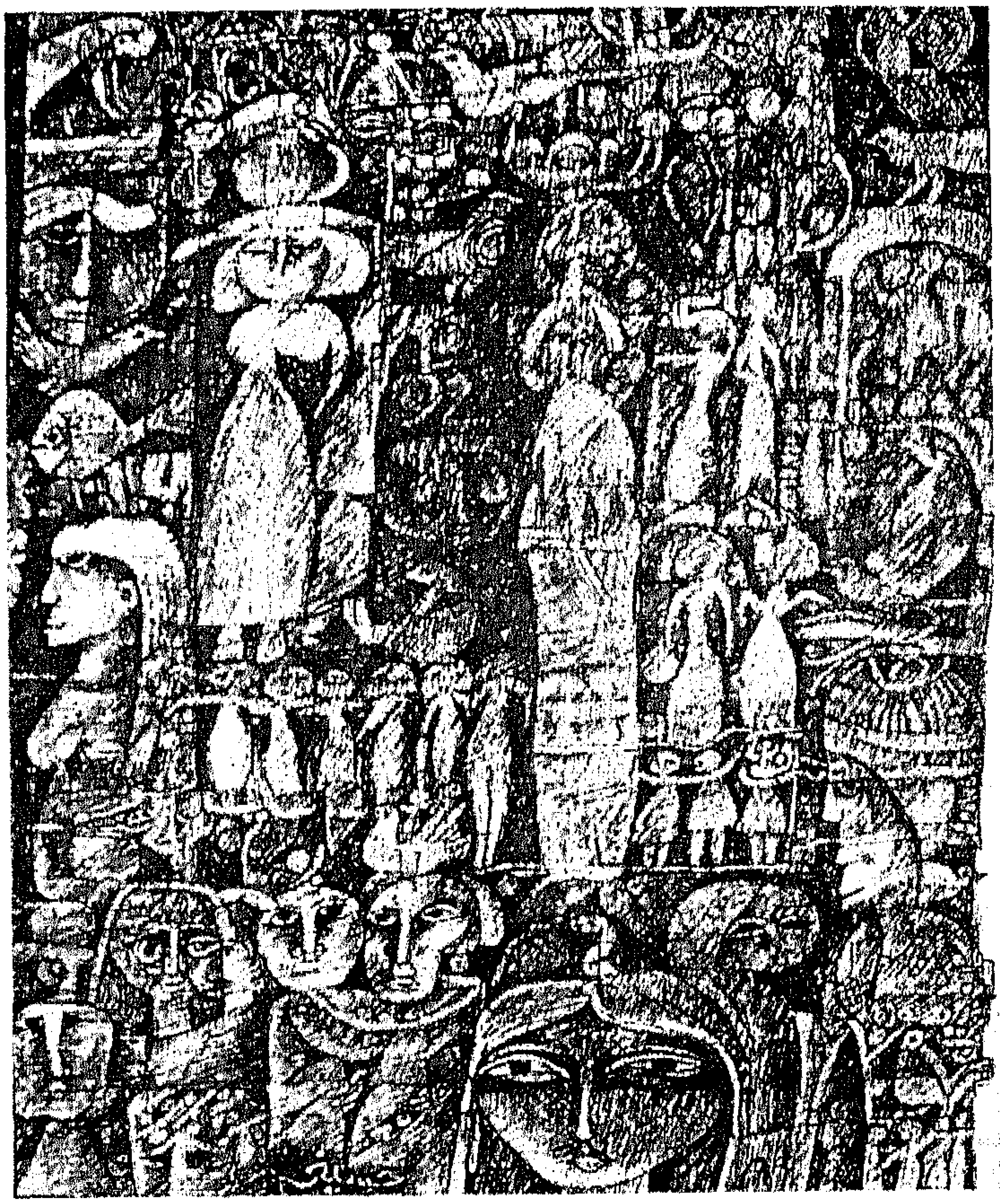

ست الدنيا.. يا فيروز!

لست ـ سيدتى ـ شاعرا يهدى للأحباب قصائد. ولست بياع خواتم يزين أصبعك بخاتم يوم ميلادك، ما أنا إلا كاتب يملك حروفا ينسجها القلم كلمات، وكلماتى هى ورودى التى لا تذبل، يا ست الدنيا يا فيروز! ما أنا إلا درويش فيروزى من دراويش جمهوريتك يسبح فى أطياف صوتك، إننى أكره أن أقدم لك زهوراً صناعية مهما كانت ملونة، لأنى لا أحب الهدايا الخريفية وأنت ربيع الحياة ونحبك فى كل الفصول، كما تحبك كل الأديان.

لقد صحوت من نومى ـ ذلك النهار ـ على مهرجان عصافير سابحة فى المدى الأزرق ففهمت أن اليوم عيد ميلادك، فهل أتصل بك تليفونيا؟ قد تذبح التكنولوجيا لهفتى ـ فالموبايل مغلق وأحاول فى وقت آخر! هل أكتب لك برقية؟ وهل تشى الكلمات القليلة بشوقى الكبير باتساع الأفق؟ أعلم أنك تؤثرين الإحساس على الكلام وتفضلين المشاعر على الورود، وكيف لا ونحن نسمع صدى صوتك فى قلب الحجر؟ وكيف لا وأنت شجرة أرز باسقة، جذورها غائرة فى أرض لبنان وفروعها ممتدة إلى بلاد المهجر ورائحة أزهارها كالعطر الذى يدوم، وكيف لا وأنت أرق منشور عاطفى يحول رجال الأمن إلى سكارى حيارى؟ وكيف لا وأنت الشعر والشاعر والأغنية والمغنى! فأنت سيدتى تروجين لثقافة الجمال وتنتصرين لتحضر الذوق وتخرجين على رأس مظاهرة تنادى وتهتف بسقوط الذوق المنحط فى كل شىء، فى الكليبات الهابطة وفى الحوار المتدنى وبالاغتيالات الدينية

في لبنان. أنت ترنيمة حب وترتيلة سلام، بوجودك بيننا تكفرين عن الركاكة والقبح في الحياة وعن رداءة التلقي والاستقبال.

صوتك سيدتي يعتذر عن ضجيج المعارك التافهة، يعتذر عن السيارات المفخخة لقتل الرموز في لبنان، يعتذر عن انسحاق دارفور وانبطاح بغداد ودموع فلسطين، صوتك ـ على المستوى الشخصي ـ يرمم جروحي ويلملم عذاباتي ويصالحني على ذاتي ويشيع الدفء في أوصالي ويشعل حماسي ويبدد كآبتي ويضمد أحزاني. وجودك بيننا أعطى لزمننا قيمة، فأنت أغلى قصائد شعب جمهوريتك المترامية الأطراف الأكبر من خريطة لبنان، ونحن الفيروزيين نحبك بعمق نهر واتساع صحراء وبعذوبة ينابيع زحلة. آخ يا ليالي زحلة!

حبيبتي من مواليد برج العقرب، من نفس ذات البرج الكوني الذي تنتمين إليه، كبرياء بطول المسلة وحساسية ميزان الذهب وقلب بعمر طفل، حبيبتي تقول إنها فيروزية الميلاد والبرج وكلثومية الذوق والصوت، وأحترم ذوقها بتحضر يعطي لاحترام الذوق مساحة في حياة البشر. تذكرين سيدتي نهاد حداد ـ كما يناديك المقربون منك ـ أني قلت لك يوما في الجبل أنا أعشق أم كلثوم القصائد، وقلت لك إن أم كلثوم روجت للفصحى في الشارع العربي، وقلت لك إن طقاطيق ثومة العاطفية تصحي المواجع وتقلب دفتر أيامي، وقلت لك إن بعض الناس تصيدوا لي عبارة حبي لك على أنها إسقاط لأم كلثوم عن عرشها، وقلت لك إن أم كلثوم وفيروز قمتان، هرمان، أعجوبتان من عجائب الزمان، وقلت لك إن قصائد أم كلثوم المغناة هي ضيفة أذني في ليالي السهر، أما أنت فصديقة الفجر والضحى وساعة العصاري.

يا ست الدنيا يا فيروز، مضى عام من عمرك يا شجرة الأرز، والعمر المديد لك يا واهبة السعادة لوطن، يا نبع الصفاء والحب، يا سبيكة المشاعر والأحاسيس، يا غنيوة على شفتي، يا صفصافة فوق عنق وعلى كتف بيروت . وأقول للزمن ـ كما قال شاعر لا أذكر اسمه ـ أيها الزمن قف في طيرانك، فنحن عشاق فيروز نريد لحنجرتها الماسية أن تظل في مرحلة البكارة، نعم كف أيها الزمن كف عن الجريان ولا تزحف على الفيروزة المضيئة كالشقوس تضيء عتمة الليالي: حرمنا من أم كلثوم وعبد الحليم، فلا تبخل علينا بونس فيروز.. ست الدنيا! هكذا صلاة الفيروزيين، آمين.

مشوار المشاوير!

نأتي إلى الحياة بصرخة ونخرج منها بشهقة!

حين يشتد عودنا، نواجه الدنيا بنقاء، وسرعان ما تنتهك عذريتنا ونفقد الصفاء.. نخرج وقد ارتدينا فوق وجوهنا عشرات الأقنعة ونعيش تمثيليات محبوكة بقلم الكذب وإخراج البهتان، نحاول أن نعثر على أنفسنا، فنكتشف أن الازدواجية فى كراتنا الحمراء ولا مفر، فالمدن مسممة بسحابات سوداء لا من قش الأرز إنما من أنفاسنا وأصواتنا وصراخنا! وأى جهاز بيئة فى العالم غير قادر على مكافحة هذه السحابات السوداء البشرية، الفوضى تمشى فى الطرقات والمعايير اختلت وارتدى الفوضويون عباءة الديمقراطية وتمقرطوا بأشكال شتى.. معارضة فى الساحات، ميليشيات عسكرية فى الجامعات، محاكمات شعبية لوزراء.. حوارات مدججة لرأى قيل.. قضاة غاضبون، صحفيون يحاكمون.. أقلام تتطاول، صحف تتصيد، أحلام مؤجلة.

زمان وإلى وقت قريب كان واحد زائد واحد يساوى اثنين، والآن صار واحد + واحد يساوى أربعة وربما سبعة! زمان كانت الشمس تشرق ثم تغرب والآن الغروب يثقب ضوء النهار! زمان، كنا نعرف أن روزاليوسف يملكها إحسان عبد القدوس وأن الأخبار ملك الأخوين أمين، وأن الأهرام الحديث ولد على أيدى هيكل، الآن صحف لا تعرف من يمولها ومن ينفق عليها ولا تعرف من يوجهها وفى أيدى من (الريموت كنترول)؟ الآن، تحترف

الأقلام - بعضها - إرضاء فلان أو علان ولكل رضا سام ثمن، الصغار يتطاولون على الكبار بكلمات وأوصاف ممجوجة، وسحابات القاهرة فى واد وبقية الوادى فى واد آخر، هموم مختلفة، مشكلات مختلفة، آمال مختلفة.

علمتنا السحابة البشرية السوداء قيما غريبة، صرنا نتلون، نتذاكى، نتغابى، نتسيس، نبيع، ننحط، نهادن، نفتى، نصرخ، فلا يسمعون، نحتج، فلا يأبهون، نتشقلب، فلا يلتفتون أحيانا نتساءل: هل نحن أدوات مائدة؟ شوكة وسكينة وملعقة؟ ربما! ولأن (المرور السياسى) بلا إشارات حمراء وصفراء وخضراء، اختلط الحابل بالنابل وأصبحت للأشياء أسماء أخرى، فالفهلوة نجاح والصوت العالى ثقة والمحسوبية ذكاء والواسطة شطارة، وأصبح كل واحد منا (سيد قراره) يستولى على أرض الحكومة، لا مانع، يطرد سكان عمارته، وماله، ينشط فى مصانع تحت السلم، وفيها إيه؟ وكل يوم من ده كتير!

المتفائلون يسألون ويحلمون: هل هناك أمل؟ ماذا يزيح هذا الضباب عن العقول؟ الأمل ضعيف فى هذا الجيل، والأمل قوى فى جيل قادم سيشرب أطفاله القيم مع اللبن، وسيفطم على أدب الحوار واحترام الكبار. جيل لن يتنفس السأم، جيل سيرضع الجدية ويعمّد فى هيكل الانتماء. أما جيلنا فإننا نحقد ونحسد ونغار ونتشاءم ونخاصم ونعادى ونزمبك ونتنافس ونكافح ونتراشق، ونتهم، ونخاف ونقلق ونتزعج و.. الحياة قصيرة مهما طالت، الحياة رفة جفن فى عيون الزمن، الحياة شهوات مؤقتة، الحياة.. انتصارات مهزومة، نحن دمى خشبية من لحم فى أيدى الحضارة والتكنولوجيا، الحياة فخ من الشرور، وتأتى لحظة، نرصد فقط، نراقب فقط، نتفرج فقط، ونترفع ونتسامى ونهمش، ونقف فى الطابور الطويل الطويل، نتوقف وننتظر ونراجع وتكون الذاكرة قد أصابها الصدأ، ويستوى كل شىء القمة مع السفح والمجد مع الفشل، ونتساءل بحرقة: هل هناك من يقدر جهدك ويطرز مشوارك بإنصاف، وتنسال إلى خدك دمعة، فـ.. عظماء ذهبوا دون كلمة ونتذكرهم فى الميلاد أو الموت.. وكلما غابوا، أسدلنا عليهم ستائر النسيان، ونصبح رقما ينقص من التعداد القومى، ونسكن حفرة متر× متر، وربما يتذكرنا أحد أو ينصفنا آخر أو يسجل بصمتنا ثالث إذا كانت البصمة خضراء ولم تتعرض لعوامل التعرية أو الطمس!

إن للموت مواعيد، هى تلك المواعيد الوحيدة التى نجهلها، ولكن هناك - فى المجتمع - أموات وهم أحياء، أموات لم يقترب منهم التوربينى قاتل الأطفال سفاح المدينة، وهناك أحياء فى عداد الأموات ربما أنكرهم المجتمع وربما ذبحهم بعدم التقدير. لكن مشوار كل المشاوير يكلل بالصمت والسكينة لأنه فى حفرة ولن نستطيع أن نتصل بساكنها أو نحاول فى وقت آخر!

هو البلد كله زعماء وقضاة؟!

أمر محير فعلا، مثير للعجب والدهشة والتأمل! من سمات جيلى أنه قادر على التأمل، ومن سمات هذا الجيل أنه قادر على السلق والسلخ، ولعل هذا يرجع إلى معيار معنى النجاح الذى تغير وأصبح المفهوم للنجاح الزعيق والصياح والصراخ، ولا يهمنى كثيرا صراخ ناس فى مقهى ببشتيل بقدر ما يهمنى الصراخ تحت قبة البرلمان، فهذا مفترض أنه مكان العقل والعقلاء. والمتابع للبرلمان المصرى فى قضية الحجاب وقضية أكياس الدم يكتشف للأسف تدنى الحوار والاتهامات الجزافية.

وفجأة تحولت الأقلام والحناجر إلى منصات للزعامة الكاذبة والقضاة المزيفين، أنا لا أعرف هانى سرور ولم أقابله فى حياتى ومن الممكن بعد الضجة يطلع بريئا من الاتهام مثلما طلع وزير المالية محيى الغريب بريئا من الاتهام ومثلما طلع مجرم بنى مزار بريئا من الاتهام، براءة هؤلاء جاءت من منصة المحكمة التى نكن لها الاحترام، ولكن جاءت البراءة بعد الإعدام المعنوى ونشرت الصحف براءة وزير المالية فى سطرين، ونشرت براءة متهم بنى مزار فى مانشيت عريض شماتة فى الأمن المصرى وكأنه أمن جواتيمالا. والرأى العام فى مصر يدرك بحسه الشعبى وفطنته حقائق الأمور ويتفرج، ذلك أن (حزب الصمت الصموت) يكبر يوما بعد يوم، والمؤسف أن كل قلم وكل حنجرة على شاشة تحول أصحابها إلى زعماء وقضاة وكأن البلد كله (زعماء وقضاة)، البلد تحول إلى زعماء يفتون

ويقررون ويعلنون وكأنه بلد (ملهوش صاحب)، البلد تحول إلى قضاة يحاكمون ويصدرون الأحكام وكأنه بلد (بدون قضاة ورجال نيابة).

وهناك مثل عامى يقول (لما تقع البقرة تكتر سكاكينها)، وهو مثل ينطبق تماما على أى مصرى يقع فريسة للأقلام والحناجر حيث يبدو الغل واضحا، لست أدرى لماذا ـ كما يقول الحس الشعبى ـ لا(ندى العيش لخبازينه) ونترك رجال النيابة والقضاء ـ فى جو هادئ غير محموم- يقومون بدورهم الذى نحترمه ونحيطه بالهيبة والجلال فلن يتأثر قاض بمقال أو ببرنامج، فهو يحكم بأوراق وأدلة وبوصلة يقين، لماذا نتسرع فى إصدار أحكامنا الزعامية قبل صدور الأحكام الحقيقية؟ لماذا نخبط فى كل شىء ونهز أى شىء ونشوه كل الوجوه بنوع من الغل الأسود ونحكم بالإعدام قبل أحكام القضاة، واليوم لو جاء صوت مخالف لأصوات القطيع، سيواجه المقصلة، أين هى الديمقراطية التى نتشدق بها؟ فلو قلت كلمة عن هانى سرور سحلتنى الأقلام البغيضة مع أنى أقول بصوت منخفض ودون هياج أو تحريض: اسمعوا ماذا يقول الرجل لنفهم الحقيقة، ولو استضفت هانى سرور فى حديث المدينة ليقول ما عنده بصوت عقلانى، لخرجت الذئاب والثعالب تقول إنى أدافع عن الرجل وأعطيه فرصة للكلام والتأثير على منصة المحكمة!! وبالطبع سوف تغمرنى الوخزات واللمزات المسمومة، وربما قالوا إن ما أفعله لحساب الحزب الحاكم، مع أنى لست عضوا فى الحزب المذكور. وبعدين، البلد كله لازم يعادى فاروق حسنى فى قضية الحجاب وهانى سرور فى قضية أكياس الدم؟

وليس صحيحا أن حرية التعبير معناها الاتهام الجزافى ولا الضرب تحت الحزام، ولكن حرية التعبير معناها عرض القضايا بأبعادها، دون انحياز حزبى أو عقائدى أو مصالح. فما أسهل تشويه الآخرين فى مجتمع فوضى المرور السياسية، وصل الأمر إلى الغمز بقرابة فتحى سرور لهانى سرور لمجرد التشابه فى الأسماء.. إيه الخلط ده؟ إن اللعبة السياسية لا تخلو من الخبث وخلط الأوراق، فهل ما يحدث نوع من تمرد الحزب الحاكم على نفسه أو قل محاولة (تشويه) الحزب الحاكم بهذه الفرقعة أو ربما كان تغطية على شىء لا نعرفه؟!

ثم أين لجنة تقصى الحقائق فى البرلمان التى تؤدى واجبها البرلمانى فى مثل هذه القضايا؟ فهل هى قائمة أم نائمة، إذ لم نسمع لها صوتا، وعسى أن يكون المانع خيرا. لقد راجعت من أرشيف الصحف كل ما قيل واتهم به محيى الدين الغريب وزير المالية الأسبق وهو كاف كحكم للأشغال الشاقة، ثم جاء الحكم العادل ببراءة الرجل، وخرج الرجل من

محبسه طليقا حرا.. ثم اعتزل الحياة العامة بعد تجربة قاسية.

ما أحوجنا إلى ثقافة الدماثة فى الكتابة على الورق وفى الكلام على الشاشات، إن جيلى يطلب الحقيقة قبل توجيه الاتهام، لقد أتيت بحاتم الجبلى عندما أثيرت القضية وواجهته بكلام الصحف وتكلم وقال إنها (خلط أمور الصحة بالسياسة) لم أصرخ فى وجهه ولم أقم بالصياح ولم أتهم، إنما ذكرت له ما فى صدور الناس.

يحكم الصحف - للأسف - شهوة التوزيع، خصوصا الحزبية والمستقلة والشعار: (اضرب، توزع) و(اضرب بشدة تاكل السوق)، وعلى الشاشات (اضرب، تنجح، تفرقع، تزداد إعلانات). هل هذه طبيعة صحافة ظلت محبوسة فى قفص ثم أطلقوها فانتابتها حالة سُعار؟ هل هذه طبيعة شاشة ظلت هى الوحيدة فلما انتمت مصر لعصر الفضاء وظهرت شاشات أخرى طليقة صارت توجه الدفة كما تشاء؟

هل ما نراه اليوم هو ثمرة حرية التعبير؟ فإما عصر شمولى مغلق بالضبة والمفتاح أو عصر حر يستباح فيه كل شيء؟

وبصراحة وأمانة، فى البلد بعض الصحافة وبعض الشاشات ينثر السخط فى المجتمع، وقد يحرض على (العصيان المدنى) فبعض الأحداث والحوادث تأخذ أكبر من حجمها الحقيقى لتضمن التوزيع فى الصحف والمشاهدة على الشاشات! وإذا كان البلد كله زعماء وقضاة وجنرالات مقاه (ظهروا عقب نكسة ٦٧).. فأين بقية شرائح المجتمع العامل؟

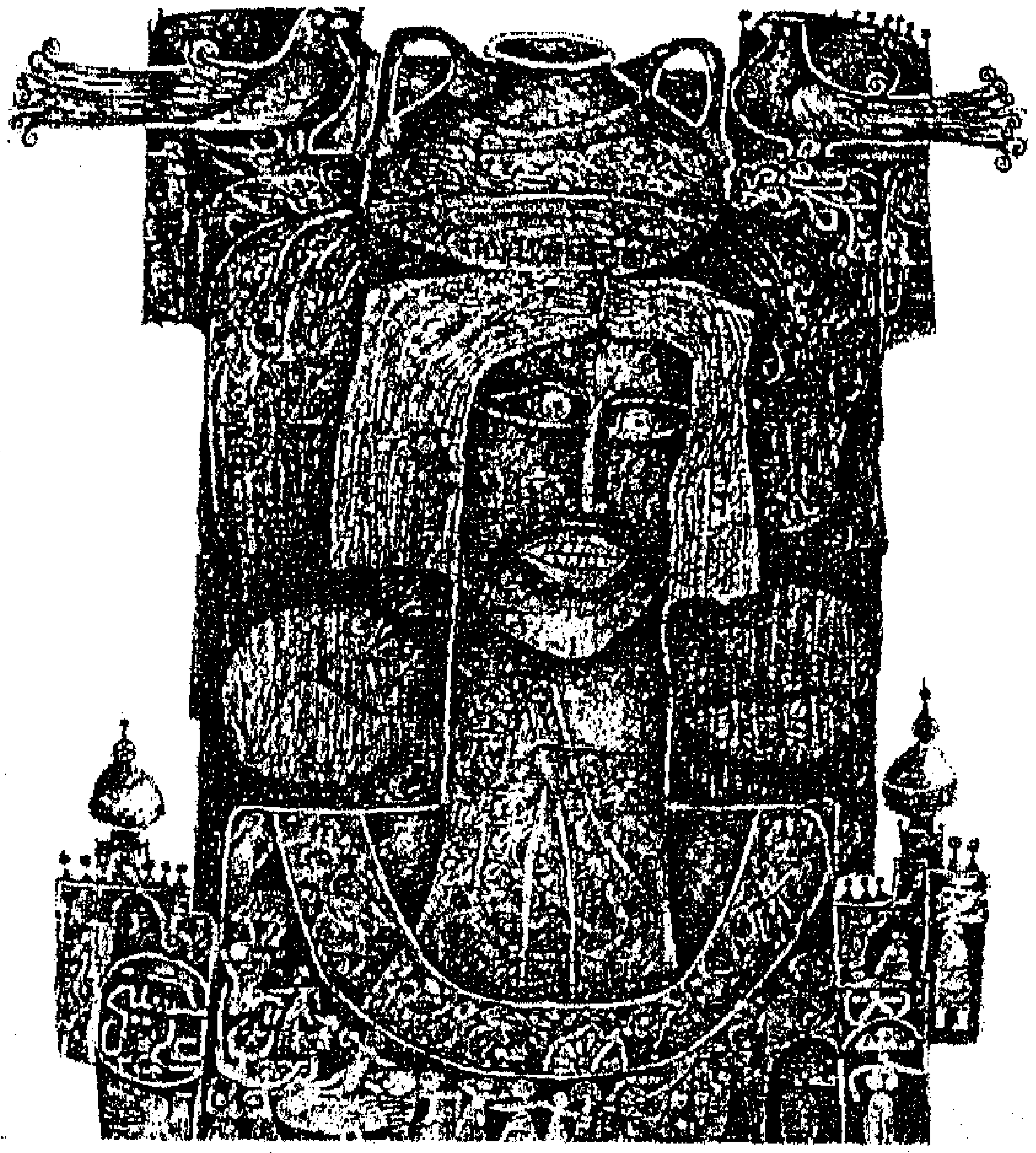

إنها خريطة للغضب!

الغضب الإلهى: أن يحرمك الله من حب خلقه.
غضب الطبيعة: أن تشردك بفيضان أو زلزال.
غضب الوردة: أن تقطفها وتقصف عمرها وتتحصن بالأشواك من الاغتصاب.
الغضب الحزبى: منعك من أدوات إعلامه بأوامر شفوية.
غضب المراهق: غضب أهوج وتجاهل عاصفة هوجاء يدركها علماء الاجتما ع.
غضب السائح: تراجع فى العملة الصعبة لبلد ما.
غضب الفقراء: ثورة مكتومة على الأغنياء لها مظاهر.
غضب المرضى: تخلف سياسة صحيحة لدولة ما وتعثر تأمينها الصحى.
غضب الحكومات: هز الثقة بها فى صدور الناس.
غضب الشعب: إرهاصات ومقدمات لعصيان مدنى.
غضب دينى: اندحار الوعى العام وأحيانا تجميع للرأى العام.
غضب الفنان: حين يصادرون ـ بجهل ـ فكره أو رؤيته.
غضب الصفوة: فيه حالات إمساك العصا من منتصفها.
غضب الكروى: أشد أنوا ع الغضب ضراوة لأنها دراما الحياة فى مستطيل أخضر.
غضب الأطفال: أن نفهمه أفضل من المحايلة المؤقتة.

غضب الأقليات: خطأ حضارى فى البنية السياسية.
غضب العلماء: فيروس يسرى فى جهاز أمة ويضعف مناعتها.
غضب التجار: لحظة تفعيل جهاز حماية المستهلك.
غضب العشاق: عافية علاقة عاطفية وتجدد خلاياها.
غضب السياسى: حين يفقد التفاف الناس حوله.
غضب الأذكياء: يحجبونه عن العيون فلا تكتشف نواياهم.
غضب كاتب: حين يقرر القراء (إنه منتهى الصلاحية).
غضب الشتاء: حين يمضى ولا تدمع سماؤه.
غضب الشاعر: مخاض قصيدة جديدة.
غضب الجنيه: ازدراؤه بين عملات ورقية مماثلة.
غضب النساء: التفات الرجال إلى (اهتمام آخر).
غضب الشرطة: تراجع وعى الناس إلى حد الفوضى.
غضب المعارضة: حين تكتشف أنها تؤذن فى مالطة.
غضب العراقيين: من أهلهم وعشيرتهم وقبائلهم وحكامهم المعينين.
غضب الحيوان: غضب متحضر للدفاع عن نفسه إذا هاجمته فقط.
غضب الحفيد: إذا وقفت فى صف أبيه وأمه.
غضب المسيحيين: من بعض المفكرين الذين لم يقرأوا القرآن الكريم جيدا.
غضب توشكا: يكتنفها الغموض بين الاتهامات والترويجات.. من يكشف حقيقتها؟
غضب الأم: تنطق به عيونها حنانا مقطرا.. حزينا.
غضب العمال: أسوأه حين يصبح اعتصامات هدفها لى ذراع الحكومة.
غضب المحافظ: حين يفشل فى ود المجلس الشعبى.
غضب ممثلة مغمورة: ضحت وأعطت وتنازلت وما زالت.. مغمورة.
غضب الحانوتية: من انتشار ثقافة المناعة بين الناس.
غضب المؤرخ: حين يقوم بتزوير تاريخ مغلوط إنصافا لحقبة ما.
غضب الفلاح: من محمد عبد الوهاب يوم غنى (محلاها عيشة الفلاح) وهى مش كده.
غضب المفكر: حين يطغى تحديث الآلات على (تحديث العقول) أمامه.
غضب الشموع: من الجحود وهى (تنصهر) من أجل الغير.
غضب الأشجار: حين تذبح واقفة وقد نذرت نفسها للظل.

غضب الطيور: بسبب طيور مهاجرة التقطت عدوى وخربت بيوتا مصرية.
الغضب الفلسطيني: اختراع فلسطيني لا تدخل فيه عناصر أخرى.
غضب الباعة السريحة: مطاردون إلى يوم القيامة.
غضب الكنيسة المصرية: منافسة كنيسة أخرى لها بسبب أمور جسدية لا روحية.
غضب المرضات: السمعة متدنية من نظرة الأطباء لهن أولا.
غضب مصر: حين فقدت الجهات الأصلية للبوصلة مسارها الصحيح.

خطاب عاطفى إلا قليلا!

حبيبتى.. لست أميل لتصعيد خلافاتنا، لنتراشق بغليظ القول مثل (فتح وحماس)، وكلماتى هذه لتطويق الاشتباك بيننا على طريقة حرص مصر على تطويق أحداث غزة. أرجوك النظر بعين الاعتبار لعلاقتنا وأن تجددى دوما الثقة بى، انظرى حولك لتجدى حتى نواب الحزب الوطنى يجددون ثقتهم بالحكومة، وأنت توأم الروح الحزب الحاكم لقلبى.

لا تغضبى لأنى خالفت موعدا كنا قد اتفقنا عليه، فقد كنت أشعر بألم شديد فى معدتى فسرها الدكتور بأنها مياه الشرب، تعلمين أنى أشرب من ماء الحنفية، ولكنى أقسمت أن أقاطع الحنفية بعدما عرفت أن ١٣٠ طلب إحاطة عن مياه الشرب فى مجلس الشعب. وأعلم أنى سخيف عندما طال انتظارك فى الشارع وتعرضت لكلمات التحرش اللفظية.

ولكن ماذا أفعل والاختناقات المرورية على أشدها وهناك ٣ محاور جديدة للقضاء على هذه الاختناقات اعتمد لها ٩٧٠ مليون جنيه، أعلم أن أسلوبى فى الاعتذار لا يعجبك وأنك مللت أسطوانة الكلام الرسمى الذى أستشهد به ولكن صدقينى أن أحوال البلد سرقت منا اللهفة على اللقاء والرعشة فى الاقتراب والرغبة فى العناق.

ماذا تفعلين لو كنت مكانى ورأيت سكان السطوح فى العمارة يربون الفراخ وهناك (خطر حقيقى) فى تربية الدواجن المنزلية، فلما واجهت جماعة السطوح لم يبالوا واضطررت للشكوى فى قسم الشرطة فأبلغونى أن هذا (ليس من اختصاصهم) تضايقت

وصارحت الضابط الكبير ساكن الدور الأول بما حدث فأبدى اهتماما ولكنه اعتذر لانشغاله بالإفراج عن ١٦ قياديا من جماعة الإخوان المحظورة. حبيبتى، أنا إنسان أحيا فى وطن ولدى اهتمام مثلك بشىءونه وشجونه ومحال أن أتكلم فى موضوعنا الخاص جدا عن زواجنا المقترب، فالبلد مولعة أسعارها والآن أفلت من سيطرة الحكومة ولست رامى ربيع لاعب الأهلى الذى دفع ثمن شرائه نادى المقاولون ٤٠٠ ألف جنيه.

أعلم ما يدور فى ذهنك، فلعلك تتساءلين (هل أنا امرأة فى حياة زعيم سياسى نازل انتخابات الرئاسة؟) لا.. أنا لست زعيما سياسيا يستعد للانتخابات الرئاسية، لكنى مواطن، أمارس يا حبيبة القلب مواطنتى، أكبر قيمة تبرز من خلال التعديلات السياسية الإصلاحية التى لا تهم المهمشين فى هذا البلد، ما الذى جرى بيننا؟ كل كلامك اتهامات بعدم المبالاة وبالاعتذارات المتكررة عن عدم اللقاء.

هل انتقلت إليك - يا أرق البشر - عدوى الاتهامات المتبادلة بين نواب الشعب؟ ألست معجبة بهيلارى كلنتون لأنها تطالب بوش بإصلاح حال العراق قبل رحيله من مستنقع الأوحال؟ وهل وصفتك بالزعامة وتشككت فى صدق حبك؟ إن عيبك الوحيد - كما يبدو من رسالتك الغاضبة - سرعة الأحكام والتشكك فيما أقول، مثلا، لم أتسلم رسالتك على الإى ميل لأن الحى كله انطفأت أنواره رغم أنه بتمويل من حكومتى اليابان والدنمارك، وهناك مزرعتان لإنتاج الكهرباء من الرياح بالزعفرانة مع أن الأولى إصلاح الشبكات المتهالكة، أما عن الرد على الموبايل فالشبكة كانت واقعة.

وعلى الرغم من ذلك فهناك شبكة ثالثة للمحمول فى الطريق، والناس - يا حبى - يحملون المحمول ويصابون بالأنيميا وفقر الدم. ابتسمى ابتسامتك الحلوة الطيبة فليس سوى الضحكة الصافية قادرة على رحيل كتائب الاكتئاب. تتهميننى بأن (الحياة واخدانى) وهذا غير صحيح فلم تسرقنى الحياة منك، المشكلة أن الأمور غير مستقرة فى ذهنك فيشوبها الشك، كأن تؤكد وزارة الصحة أن فلاتر الغسيل الكلوى سليمة، تماما مثلما يقال إن شركات توظيف الأموال قد أسدلت الستائر فإذا بالنائب العام يكتشف ٣ آلاف ضحية إيداعاتهم ٣٠٠ مليون جنيه.

لقد علمت من شقيقتك أنك ذهبت للتبرع بالدم استجابة لهدف قومى (دم آمن لكل مريض) فرحت لأنى اكتشفت أن الاهتمام بالشأن العام يختبئ تحت جلدك ونحن متفقان أن الحياة تريد كفاحا متواصلا وأننا لا نعيش بالأحلام على طريقة توصيل رغيف مصيلحى المدعوم إلى المنازل، فرحت بالمشاركة فى نداء قومى فلست امرأة مشغولة بتغيير

نغمات الموبايل، أبدا.. حبيبتى تتبرع بدمها، وربما كان أمرا عاديا لا يجب أن أتوقف عنده ولكنى أتوقف بسعادة لأن هذا يعكس لى عمق سلوك الانتماء، فهمت من شقيقتك أن والدتك رحلت عندما تعذرت فصيلة الدم الآمن الذى كانت تحتاجه.

حبيبتى ـ موعدنا كما هو ـ فى المعادى ولن نغيره رغم سيناريوهات الصحف وشغفها بالتوزيع والانتشار عن (ولد مراهق صايع معقد من البنات ربما بسبب صدمة عاطفية) يطلقون عليه السفاح يضرب الفتيات ويجرى، وبسبب فراغ هائل عند الناس يروق لهم (اختراع) سفاح يتابعون حكاياته ومغامراته ويزيدون من عندهم عليها بخيال خصب وحكايات محبوكة العقدة وينشغل ابن البلد فى البحث عن (السفاح المزعوم)! موعدنا كما هو فما زلت محبا وعاشقا ولن أقول مثلما قالت ماجدة الرومى (ودعت الغرام) ذاكرتى لم تصدأ.

وأعرف أن ذكرى اغتيال الحريرى اقتربت وملفات التحقيق لا تزال مفتوحة ومجمدة. ما زلت أراك واهبة السعادة، هذه حقيقة وليست ندوة فى معرض الكتاب، فلا تصدرى حكما جزافيا وأنت التى لا تصبح بنات جنسك قاضيات كما أعلن وزير العدل كونى قاضية عادلة فى قضية ارتباطنا الإنسانى، واغفرى لى محاولات التأثير على المحكمة، فأنا لا أجيد كتابة الرسائل العاطفية المبتلة بدموعى ولا أطبع شفتى على الرسالة، فربما كانت رسالتى عاطفية إلا قليلا، ولم لا؟ إن ديمقراطيتنا ديمقراطية إلا قليلا، ومجلس الشعب مؤسسة سياسية إلا قليلا، والمجتمع المدنى، مدنى إلا قليلا.

من حق مصر أن تتجمل ولا تكذب!

أرى محبوبتى مصر - من بعيد - صبية فائرة، تتأرجح فى صدرها الطموحات، وتلمع عيونها بالرغبة فى تحقيق آمالها الكبار، لا تنكفئ على ذاتها أبدا، بل تشب لتطل على العالم من النافذة. أراها حزينة من فرط جلدها وباكية أحيانا من جحود أولادها. أراها - على البعد - ترمقنا بنظرة يفهم العقلاء مغزاها وتفوت على البلهاء، نعم، فالعالم من حولنا يراقبنا ويرانا بوضوح أكثر من مدونات النت وأعمق من تقارير المراسلين، يرانا العالم وقد يشفق علينا.

ونحن سائرون كالنيام لا نرى أبعد من أنوفنا، متصورين أن الوطنية فى جلد مصرنا، والوطنية بريئة من هذا المفهوم المتدنى، مفاهيم عبثية كثيرة تعشش فى عقولنا وتحركنا وتسيطر علينا وتلتهم أوقاتنا. لقد حان الوقت أمام الصبية الناضجة مصر أن تتجمل بحق لتزهو بنفسها، وهذا حقها وهى تشعر أنها فقدت لياقتها وريادتها نغير تماما مفهوم الوطنية الذى تتكحل به عيون محبوبتى، صارت الوطنية أن ترمم جرحا أو خدشا أصاب مصر، صارت الوطنية أن تبكى - لا تشمت - إن أصابها مكروه، صارت الوطنية أن تنثر رياحين الحب لا تزرع بذور السخط.

دهون مصر المتركمة على شرايينها تنذر بذبحة صدرية، ولهذا يجب أن تخضع مصر لنظام (صحى)، دهون مصر تكمن فى سموم التخلف التى تهاجم العقول، وتكمن فى الفرقة بين جناحى الأمة، وتكمن فى غياب كفاءة الإدارة التى لم تتعرض للشمس أو الهواء

الطلق يوما، طبيب مصر الحقيقى، عنوانه معروف، وبأنامله الساحرة يصنع نيولوك لها، اسمه العلم أو الاكتشاف أو المعرفة.

العلم يضرب التخلف فى مقتل، العلم يذبح المفاهيم العبثية دون إراقة الدماء، العلم يغير نظرتنا للأشياء يحقننا بالموضوعية، وينسف الشعور بالذاتية.

حينما جلست مصر أمام طبيبها، لم تقلب فنجانها لتقرأ الغيب، ولكنه صارحها: تنفقون على البحث العلمى رقما تافها يعكس عدم إيمانكم، وجارتكم اللدودة تنفق أضعاف أضعاف ما تنفقون! أنتم مشغولون بأنفسكم كثيرا وكثيرا! التعليم لديكم مجرد أعداد أى أرقام! نصيبكم من الرقى قليل ولا يذكر! وصمت طبيب مصر برهة وقال لها: ليس لديكم رؤية وتعيشون اليوم باليوم، ولا تعنيكم سوى اللحظة الآنية ولا تهمكم كثيرا اللحظة الآتية، تصفقون إذا صفق أحدهم وربما لا تعرفون لماذا تصفقون! يسهل التأثير عليكم لأن العقول مغيبة ولو استخدم أحدكم عقله، صرختم فى وجهه: مجنون، أحمق، مخرف، متخلف، فوضوى، شيوعى، إخوانى، والحق أقول أنتم المجانين والحمقى والمخرفون والمتخلفون والفوضويون والشيوعيون والإخوان!

أنتم كل هؤلاء لأنكم تحتقرون هذا العضو - الذى ميزنا به الخالق - العقل.

من حق مصر أن تتجمل بالإصلاح الاجتماعى قبل الإصلاح السياسى، ما قيمة دستور جديد على بشر رقصوا يوما عقب نكسة ٦٧ تحت قبة البرلمان؟ ما قيمة دستور ناصع البياض لبشر مفتونين بأصواتهم، يهاجمون للهجوم فقط ولم يعرفوا معنى الإصغاء وتدبير الأمور؟ ما معنى دستور حقق المراد لمرضى بالشللية والفوقية؟ العيب فينا نحن البشر، سكان مصر المحروسة بعناية الله.. وعلى ضوء ما تساءلت به، فالإصلاح الاجتماعى أكثر أهمية واسألوا رجال العلوم الإنسانية المهمشين فى هذا المجتمع، من حق مصر أن تتجمل ولا تكذب، فعندما تسير أمامنا مختالة بعطر الديمقراطية، ونشم شيئا كريها، نشم تشبثا بالرأى، ونشم انتصارا للصوت العالى، ونشم حربا رغم السلم، ونشم غوغائية فى الصحف أحيانا، وفى البرلمان أحيانا أخرى، وفى مقاهى الشارع المصرى أحيانا ثالثة، تدهنين وجهك بكريم المواطنة ومع ذلك لا أرى فعلا بل أسمع لحنا.. أين هذه المواطنة والمواطن المصرى (نجمة واحدة) غلبان تعس مقهور ضائع فى الزحام؟

إننى أرى وجهك جافا ومتشققا ومتورما والحل فى عيادة المواطنة الحقة شارع الدولة المدنية. إن أشياء كالديمقراطية والمجتمع المدنى تحمل مكتسبات لونية ضارة بصحة مجتمع وحريته، لا بد من (مطهرات) لديمقراطية تحمل صور الديكتاتورية ولمجتمع مدنى

بعيد عن المدنية، لا تكذبى إذا أردت نيولوك أمام العالم.

قلت يوما كلاما عن الفشل والفاشلين وتمخض الأمر فى ذهنى وطلع على سن قلمى وهو حزب أعداء النجاح، الذى ينسبه البعض من المتقعرين لأنفسهم!

واليوم أضيف إلى أنواع الحمى التى نصاب بها حمى اسمها (حمى الصياح) نحن مصابون جميعا بها، تأتينا الشوطة فنصيح ونتصايح، ويضيع الحق، ويتمرمط المنطق، ويتبخر العقل.

تلك هى (أعراض حمى الصياح) وهى أخطر على المجتمعات من حمى الملاريا وحمى الكوليرا، إن الملاريا والكوليرا تحصدان أفرادا وحمى الصياح تحصد مجتمعات.

من حق مصر أن تتجمل وتتخلص من حمى الصياح التى تنتابها كثيرا عند ظهور موضوع ما، من حقها أن تتجمل ولا تكذب، ففى مصر ثقافة جديدة لها شقيقة، الأولى اسمها ثقافة التصيد وشقيقتها اسمها ثقافة الغل، الأولى، هدفها البحث عن العورات، والثانية هدفها النيل من الآخر حتي الموت، والمتصيدون ينتشرون كالذباب فى ليالى الصيف، والمغلولون ينتشرون فى أجهزة الدولة ربما فى المستويات العليا ويخفونها بعيون زجاجية، وربما فى الصحف ويخفونها بادعاء الأمانة والخوف على القيم.

وما لم تراجع مصر مسارها وتصبح أسيرة المضمون لا الشك فالخوف من.. انتفاضة الشرفاء.

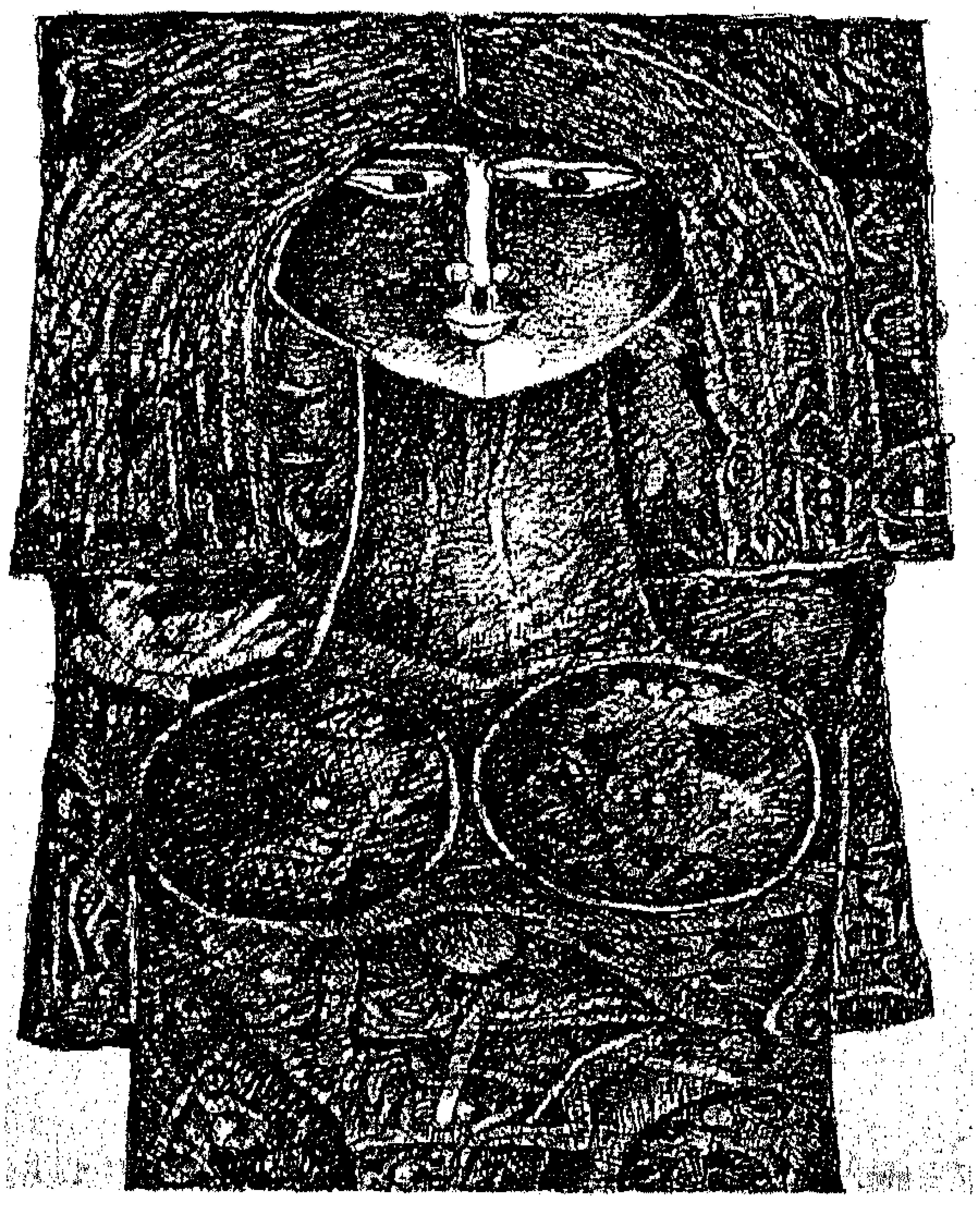

نظرية العسل والبصل فى الحب!

يأتى الحس الشعبى - أحيانا - بفلسفة تفوق حكم الحكماء، مثلا، هناك مثل شعبى يردده الناس يقول: (قرب أوى تبقى بصل، ابعد شوية تبقى عسل)!

ولا يجب المرور على هذه الحكمة الشعبية مرور الكرام، بل إن استيعابها بهدوء يكشف ببساطة عن نظرية شديدة العمق فى الحب.

إحدى أهم العلاقات الإنسانية، ربما كنت مستقرا ولكنك (غير سعيد)، وربما كنت مستورا ماديا ولكنك (غير سعيد)، وربما كنت مشهورا - شهرة أبو تريكة والحضرى - ولكنك (غير سعيد)، وربما كانت فى حياتك زوجة جميلة ولكنك (غير سعيد)، إنك تفتش فى نفسك عن أسباب خصام السعادة لك.

وقد تعود إلى طفولتك فربما كانت هناك آلام متراكمة راقدة فى اللاوعى تفسد عليك استمتاعك بالحياة.

وما أكثر الحيارى فى هذا الوجود! إن الإنسان منا قد يتخندق وقد يتشرنق وفى الحالتين يدخل إلى خندق الذات هاربا من أوجاع الحياة وصخب السياسة وطاحونة الأخبار على كل ألوان الطيف ومفرمة البشر بأيدى البشر، ولا يحتمى إلا بحبه، بتلك المشاعر النقية الصافية كالبللور.. العذبة كمياه نبع.

يقتسم مع امرأة تهواه ويهواها، قبلة أو حوارا يرتقى إلى مستوى جنس المحب! ولكنه

برغم هذه المسرات يظل غير سعيد، إنه راض.. لكن الرضا ينقصه شيء يسرى فى الوجدان يجعل صاحبه يود لو يحلق بجناحين كعصفور طليق، لكنه عاجز! ولست خبيرا فى أمور القلوب ولا أنا بطبيب نفسى ولا أقرأ الفنجان أو أفتح المندل، وبالمثل لست أملك بعض ما أبحرت فى عالمه ابنتى حنان مفيد فى علم الفلك،

ومدى تلاقى كاريزما الأبراج مع بعضها، أنا مجرد واحد من الحيارى فى هذا الكون، أحاول قراءة خبراتى الحياتية بشيء من التأنى، أحاول النفاذ إلى عمق هذه الخبرات ببصيرة وأفهم أن للحب كذا تعبير، واحد بكلمات الإطراء المخملية، والثانى بالمواقف العملية، والثالث بقضاء الأوقات الجميلة، والرابع باللمسات الذكية، والخامس بالهدايا كلغة حب ومن الممكن أن أتبنى طريقة المواقف العملية مع امرأة ترى الدنيا بأذنيها وتعشق الكلمات المخملية، فيحدث ذلك الصدام الروحى الخفى، فلا أنا سعيد ولا هى سعيدة، ذلك أننا نتواصل عبر موجات مختلفة، ومن الممكن أن أتبنى أسلوب الهدايا كلغة حب مع امرأة تقيس الحب بمدى الأوقات الممتعة التى تقضيها، وهنا يحدث إحباط للطرفين.

وهو فى الواقع ليس من باب رفاهية الإحباط إذا صح التعبير، لكنه يولد إحباطا داخليا، والسبب أن كلا الطرفين يتكلم لغة مختلفة، هناك أمر آخر فى مؤسسة الزواج وهو (التعود) الذى يذبح اللهفة ويميت الأشواق، وللهروب من التعود ابتدع الغرب فكرة أن تعود الزوجة كل ويك إند إلى بيت أهلها ويعود الزوج إلى أصدقاء العزوبية، ثم يلتقيان خارج البيت ويعودان معا، الفكرة تجدد خلايا العلاقة الزوجية وتحقق أن البعد قليلا هو العسل، وأن الاقتراب الشديد الذى فيه صفة الدوام هو البصل ذو الرائحة غير المستحبة ولا ينقصها إلا عطر الإجازة المحدودة لكسر آفة التعود، هل معنى ذلك أن الزواج هو تربة غير خصبة لنمو الحب واخضراره الدائم، إنه يأخذ أشكالا أخرى أهمها (العشرة - بكسر العين)؟

هل الزواج كمؤسسة لا تحتفظ للقلب أن يكون (in love) أى فى حالة الشغف واللهفة؟ هل الزواج أفضل من الطيارين وقباطنة البحار والصحفيين المسافرين وراء الأحداث؟ ربما!

وهنا أقول إن الجغرافيا توجد الأشواق بين اثنين بينهما تاريخ، والاقتراب الشديد يكثف العيوب لأن النظر بالميكروسكوب يكشف عن أخطاء وعورات لا تظهر على السطح بالعين المجردة، وكلما ارتقى الإنسان صارت حاجته للمشاعر أكبر باستثناء رجال السياسة الذين يعشقون السياسة بمتعة منقطعة النظير، ويتنازلون عن احتياجات إنسانية

مهمة، إن بعض رجال السياسة يكتفون فقط بمتعة سريعة (راجعوا علاقة كلينتون بمونيكا)، والحب - كاحتياج إنسانى - يتأثر بكل ما فى الحياة من ضغوط وصخب وزحام وعدم وئام، إن هذا كله يقوم بعملية تشويش على شبكات رادارات العشاق فلا تستقبل جيدا، هناك دائما فرق بين ما أتوقعه و.. الواقع.

ولكى يكون الإنسان سعيدا فلا بد من أمرين، إما أن يغير من توقعه أو يبدل واقعه، وربما كان هذا الاختيار العقلانى يفسر لنا لماذا كانت فلانة المحبطة فى زواجها، أكثر سعادة بعد زواجها الثانى.

ليس من الضرورى أن تتشابه مع زوجتك فى الصفات، ربما كان الاختلاف - غير المنفر - تكاملا فى العلاقة الإنسانية! وقد يفضل الرجل الضعيف امرأة غبية (احتياجاتها تافهة)، أما الرجل القوى فإنه يريدها جميلة لها عقل لأن الجمال هنا ينبع من الداخل ويظل عطره طويلا، ويسهل (التأقلم) ويهون (التكيف)، ويصبح للحوار العام عن النشاط النووى المرتقب فى مصر، مذاق خاص، ومن الممكن مناقشة كل شىء على مائدة حوار دافئة بدءا من ميزانية البيت إلى العلاقات الحميمة، بإمكان المرأة أن تكون فى حياة الرجل دودة وبإمكانها أن تصبح فراشة، والفرق بين الاثنتين كبير، فالدودة قابعة محدودة الزحف والفراشة تحلق بجناحين، وأيضا بإمكان الرجل أن يجعل من الدودة.. فراشة إذا احترم إنسانيتها ومطالبها وعزف على أوتارها الصحيحة وخرج قليلا من الأنا ليتسكع فى دروبها بصبر وحب، ذلك أن المرأة، لا تزال فى مجتمعنا الذكورى شيئا له طعم الخجل.

(يطلقون على الزوجة: الجماعة) ووصل الأمر أمامى أن كتب أحدهم - خريج السربون - فى أوراق رسمية لسفارة اسم الأم: أم صابر، ولم يذكر اسمها صراحة! بإمكان الرجل الذى يعرف غرام زوجته بأدب يوسف السباعى، ورومانسيته، أن يخاطبها بكلمات صادقة، تدغدغ عقلها، فإطراء المرأة جواز مرور إلى عالمها، صحيح أن المرأة تعشق الاحتواء الحنون وقد تفضله على أسلوب الرجل العملى حتى ولو كان عائد هذه (العملية) عليها، هناك أحيانا امرأة فراشة تتحول على يد رجل ارتبطت به إلى دودة والسبب جبال الإحباط فوق كتفيها، تلمح الحزن الصامت فى عينيها. لماذا اخترت الكتابة فى هذا المنهج الإنسانى؟

ربما كنت أريد التعبير عن (الذات المعذبة) عند بعضهن، وربما كنت أريد فهم عمق الإحباط الذى يسرى فى الروح دون سبب contented but not happy، فالإنسان ليس (حيوانا سياسيا) يتغذى على أخبار نصفها كاذب، الإنسان مخلوق راق وبيده رقيه

وبيده انحطاطه! ولا تصنع الثروات تضميدا لجروح الروح! أردت القفز من درجات الملاعب السياسية إلى النزول ما أمكنني فى آبار النفس البشرية التى يهزم لهفتها التعود فيحيله إلى رماد وتؤجج نارها (المسافات) الجغرافية فيقضى على الإحباط الداخلى المستتر.

ليؤكد نظرية العسل والبصل فى الحب ويحول الدودة إلى فراشة ملونة هائمة، ويحول الثور إلى حصان جميل راقص!! أردت أن تصبح معزوفة العمل فى بلادى، عازفوها بلا صدمات أو إحباط، فيا ويل مجتمع يعمل بنصف حماس وثلث إتقان، يا ويل مجتمع أكثر من نصف رجاله ونسائه فى دائرة الإحباط ويكتمون هذه المشاعر، لأننا تربينا على أدب القرود، الصمت أدب والكتمان أخلاق والبوح فضيحة، قصدت أن تتحرر العقول من الأسر والقلوب من الاضطهاد لأن الصحة النفسية هى الأغلى.. ولهذا.. لن (أعتزل الغرام)!

من أدب الافتقاد...

أستأذن فى مساحة بوح شخصى، إذا كان للكاتب الحق فى مصارحة قارئه بمكنون النفس ودمع الفؤاد، والإقامة ـ أحيانا ـ فى محطة (الشأن الخاص)، لا يفسد للشأن العام قضية، فالمهموم بتعديلات دستورية تجرى فى بلاده، له قلب ينبض وعقل يفتقد غاليا لديه، وقد تساءلت كثيرا: ما معنى أن يفتقد المرء عزيزا عليه، غادر الحياة؟ وأيقنت أن هذا العزيز ما زال يسكننى ويقيم فى صدرى وربما ترن كلماته فى أذنى وقد أشم عطره بأنفى، إننا نفتقد أحباءنا الذين ودعناهم، وتظل ذكراهم خضراء مهما مضت السنون، وهأنا ذا أغمس قلمى الملتاع فى محبرة الشوق الجارف.. وأكتب كنا زمان قلبين الموت فرقنا، هى التى اختارتنى وفضلت البقاء معى فى مصر، على الهجرة المريحة لكندا حلم المهاجرين، وفى أول مرة دخلنا بيتنا، كان علىّ تقسيط ٥٥ جنيها ثمن سجادة السفرة بواقع ٥ جنيهات كل شهر!

لم أخجل من عدم قدرتى ـ وقتئذ ـ فقد أرادت هى أن تقاسمنى شجاعة الكفاح، وكنت أيامها نكرة لا يعرفنى أحد ومرتبى ١٨ جنيها و٥٧ قرشا، ولم أفهم لماذا أشارت على وأمامها شباب قادر ماديا ومعنويا، هل هو الحب يرجح كفة الاختيار.. ولم لا..؟ كانت تسمعنى وأنا أعبر عن نفسى وتتسكع معى فى شوارع طفولتى التى لم تكن سعيدة، كان إصغاؤها لأحلامى مثيرا وكانت قليلة الكلام عن نفسها، كتبت لى مرة خطابا مطولا من

مائتى صفحة تعلق فيه على تحقيق صحفى استمر ٥ أسابيع عن أوروبا بعيون مصرى تطأ أقدامه ألمانيا لأول مرة، ولم يكن فى خطابها الطويل الطويل كلمة عاطفية واحدة ولكن اهتمامها بنفس طويل أسرنى وزاد من (غلاوتها) عندى، فقد دخلت القلب من نافذة اهتماماتى وعشقى للكلمة، كان لها أسلوب خاص، أتذكر سطورها الأولى من خطابها الطويل أصدرت عفوا عن مشاعر مسجونة فى صدرى لشهور سوف تمرح من فرحتها بين عينيك! هى كانت صاحبة رادار حساس ولا شىء أجمل - يا أصدقائى - من حساسية رادار المرأة، فقد (التقطت) أحزانى وأنا المفصول من العمل بأمر شفوى من النظام الشمولى.

كنت قد كتبت مقالا أنتقد فيه بتهكم السياسة الزراعية وكنت أقف مع المعلمين فى محنتهم، فأراد النظام تأديبى حينذاك، هى، طوقت أزمتى مع النظام بحنانها، نهر الحياة الذى كنت أغترف منه، فهى صعيدية من بنات الأقصر تحمل سمرة شمس الجنوب وأصالة (طيبة) الموغلة فى التاريخ! صعدنا السلم درجة درجة، أنا مبحر فى دنيا الحرف المكتوب، وهى مبحرة فى دنيا الهمس المسموع، كان قاربنا يتهاوى على صفحة التفاهم والتناغم، جاءت ثمرة حبنا حنان التى ربيناها على أن عفة العقل قوامها عفة الجسد، ويوم كبرت حنان أرسلت خطابا بخطها الركيك المقروء تقول (يأتى إليك يا والدى شاب واعد فى موعده الذى حددته له يطلب منكم يدى، لقد صرت فتاة، علمتمونى المشى، حتى صلبت طولى وعرفت المشى فى الحياة...)، يومها دمعت عيناى وعرفت مهام الأبوة، وكنت أترك لها أمور الشىءون الداخلية فى البيت تديرها بحكمة امرأة صعيدية عصرية، ولم تكن الحياة نزهة ولكننا حولناها إلى نزهة.. كيف؟ بصداقتنا معا، تلك الصداقة التى تبقى بعد نفاد مخزون العلاقة، كنا نختلف وتشتد خلافاتنا وأترك البيت لساعات وربما لأيام فإذا سمعت اعتذارها عدت. وجاء يوم دخلت هى الإذاعة وكانت مغردة وأقام صوتها الدافئ فى فندق الذاكرة برغم الرحيل، ودخلت التليفزيون وبدأ حزب أعداء النجاح يمارس نشاطه، وبدأت أصوات الفحيح تتآمر على أذنها، وكان ذلك ينسج مشكلات، تغلبنا على بعضها وهزمنا البعض الآخر، عشنا معا كل اللحظات، الاقتراب والبعاد، الشوق والحنين، الملل والحزن، البهجة والفرح، دخلت هى مرحلة المرض، كان شبح الموت يأتى كالطيف فأزداد تشبثا بها، وأسهر فى معامل التحليل لوش الفجر فى انتظار النتائج وألهث للأطباء ساعة الضحى وأركز عينى بدقة عدسة زووم على شفتى الطبيب وما ينطق به، وعانينا - بفداحة - من أخطاء الأطباء المفترض أنهم كبار، رآها طبيب كبير وبعد الكشف بالمنظار قال لنا

بلاش دلع، ده شوية بواسير لكن ميت فل وعشرة، ونامت (هى) على هذا التشخيص ولكن الألم كان يشتد ويعنف. ولما سافرنا أمريكا قال الطبيب بعد الكشف، إنها (مرحلة متأخرة) من الورم، لحظتها تجمدت عروقى، وشعرت بعطش حاد وأحسست بلحظات هذيان، وتماسكت أمامها وابتسمت ابتسامة شاحبة بعينين مغرقتين فى الدموع وتحشرج صوتى، وشيء ما جعلنى أحس أن وزن جسمى تضاعف حتى صارت خطواتى ثقيلة.

أما هى فقد كانت قوية، هل هى (قوة الذى يعرف نهاية الطريق)؟ هل هى (قوة الإيمان)؟ هل هى (قوة الإيحاء بالقوة)؟ وبدأت رحلة العلاج.. ودائما أقرب البشر للمريض، مريض مثله، يتفاءل فى ثانية ويتشاءم ساعات، يفرح لثوان ويحزن ليالى، يصغى للأطباء ولا يفهم من حواراتهم شيئا، ويوم جرعة الكيمو ينتقل إليه الألم!

حين كنت أعود للقاهرة بشكل مؤقت، كانت الحياة ضبابية، شبورة كثيفة أمام عينى، وصرت أستشف من صوتها حالتها المعنوية، مرة أسمعها تعلن لى عن رغبتها فى زيارة البندقية فى إيطاليا، المدينة السابحة فوق جداول ماء، ويعلو صوتى حماسا، فهذه الرغبة تشى بحبها للحياة والانتصار على كآبة الموت، ومرة أخرى يصلنى صوتها ضعيفا وأكاد أتبين من كلامها كلمة (خلاص..) فأشعر أن النهاية اقتربت فأغرق فى بحر من العرق وأقاوم أمامها - ولو من بعيد - الانكسار.. شهورا وشهورا، تمرغنا فى حقول الأمل قليلا وأغرقتنا أمطار اليأس كثيرا.

وجاءت إلى مصر بعد رحلة علاج طويلة تصارع المرض والمرض يصارعها، كنت أذهب إلى الكنائس والمعابد والهياكل والأديرة أشعل الشموع وأطلب لها بشفاعات القديسين.. الحياة، ثم كنت أعود إلى البيت - بيتنا - وأنام مفتوح العينين فربما تطلبنى فى أى لحظة، قبل ساعات من رحيلها قالت لى وعلى سرير المرض وكانت تبكى (غلّبتك معايا) وربما كانت هذه آخر كلماتها قبل أن تنقل لجهاز التنفس الصناعى. فجر يوم ١١ مارس ٢٠٠١ اتصل بى المستشفى وقال موظف التليفون (البقاء لله) وتسمرت فى موقعى ودار الشريط كله أمام مخيلتى، من أول لقاء فى فندق بالأقصر.. حتى تزويد رئتيها بالأكسجين ابتغاء الحياة داخل غرفة عناية مركزة، أفتقد (آمال العمدة) رفيقة الدرب والمشوار.

أعيش أفتكرها كل دقيقة ما دام لى عقل يحب وقلب يفكر.

حوار مع جبل الذهب!

سيدى جبل السكر.. جئت إليك فى مسقط رأسك مرسى علم.. بعد مشقة.. جئت مسكونا بفضولى متعطشا إلى المعرفة.. جئت أثقب صمتك وإن كنت أعرف أنك تكره بطبعك ثرثرة المدن.. جئت، يسبقنى إليك احترام لشموخك وهيبتك ولا أخفى خوفى من صخورك النارية.. جئت أسألك وأنت لم تقترب منك يد إنسان منذ آلاف السنين.. فهل اشتقت للعطاء؟! هل أنت مغارة على بابا العصرية؟!

سيدى الجبل: أعلم أن عينيك على أشقائك فى الطبيعة، الشعب المرجانية التى تطرق الدرافيل كحدوة حصان، وآلاف الأسماك الملونة فى حوض البحر الأحمر.. لكن صمتك موحش خصوصا عندما يأتى المساء، تبدو ـ عفوا ـ كقطاع الطريق الذين يرتدون عباءات سوداء مخيفة.. لكنك فى الصباح مسالم وتملك قدرا من السماحة، فأنت ألفت الوجوه واعتدت السكون وصخورك النارية هادئة حتى إشعار آخر.. ولكن ألا تستفزك الحفارات التى تدخل بطنك والشواكيش فوق رأسك، يقتطعون من لحمك؟ ألا يستفزك البحث فى جسدك عن الذهب؟

سيدى الجبل: أعتذر عن غياب وعى تعدينى وعندنا ١٢٦ منجما للذهب وأفهم أن عطاءك لقرون طويلة، قادمة.. أعتذر لك عن مجموعة قوانين فى التعدين لم تتغير منذ عام ٥٦ وكأن الزمن قد توقف. أعتذر عن بيروقراطية التصاريح التى دخلتها أجهزة، أخجل أن

أعددها لك حتى ولو كانت تبحث عن ظلط! إن نباتات الأودية البرية خير دليل للجيولوجى لتقوده إلى الثروات فى جوفك! كل الجبال تنسف بالدناميت من أجل الحجر الجيرى، أما أنت يا جبل الذهب فالتعامل معك مختلف.. ولا أعتبر نفسى صديقا لك.. أنا عايز سهول أو هضاب، أما الجيولوجيون.. فهم أصدقاؤك، يعرفون أسرارك ويقرأون كفك.. ويستنتجون برجك.. هناك مصالحة بينك وبين الجيولوجى لأنه طبيب الأرض ولولاه لما سمعنا عن ثروات تخفيها بين صخورك.. تحملها قرونا وقرونا ولا تفرط فيها!

سيدى الجبل: دربت الرجال السمر على الصبر.. نسوا أحبابهم وأقاموا حياة على واحد من تعاريجك.. صاروا يعشقون الصخر ويتعاملون معك بشراسة وأحيانا بحنان.. يلطفون الجو بينك وبينهم بكمية معقولة من الماء، فتلين وترق وتبوح بأسرارك.. وسامحنى إن عاتبتك، فأنت تأوى فى جحورك الزواحف والثعابين والبسه هذه القطة الجبلية المتوحشة، وتأوى فوق هضابك الغزلان والنعام والأرانب، فكيف يسكنك الغزال الرومانسى الشارد الذى يبكى بالدموع إذا وقع فى يد الصياد؟! غريب أمرك يا جبل السكر.. فيك أغلى معادن الأرض: الذهب، الأكثر مقاومة للحرارة والضغط، وتتاكل صخورك الشرسة بفعل عوامل التعرية: الريح والماء!! وتسقط السيول على قمتك الشامخة ثم تنحدر بسرعة مخيفة فتكون السهول - سهولك الممتدة المنبسطة.. غريب أمرك يا جبل الذهب، بركانك الخامد قد يثور لأى سبب ولكن ما هى الأسباب التى تثير جوفك الساكن؟

أنا لا أعلم يا سيدى الجبل، لماذا أطلقوا عليك جبل السكر أو جبل الطير؟ أنت ترتبط فى أذهاننا بالرخاء.. أعلم أنه سيأتى مصنع من بوليفيا التى تتعامل مع نفس فصيلة صخورك وطبيعتها، وعندما يهل علينا عام ٢٠٠٨ سنتطلع إلى سبائك الذهب التى جاءت من صلبك تغطى الجنيه المصرى الذى ذاق الهوان.. ربما يصبح مغطى بالذهب كشقيقه الدينار الكويتى.. دعنى أسألك يا جبل السكر، هل خزانة مال البترول وقناة السويس والذهب مستقبلا (مخرومة) ؟ أحطنى.. وأفدنى وبدد حيرتى.. فمعلوماتى تقول إن الذهب يدخل موازنة الدولة فى العام الثامن بعد الألفين.

سيدى جبل الذهب، إن ثلاثة أرباع ذهب العالم تشتريه الصين من البورصات وربع الذهب مشغولات وسبائك.. فهل دخل الذهب من باب السياسة؟ هل تريد الصين أن تقفز بعملتها المتواضعة؟ وهل ذهبك - يا جبل - سيغير حياة الفقراء؟ هل سيجعلنا نملك قرارنا؟!

يا جبل، يا شموخا رابضا، يا قمة فى العلا ترنو إليها العيون.. ها أنذا أقف عند قدميك ألمس جسدك الصخرى بعد أن كنت أرسمك فى خرائط الجغرافيا.. وتعلمت قدر

اتزان الأرض مع الأنهار والبحار.. إن ما أراه وأحسه وأفهمه وأدركه بالعين المجردة يجعلنى أسبح باسمك يا رب الكون، وأشعر بضآلة الإنسان وجبروته! وأقف أمام الطبيعة فى حيرة حين تغضب! تفيض الأنهار دون سابق إنذار وتغرق الأخضر واليابس.. وتأتى الزلازل وتخرج البراكين من جوفك الصخرى لا تقيم وزنا لشىء.. وأصرخ فى صمت يا من يحار الفهم فى قدرتك.

أسأل ولن أكف عن السؤال!

الدنيا سؤال!

السؤال يثقب الصمت ويخترق الغموض وربما يكشف المستور.

السؤال صرخة الداخل وشهقة العقل وانتفاضة الضمير، السؤال حالة خروج من الجمود أو قل تنفس طبيعي للمخ، السؤال محاولة لاقتناص معرفة شاردة، السؤال علامة تأمل لواقع نعيشه ربما بإرادتنا، وربما مرغمين! السؤال فكرة معتقلة في الصدر تنتظر قرار الإفراج، السؤال تمرد على ثقافة كريهة سائدة، السؤال محاولة لقلب نظام العادة والتعود! السؤال استفزاز نبيل لانتزاع الحقيقة، السؤال ينم عن ثقافة سائله ودرجة وعيه، السؤال نبضة قلب في دنيا العشاق وزفرة حادة عند المطحونين ورفاهية لدى المريشين.

السؤال فضول مكتوم وجد طريقه للبوح، السؤال علامة استفهام معلقة فوق الشفتين، السؤال طائر الشوق للمعرفة فوق أغصان الحيرة، السؤال.. السؤال في السياسة ممنوع من الصرف، السؤال ـ أحيانا كثيرة ـ بمثابة تقديم واجب العزاء في موت الحقيقة، السؤال صهيل الجوع إلى الفهم، السؤال سهم يرشق أو رصاصة تنطلق ولا تعود، السؤال موقف في زمن لا يطيق المواقف، السؤال ابتزاز*مشروع لمن يملك المعلومة، السؤال سلاح المحاور على الشاشات ومحبرة الكاتب الجاد، السؤال أجمل جملة موسيقية في لحن الحياة، السؤال يشق السحب الملبدة لتمطر سماء الصدق، لو لم نسأل.. لاختنقنا من الجفاف

والحسرة، لو لم نسأل لقال الأحفاد عنا عندما يكبرون: كانوا جبناء! لو لم نسأل لاعتصم اللسان فى الحلق.

لو لم نسأل لبقينا شعبا فى مرحلة الروضة، لو لم نسأل لصرنا قطيعا من الخراف، لو لم نسأل لظل الفساد يمرع ويمرح ويرتوى من الصمت، صمتنا، لو لم نسأل لكنا غير مستحقين للحياة، لو لم نسأل، لما ازدهرت ثقافة ولا ابتهجت الكتب فوق أرفف، لو لم نسأل لذرفنا الدموع ندما على فرص تسربت من مسامنا، لو لم نسأل لخاصمتنا الحضارة وعاتبنا التحضر، لو كتمنا السؤال نكون مثل من كتم الشهادة، لو كتمنا السؤال نكون منافقين وأفاقين، لو أخمدنا أنفاس السؤال نكون قد أخمدنا أنفاس الوعى، لو غضضنا النظر عن السؤال، نكون فاقدى البصر والبصيرة، لو ترددنا فى السؤال فابكوا على حالنا و.. عجزنا..

الحياة غابة من الأسئلة، البعض هم كثيرون يحجمون عن السؤال لحسابات.

لو امتثلنا لعدم السؤال، فهى طاعة العبيد، لو عوقبنا على السؤال فكفى شرف المحاولة، لو وشوش السؤال فى أذنى أن أسأله وتقاعست، لكنت أستحق لوم العيون يحاصرنى، لو امتنعنا عن توجيه السؤال لكنا نشهد - كما قال صلاح عبد الصبور - سقوط الحاضر فى المستقبل، لو ظللنا نرى ولا نسأل، لسلختنا ضمائرنا عقابا، لو تلقيت أمرا بعدم السؤال - يا مواطن - قف دقيقة حدادا على المواطنة!

لا أحد يملك أن نعتقل السؤال فى رأسى، فهو فى تلافيف المخ يحيا، ولا أحد يملك القبض على السؤال وهو يتهيأ للخروج من شفتى، فهو داخل فمى يستريح على لسانى، والسؤال - فى ثقافة السؤال - ليس كلمات مرصوصة مذيلة بعلامة استفهام، السؤال معلومة أشتاق لمعرفتها، قد تكون فتوى من شيخ جليل أو رأى قدسى من راهب يشع إيمانا، وقد تكون صدقا يبدد ضباب الكذب وشبورة البهتان، السؤال ضرورة للإيضاح بصوت هادئ بعد الصخب لمتعثر فى المصارف، لمتهم أمام القضاء، لكاتب قال رأيا ويحاكم.

حين أقول مثلا: ألم يحن الوقت أمام الجامعة العربية لتطويق أزمة الحدود بين البلدان العربية كخطوة جادة وحقيقية على صلابة الحشد العربى؟ هل السؤال يفتح جرحا؟ حين أقول إن امرأة جاهلة لا تفك الخط أغواها ابن زوجها لتقتله بالسم، فهل إعدامها هو العدل أم سجنها المشدد؟ هل فى السؤال اعتراض أم اجتهاد أمام منصة نجلها ونحترمها؟! حين أقول: هل حزب الأغلبية الحاكم يقف كجدار صلب أمام تربص الإخوان المسلمين للقفز على مقاعد الحكم، هل فى السؤال تشاؤم؟ ولم لا والتفاؤل يخرج من رحم التشاؤم؟ حين أقول إن مشروعين كبيرين، أحدهما فى الأقصر والثانى فى أسيوط كانت القوات المسلحة هى (البطل) فى التكاليف والتوقيت والشفافية والتنفيذ،

فهل صار الجهاز الحكومي مترهلا؟ حين أقول إن مرفقى السكة الحديد والمترو خسرا عام ٢٠٠٦، من واقع تقرير جهاز المحاسبات أكثر من مليار جنيه، فهل حللنا الرقم أم ألقينا نظرة وخطفت انتباهنا تأوهات روبى؟! هل فى السؤال إساءة لوزير أم دعوة مخلصة لمعرفة سر شوبيس، آسف أقصد سر الخسائر؟

حين أقول إن بعض الصحف ترتدى عباءة الإخوان وتتظاهر بعكس ذلك، مثل بعض مثقفى هذا الزمن الذين يمسكون العصا من الوسط؟ فهل هؤلاء نطلق عليهم الصفوة أم نجوم السيرك السياسى؟ هل فى السؤال عورة؟ إن العورة أن أحجم عن السؤال!

وفى صدرى أسئلة كثيرة وعلامات استفهام ذليلة قد تتسول السؤال، لتفهم، لكنى لن أكف عن السؤال فوق الورق أو على الشاشة، أنا أسأل، معناها: أنا موجود، أنا أتنفس أنا أحيا، أنا أمارس مواطنتي، أنا أدخل بيت الحاكم من نافذة سؤال، دون أن يمنعني أمنه، مهما كان السؤال مرا أو حشريا، فللأمانة التاريخية، فى عصره فقط، النوافذ مفتوحة وعصافير الأسئلة تعود وتسمو أحيانا فوق...!

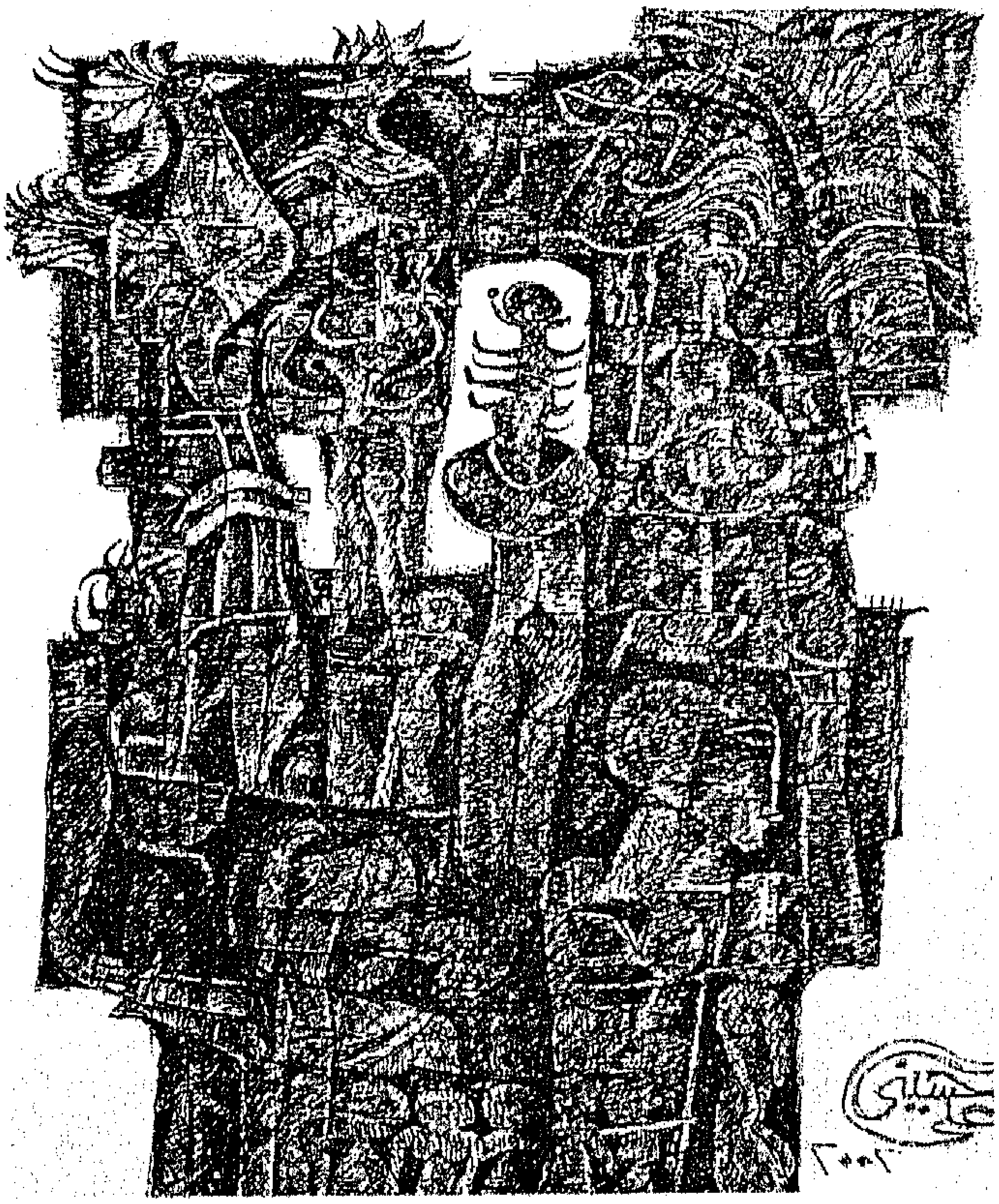

نزهة بين حقد ستان وجحود ستان

ليس دور القلم الخوض فى بحور السياسة أو التسكع حول جزر الأحزاب فقط، وليس دوره نقد الوزراء ولوم المحافظين فقط، ولكن دوره - أيضا - الإبحار فى النفس البشرية بصبر، وتعرية أشياء مستورة بابتسامات مصطنعة ووجوه زجاجية، ولست طبيبا نفسيا، ولكنى مجرد متأمل حولى أرصد أشياء صغيرة لكنها ذات مغزى، أرصدها متسلحا بخبرات حياتية متواضعة، ولا أغمس قلمى فى محبرة تشاؤم، ولكنى أتفاءل بوجود أنماط من البشر ليسوا من مدينتى (جحود ستان) و(حقد ستان)! ودعونى أقوم بنزهة بينهما، فعلى خريطة النفس البشرية تقع مدينة (الامتنان) بين جفون العين، وتقع مدينة حقد ستان فى الصدر، أما جحود ستان فموقعها فى القلب!

مدينة جحود ستان لا تعرف غير الجحود والتنكر والتحول، فهذا دستورها المقدس، والجاحد يفلسف لنفسه ذلك الجحود ليستريح ضميره إن كان له ضمير يقظ، والجحود صفة مرذولة فى المجتمعات تصيب ضعاف النفوس، و(قليلى الأمل) فضلا عن السم الهارى فى الأبدان، والامتنان صفة النبلاء خصوصا لمن دعوا الكراسى والمناصب والجاه والمظاهر وسقطوا من فوق عروش المجد، عندما سقط مصطفى أمين كتب يقول (رأيت فى قاع السجن النبل) إذ واجه مصطفى أمين بعضا من النذالة، وبعد رحيل السادات (تنكر) له البعض ممن تمرغوا فى بحار تسامحه! النبل لا يباع فى الصيدليات، فهو فى النفوس

يكون أو لا يكون، وأصحاب المناصب الكبيرة يعرفون مقدما أن مظاهرات جحود ستان سوف تداهمهم بعد الخروج بدون أمن مرافق وسيارة حراسة!

الصدور الحاقدة تخفى حقدها بين الضلوع وتمضى فى الحياة بأقنعة، تضلل من يراها بعدم انتمائها إلى حقد ستان، الامتنان هو الخبز والملح، والحقد هو السم والغل، والجحود هو الخسة الخسيسة.

ظاهرة حقد ستان ـ قد ـ تولد بين أقارب الدرجة الأولى، أقصد الإخوة والأخوات، ربما كان طبيبا حقق نجاحا بعلمه والطبيب الشقيق غير معروف بالمرة، ويبدأ الحقد يغلى فى الصدور ـ غير معترف بصلة الرحم ـ ولم يسأل الطبيب النكرة نفسه: لماذا هو محلك سر؟ هذا شأن موزع الأرزاق الله عز جلاله.

لا أحد لم يعان من الحقد والجحود، فلوحة الحياة مزيج من الامتنان والحقد والجحود، إن الحقد أو الجحود يسبب للمتضرر غصة ألم، والحقد والجحود نفثات نفوس فى كل مكان وزمان، ربما كانت مرتبطة بعالم الإنسان فقط وإن قال علماء الحيوان إن ارتباط الخيل والكلاب بالإنسان، فيه امتنان نادر، ومن الممكن أن يموت الحصان بعد وفاة صاحبه بفترة قصيرة، ويقولون إن الثعبان لا يهاجم الإنسان إلا إذا قرأ فكر الإنسان أو حاول إيذاءه، وهنا تظهر شراسة الثعبان، أما القطط فهى (ممتنة) و(وفية) للمكان، لا الإنسان..!

من حق الإنسان أن يسعى فى الحياة ويجتهد ويعلم أن (الاحترام) محسود و(السمعة) محسودة و(الرزق) محسود، والحسد أول درجات الحقد، وأحيانا يقولون فى الحس الشعبى (المحسود نجمه خفيف)، ولو أدرك الحاسدون أن الله يوزع الـ (٢٤ قيراط) توزيعا عادلا، لما صوبوا سهام عيونهم إلى المحسود، الطموح حق طبيعى للإنسان، والإنسان بدون طموح، منفضة سجائر مكسورة، والحافز مهم فى الحياة، فالحافز قنديل فى العتمة، يهدى الضالين، ولا يجب أن نندب حظنا الهباب لأى فشل طارئ، فالفشل سلم نجاح للأذكياء.

ولا يجب أن نتأسى إذا لفحتنا خماسين الحسد أو الحقد أو الجحود، فالقيم تتقلص، والأيام ترمح، والتسامح مقدرة القادرين، والصوت العالى (ثقافة سائدة)، والتربص والتصيد من (مهارات) عراة الموهبة، إعجابى كبير بهؤلاء الذين إذا أصابهم الحقد أو الجحود، ترفعوا وتساموا وما تأثرت شعلة حماسهم للحياة والعمل، و.. واصلوا السير. إعجابى كبير بالذين يفسرون الحقد والجحود تفسيرا اقتصاديا، فالاقتصاد إفراز أخلاق المجتمع ومنظومة القيم فيه، إعجابى كبير بالذين يرون أن (اختلال المعايير) فى مجتمع،

يذكى روح الحسد والحقد والجحود، إعجابى كبير برؤية العقلاء بأن موت الطبقة الوسطى واتساع الهوة بين بشر الشمال وبشر الجنوب يؤدى للحقد المميت، إعجابى كبير بالتأكيد على غياب (الطاقة الروحية) وراء نشوء مدن حقد ستان وجحود ستان.

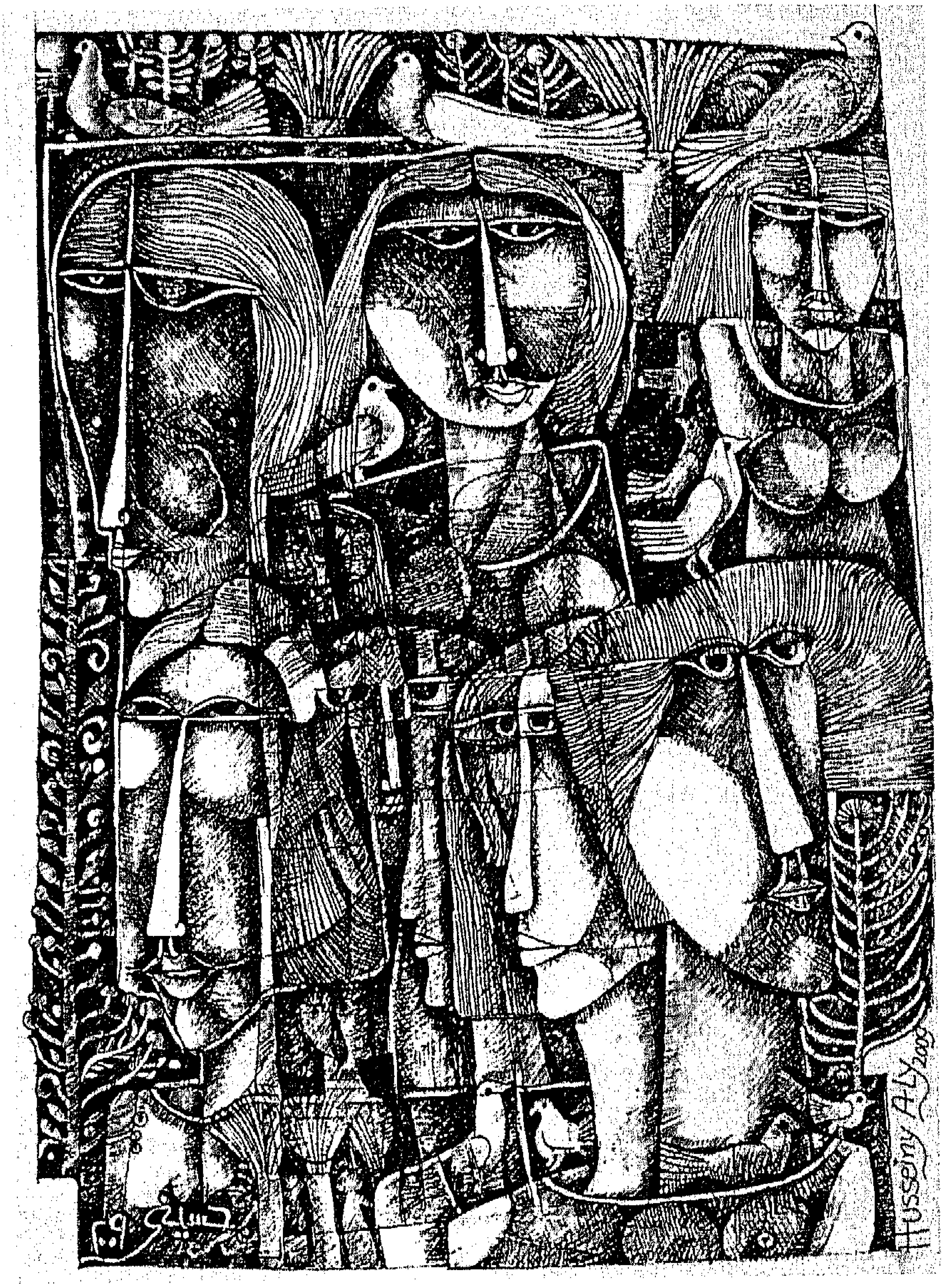

أنا مدين لهؤلاء..

أجمل الفضائل الغائبة عند بعض الناس هى الامتنان، أى الاعتراف بشفافية بفضل الآخرين عليك، لأن إنكار أو تجاهل هذا الفضل هو الجحود بعينه، والناس تصف الجحود بأنه قلة أصل، وأحيانا تعتبر الجاحد مريضا نفسيا فى داخله (خربشات) الزمن ومرارة العقوق. ومن فرط ما أرى من حوادث جحود تمر أمامى تثير الاشمئزاز، قررت أن أدعم قيمة الامتنان بمقال هو أقرب إلى سيرة ذاتية مرصعة بأسماء بعضها رحل من عالمنا، وبعضها رحل من كرسى السلطة، وبعضها ما زال حيا بيننا..

نعم، أنا مدين لهؤلاء: لأمى التى كانت تشعر بما فى صدرى للبوح فوق الورق، وكانت تنقذنى من بطش أبى الذى كان يحارب فكرة رغبتى فى الصحافة! للأستاذ يواقيم غبريال المحامى ببنى سويف وعضو لجنة دستورية الذى وجهنى لمكتبة البلدية لأدمن عادة القراءة، مدين لكتاب محمد حسنين هيكل (إيران فوق بركان) الذى اشتريته من سور الأزبكية وغير مجرى حياتى وجعلنى أتشبث بالكتابة كحلم وأدعو الأقدار لتساندنى، مدين لكامل الشناوى الذى احتضن جنين موهبة ونبهنى أن فى عبارتى جرسا موسيقيا.

مدين للناقد جليل البندارى الذى اصطحبنى معه لنجوم ذلك الأوان وتفتحت مسامى أمام عالم ساحر!

مدين للمفكر سلامة موسى الذى جعلنى أقرأ كتبه وأتذوق طعم العبارة القصيرة المكثفة المعانى ودق على باب رأسى لأفتحه لكل التيارات أغربلها قبل أن تستقر فى وجدانى.

مدين للفنان حسن فؤاد الذى أخذنى من يدى وقدمنى لأحمد بهاء الدين ذلك العقل المستنير، مدين لأحمد بهاء الدين الذى سمح لى بتحرير باب خبرى كان يكتبه بتوقيع مخبر صحفى ثم نشر اسمى على الباب بعنوان (من مفكرتى)، مدين للروائى فتحى غانم الذى اكتشف قدرتى على الحوار الصحفى وهو يرأس تحرير صباح الخير.

مدين لمحمود السعدنى ـ الثعلب الطيب الكبير ـ برغم السخرية اللاذعة لمواقفه الإنسانية منى وأنا مفصول بأمر من النظام الشمولى عام ٦٤.

مدين لعبد الحليم حافظ الذى اصطحبنى صبيحة يوم الفصل لصلاح نصر ـ البعبع وقتئذ ومدير المخابرات ـ ليقول له (لو كان مفيد فوزى يتآمر على مصر أو يكتب منشورا ضد الرئيس فهو يفعل ذلك فى بيتى) فقد كان عبد الحليم ـ الصديق ـ رجلا فى المواقف.

مدين للراحل موسى صبرى الذى طلب منى ـ وأنا مفصول ـ أن أكتب حوارات فى مجلة الجيل التى كان يرأسها مع أصدقائى من الفنانين بشرط ألا أوقعها باسمى وكان قصده (علشان قلمك ما يصديش).

مدين لمصطفى أمين الذى منحنى جائزة الصحافة التليفزيونية لبرنامج حديث المدينة، وكانت الجائزة حافزا على استمرارى فى الشارع، أرصد ظواهره وأقيس بالعدسات نبضه، مدين لصفوت الشريف الذى استجاب لرغبتى فى إجراء أول حوار تليفزيونى مع الرئيس مبارك وأعطانى هذه الفرصة النادرة للقاء مبارك مصر، مدين للسيدة سامية صادق التى نقلتنى من محطة الإعداد التليفزيونى إلى مقدمى البرامج باعتبار أن أفضل من يقدم برنامجا هو من أعده، وجسد الحلم المخرج جميل مغازى.

مدين حقا لآمال العمدة رفيقة مشوارى التى تحملت بحب وصلابة غيابى عن البيت لدواعى السفر أو العمل أو التصوير، وكانت حارسة مرمى البيت بكبرياء امرأة صعيدية، مدين لآمال فهمى التى منحتنى الفرصة لأكتب فوازير رمضان قرابة عشر سنوات.. فوازير نثرية بعد رحيل بيرم التونسى، مدين لمديحة نجيب التى من خلال رئاستها لإذاعة الشرق الأوسط يوما ما، خرج صوتى لأول مرة للمستمعين حين قدمت (خواطرى على الهوا) وتحملت المتاعب من بعض ما قلت بجرأة فى الإذاعة، مدين للإعلامى طاهر أبو زيد نموذج المحاور الفذ الذى كان مثلى الأعلى.. مدين للدكتور أحمد زويل العالم المصرى، الذى علمتنى تجربة نجاحه العالمى وهو يتسلم جائزة نوبل فى الكيمياء من ملك السويد فى

استكهولم.. أن أستبدل كلمة (الحظ) فى الحياة.. بالجهد المضنى والعيون الساهرة والعقول المهمومة بالإنسانية، مدين لعالم الاجتماع الراحل د. سيد عويس الذى تعلمت منه أن حرب أعداء النجاح بـ مزيد من النجاح، مدين لأسامة سرايا الذى ضمنى لكوكبة من كتاب الأهرام يغمسون أقلامهم فى محبرة الجدية.

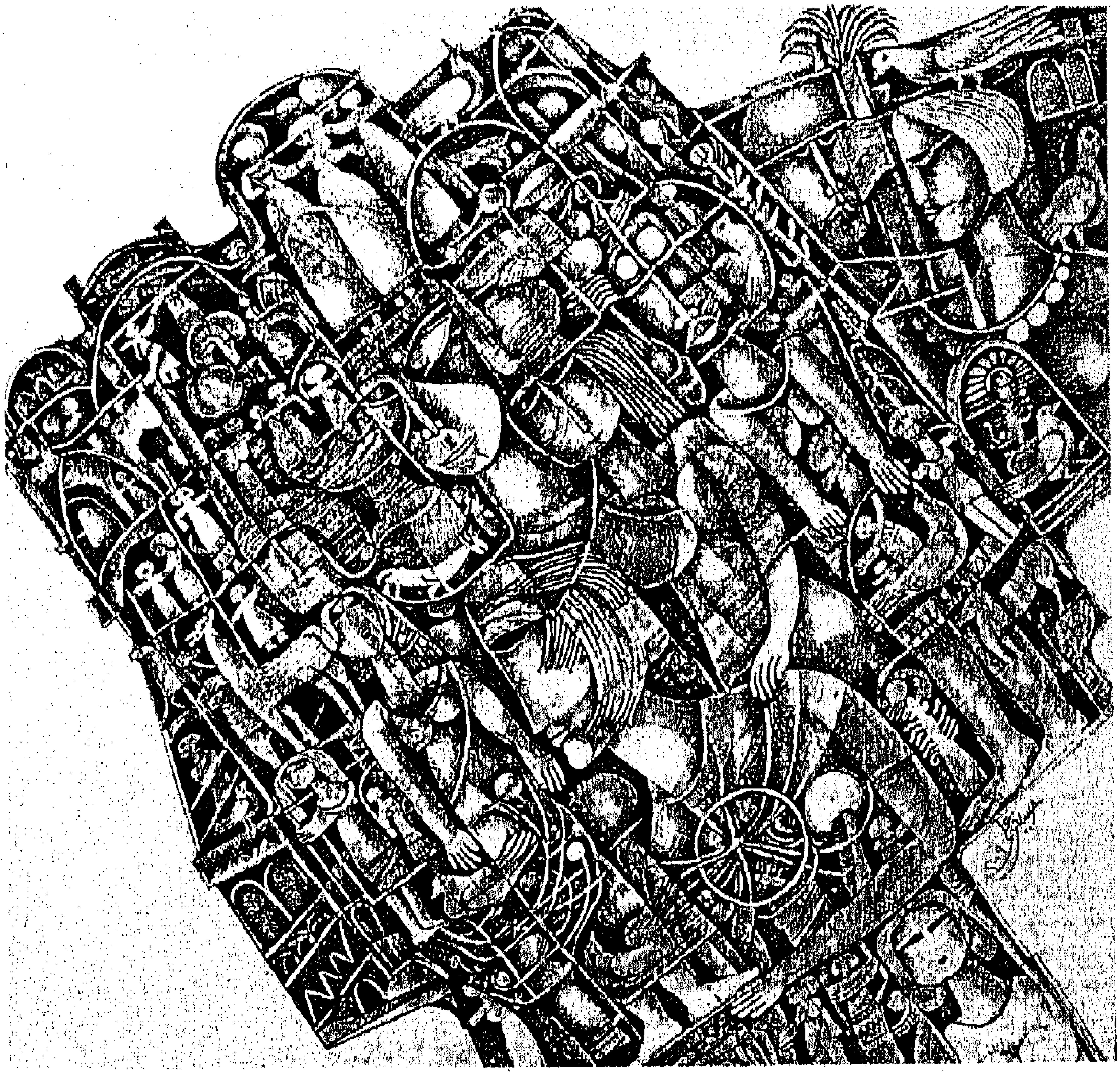

مقال مهم..

... وتأتى (الأهمية) من مضمون المقال وفحواه، وليس من اعتبارات شخصية، وفى عصر الفضائيات والسماوات المفتوحة، زال تماما الكهنوت عن أشياء كثيرة كانت مختبئة فى قبو من القداسة، وبرغم ذلك، فلا زالت هناك موجات تعتيم على قضايا لها الأولوية فى إزالة الشوائب حولها، منها (الشأن الدينى).

وتحتل العلاقة بين مسلمى الوطن والمسيحيين فيه، مساحة تشغل البال، خصوصا عندما يكون هذا الشأن هو السؤال الأول على ألسنة من أقابلهم فى عواصم العالم خارج حدود مصر، ثم يكون السؤال التالى مباشرة (وكم تعداد المسيحيين فى مصر؟) ولا بد هنا من إيضاحين، الأول: إنى أؤمن بأن الدين لله والوطن للجميع، وأن الصدام بين الأديان هو الخراب بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

الإيضاح الثانى: كان من التعقل والتحضر ذكر تعداد الشركاء فى الوطن والمسئولية بدلا من التعمية والسقوط فى فخ الأقليات، واللعب على هذا الوتر من أعداء مصر، داخلها قبل خارجها! ولست ضيق الأفق حتى أحصى عدد الوزراء المسيحيين أو عدد المحافظين المسيحيين أو عدد رجال النيابة ورؤساء المحاكم المسيحيين، فهذا الفعل هو عزف الأقليات النشاز فى المجتمع، فأنا - مثلا - كمصرى قبطى حاورت رئيس الدولة، مرات وأحاور وزراء الداخلية فى مصر من (أبو باشا) إلى (حبيب العادلى) وحاورت وزراء الدفاع (أبو غزالة)

و(المشير طنطاوى) وحاورت فرسان نوبل (نجيب نمحفوظ وأحمد زويل ومحمد البرادعى)، ولم تكن تلك الحوارات بسبب الملة أو الدين، إنما لاعتبار مهنى بحت ومصداقية فى الشارع، إن هذه النقطة أشهرها فى وجه من يتصورون أن هناك تمييزا لمسلمى الوطن على مسيحييه، وهناك - مرة أخرى - من يلعبون على حبال السيرك السياسى ويوغرون صدور المسيحيين، ولا بد من الإشارة لبعض حوادث الفتنة وأهمها (مختل الإسكندرية العاقل) وآخرها (حادثة العياط) التى لن تكون الأخيرة، ما دام هناك رجال فكر يخرجون على النص ويسيئون للمسيحيين، أو كتب كتبها أساتذة جامعات تتسرب إلى بعض القنوات غير الحكومية وتحدث مناقشات أشبه بصراع الديكة تفرز حوادث فيما بعد، ذلك أن النفوس المحتقنة أرض خصبة لأى فتنة، يحدث ذلك باسم حرية التعبير والواقع أنها (حرية التعكير)! حرية تعكير باختراق أجهزة ونقابات تروج لفكر سقيم.

وهناك صحف خاصة أدمنت حرية التعكير ولها جمهور قارئ، هناك أيضا قناة تبث من قبرص وتحمل اسم (الحياة) مع أن القس الذى يتهجم على الأديان وحذره البابا شنودة مرات ومرات لا يعلم أنها قناة الموت، لأن مقتل لبنان وحربه الأهلية لسنوات كان بسبب السقوط فى مستنقع الطائفية، ألوف من الناس تشاهد قناة الحياة وتحتقن وتتصور - وهو تصور كاذب - أن القناة تعبر عن المسيحيين وأنها صوت الكنيسة القبطية المصرية!! ودائما الاحتقان يضع التوتر والتوتر يضخم الأشياء التافهة والصغيرة، وبالطبع من الصعب مطاردة قناة فضائية أو التشويش عليها مثلما كنا نفعل زمان على إذاعة إسرائيل، ولا بد أن يكون البابا شنودة أكثر حزما وشدة مع أعداء الوطن، وإن كنت أطالب البابا ببعض (عصرنة) الكنيسة المصرية فالدنيا تتغير والكنيسة الشرقية المصرية - مع التطوير المجتمعى - ستظل منارة القيم والروحانيات ولا نخشى على رسوخها من (كاوبوى) يرتدون زى القسس!

لا بد أيضا من رصد رد فعل التنامى الدينى لجماعة الإخوان المسلمين الملقبة بالمحظورة عن مسيحيى الوطن.. من هؤلاء الجماعة عقلاء ينفون تماما أى عداء نحو المسيح والمسيحيين وإن كان تاريخ هذه المحظورة أسود مثل أفعالهم، ولكن الملاحظة مهمة فى إشعال نار الفتنة، بل ومهمة فى ضرورة اللقاء الفكرى لتنقية الأجواء. لماذا أركز على هذه النقطة؟ لأن شعورا جارفا عند شباب مسيحيى الوطن بضرورة ميلاد حزب دينى مسيحى يتصدى لميلشيات شباب الإخوان..! وهو ما أرفضه شكلا وموضوعا وفكرة.. ويرفضه البابا شنودة جملة وتفصيلا، فهذا التفكير - بكل المقاييس - مغامرة بل مقامرة به، وأقصد بالوطن (الذى يعيش فينا) على حد قول البابا شنودة.

نحن لن نستطيع أن نمنع مبالغات ومبالغات وتضخيم الحوادث المتفرقة بالشاشات الأجنبية وبعض الشاشات العربية، فقد فات أوان الجرى فى الفضاء وإطفاء الأقمار الصناعية!

ليس أمامنا إلا تكثيف الوعى أننا (مسلمى الأمة ومسيحييها) فى سفينة وطن واحد، إما النجاة أو الغرق! ليس أمامنا إلا استنفار روح السماحة فوق السفينة ليسود الوئام ونواجه الأمواج العاتية، ليس أمامنا إلا عناق الأذان مع أجراس الكنائس، أما العناق الرمزى بين شيخ وقسيس فسوف يظل صورة إعلامية فقط، ليس أمامنا إلا رفعة هذا الوطن بأيد مصرية بلا ثقوب تتسلل المحظورة منها وتقدم خدمات تضمن أصواتا لتقفز إلى مقاليد الحكم وتعيدنا إلى عصور الظلام.

علينا أن ننتبه إلى أن (الاعتدال) فى المسيحية يقابل الوسطية فى الإسلام، ذلك كفيل بحفظ السلام الاجتماعى فى مصر المحروسة بعناية الله الذى نتوجه إليه - عز وجل - جميعا.

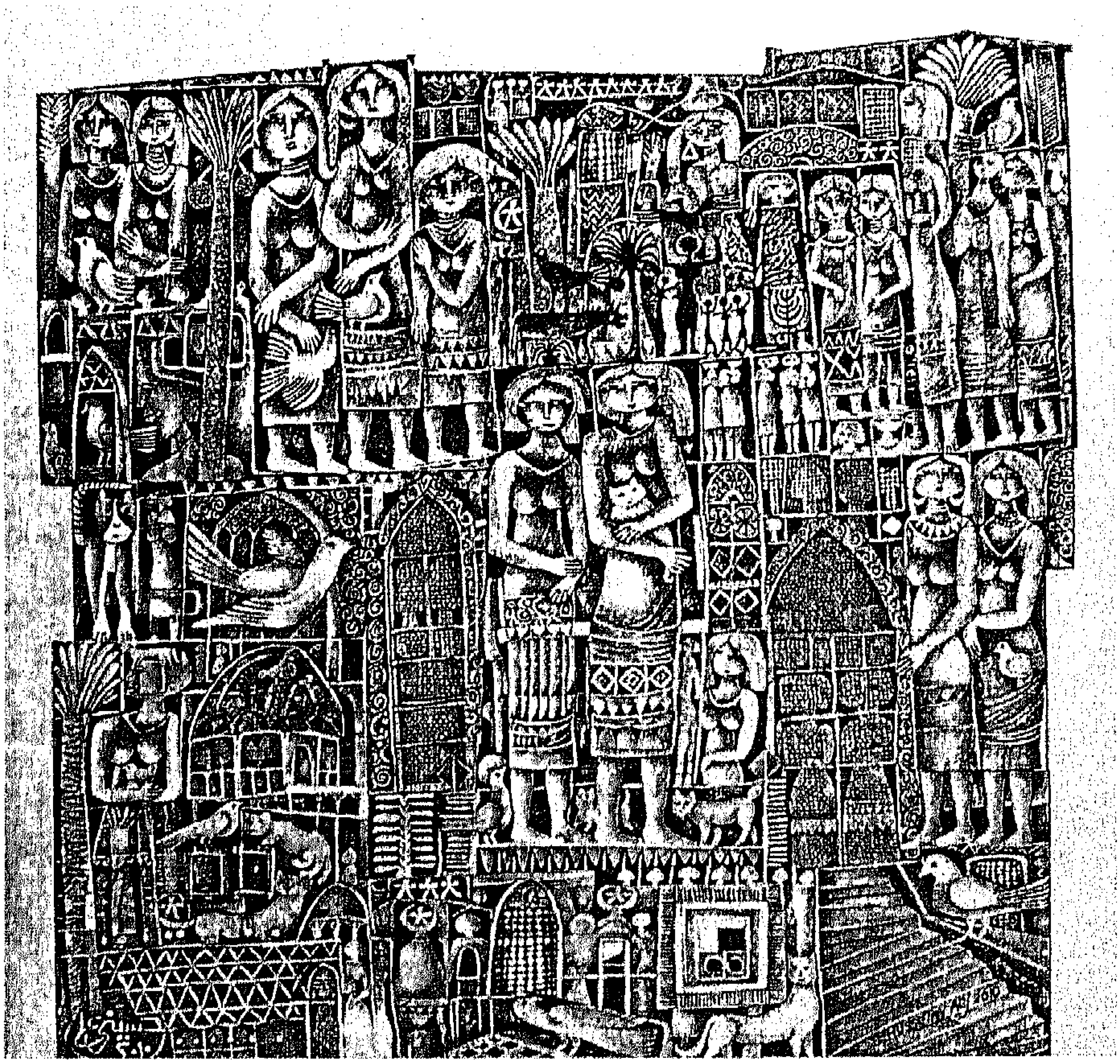

قصيدتك رديئة وخطك أسوأ!

لعل أصدق ما نكتبه هو ذلك الذى يصدر عن الذات بلحمها ودمها وترابها وضعفها، وندرة السير الذاتية تعود إلى حجب الضعف الإنسانى لنبدو كالأساطير، أقوياء بلا حدود، شجعانا بلا حدود، وأذكياء بلا حدود! لقد تسلقت شجرة الذاكرة وتسكعت فى حوارى صباى ومررت على بيت الحبايب، وتوقفت عند أولى محاولاتى لكتابة الشعر، إذ كانت تنتابنى لحظات شجن غامضة وأذنى تلتقط صوت فيروز وهى تشدو يا جارة الوادى، كنت أترجم حالة الشجن هذه التى أمر بها بكتابة قصيدة، والحق أنها مجرد كلام مرصوص ومسجوع، لكنى كنت مزهوا بما سطرت فوق الورق، إلا أن السيد أفندى عبد الله مدرس اللغة العربية فى مدرسة بنى سويف الثانوية قرأ الكلام وقال لى فى الفصل أمام زملائى: اسمع.. قصيدتك رديئة وخطك أسوأ. أخفيت دموعى وكتمت غيظى، وتلقيت السهام وتظاهرت بالشجاعة وهجرت الشعر! كنت خجولا فالتحقت بجماعة الخطابة فى المدرسة لأفك عقدة لسانى، تلعثمت مرات حتى خلعت عباءة الخجل، كنت فقيرا فى اللغة، الفكرة فى رأسى ولكنى عاجز عن التعبير، فأدمنت التردد على مكتبة المدرسة ومكتبة البلدية فيما بعد، حتى تدفقت الكلمات فوق الورقة تدفق جدول رقراق، كان خطى سيئا فالتحقت بجمعية الخطوط الجميلة وكنت مواظبا بشغف ولم أترك الجمعية إلا بعد أن تحسن خطى وصرت بشهادة عمال المطبعة أتمتع بخط مقروء وليس نكش فراخ!

وكان فى زمانى صالونات أدبية تهتم بمناقشات وحوارات تصب فى المجتمع، ولم تكن السياسة قد اقتحمت أبواب الصالونات ولا ثقبت لها ثقبا ولا اخترقتها، كنت أتردد على صالونين اثنين: صالون محمد زكى عبد القادر فى شارع شريف، وصالون سلامة موسى الغزير بالمعرفة فى جمعية الشبان المسيحيين فى شارع إبراهيم باشا، كان عشقى للكلمة مرضا ما تمنيت الشفاء منه، وكنت أضمر فى صدرى رغبة وهى أن أصحح نظرة السيد أفندى عبد الله لى! إذ قابلته فى سنوات لاحقة فى الجزائر ضمن بعثة مصر الدبلوماسية وذكرته بعبارته الشهيرة (قصيدتك رديئة وخطك أسوأ) وكان اللقاء فى بدايات اشتغالى بالصحافة، وضحك الرجل وقال لى (أحيانا تصنعنا كلمات النقد أو تقتلنا) وأعجبتنى العبارة وأخذت أرددها وأنا واقف حتى أذن لى بالجلوس، صار الكتاب رفيق حياة واكتفيت بقراءة الشعر وأجهضت كل محاولاتى لكتابة قصيدة، وعندما قابلت الشاعر الكبير نزار قبانى وأجريت معه حوارا مطولا، رويت له حكاية محاولتى الأولى وتوبيخى علنا أمام تلامذة ثالثة أول، رد نزار قبانى (أنت نقلت الجرس الموسيقى إلى نثرك)، فى تلك الأثناء كانت علاقتى بالمرأة مقطوعة، وكانت مراهقتى جدباء، كان هناك شىء آخر يستولى على اهتمامى وهو كيف أعبر بالكلمة؟ الكلمة هذا العالم الفسيح الذى يسبح فى سماء المعرفة، طيورا من الحروف الشاردة، نستدعيها فوق سن قلم.. ولم أنس ما حييت (فضل المدرسة الثانوية فى بنى سويف). وربما أردت أن أنوه بشىء مهم اسمه النشاط المدرسى، وبدونه ينتفى دور المدرسة التربوى، فالذى ينجح فى سنوات الدراسة ولا يمارس أى نشاط، يذهب للجامعة (سقيم الوجدان، مبتور الذوق).

من المهم أن أذكر أن عددا من نجوم المسرح كانوا قد اكتشفت مواهبهم فى المسرح المدرسى، من المهم أن أذكر أن بعض نجوم الغناء، اكتشفت أصواتهم فى جمعية الموسيقى والغناء، من المهم أن أذكر - بكل تواضع - أن أول صحيفة حائط كنت أكتبها بالقلم البسط، انبثقت من جمعية الصحافة المدرسية فى بنى سويف، كان التعليم بانفتاح العقل والمسام وكانت الأنشطة المدرسية وسيلة لاكتشاف المواهب المبكرة، وكان الاهتمام بهذه الأنشطة ومنها الاهتمامات الرياضية يسير جنبا إلى جنب مع المقررات، حصل جيلى على ثروته اللغوية من الكتاب والمكتبة وتربت مواهبه على أيدى أساتذة النشاط المدرسى الذين وهبوا أنفسهم لمهمة نبيلة هى (رعاية) موهبة بازغة، جرى هذا قبل ميلاد الكمبيوتر والنت، حيث المعرفة عند أصابع من يستخدمها، ويظل الكتاب له قامته، أردت أن ألفت النظر إلى أهمية عودة النشاط المدرسى الذى توليه المدارس الخاصة عناية كبيرة، صحيح أن الدنيا تتغير

ولكن الثوابت راسخة، وأحلم بعودة الاحترام للمدرسة واحترام التلميذ للمدرس، فمازلت أذكر مدرستى الثانوية وأذكر ناظرها سامى أفندى سليمان الذى أقنعنا أن المدرسة تعد قادة الغد، وأذكر فايق أفندى الذى كنا نرهبه إذا كانت أظافرنا متسخة وأحذيتنا غير لامعة، وأذكر رياض أفندى غالى الذى اهتم بتكوين الشخصية فى سنوات العمر الأولى، وأذكر زكى أفندى شافعى الذى علمنا أن الثقافة تبدأ بعد كتب المدرسة.

لم نعرف الاحتقان أو التطاول أو التحريض، نعم، كنا نخرج فى المظاهرات بوعى نطالب بجلاء الإنجليز عن مصر، كانت الوطنية تحضرا وتساميا بالوطن، وسقط الجرحى من رصاص المحتل فى لحظة عناق الأذان مع أجراس الكنيسة.. لم تكن هناك مزايدة على الأوطان أو الأديان، كانت هناك (توأمة) بين التعليم والتربية.

كانت المدرسة.. بضمير.

كان المدرس.. بضمير.

وكانت السياسة بضمير.

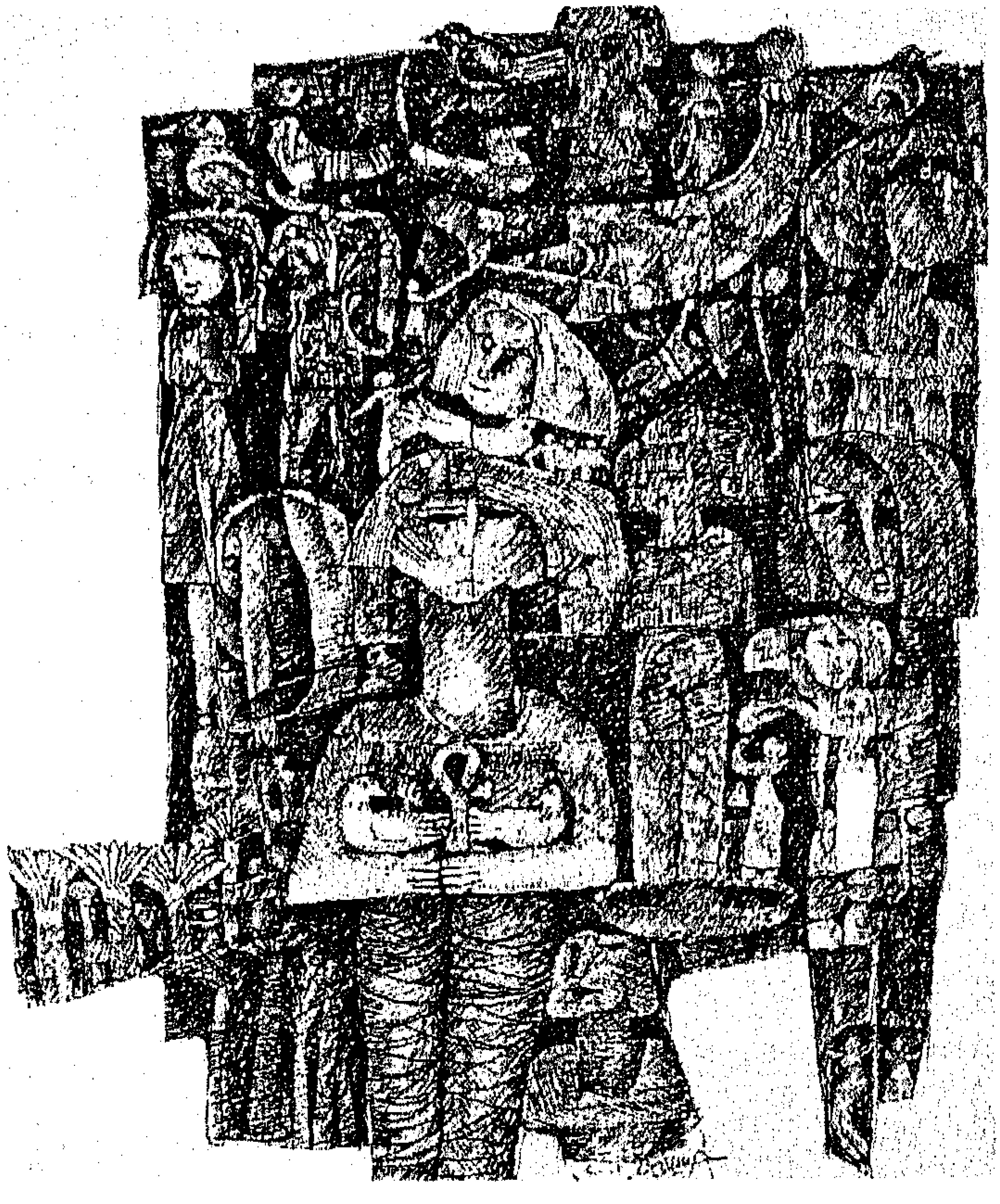

أنت صَدفة على رمال شاطئ الحياة!

غريب لغز النفس البشرية، استطاع علم النفس أن يفهم ثلث تناقضاتها.

فلا تصدقوا الضحكات المجلجلة والابتسامات العريضة، إنها خط الدفاع ضد الحزن وموجات الإحباط وريح التعاسة، فكل منا صدفة على رمال شاطئ الحياة وإن شئت الدقة، نحن جزر معزولة نحيا فى سراديب النفس ونخرج إلى الدنيا ونحن نضع على وجوهنا أقنعة وربما دروعا ودائما مفك للفك.. نجبر أنفسنا به على الابتسام والمجاملات.. نحن نمثل أغلب الوقت، والأدوار موزعة سلفا، نمثل بلا نص أو مخرج، هناك من يبرع فى تمثيل دور البرىء وهو نفسه عريضة اتهام.

هناك من تتقن دور الوديعة وهى فى حد ذاتها خديعة.. نحن نجامل على حساب أعصابنا.. نقول للتافه أنت غدة عقل، ونقول للغبى يا لذكائك، ونقول للشرير الخير فى أعطافك، ونقول للممثلة.. أنت تلقائية، نحن نسير على حسب الريح ما يودى.. نحن نعرف - بالتجربة - ألا نقول للأعور أنت أعور، ونعرف بالتجربة أن الآخر لا يحب النقد أو اللوم أو حتى هذا المخفف المسمى بالعتاب، هناك بعيدا فى آخر نقطة فى وجدانك ترقد رؤيتك للحياة والبشر، ولكن لا أحد منا يجازف ويغامر ويستدعى المخبوء ويضعه على شفتيه ليعلنه، ففى الإعلان مصيبة وكارثة قد تفقد فيها عملك أو يدبر لك مكيدة أو يعتدى عليك لكسر ضلعين أو أكثر، فمن يجرؤ أن يقول لمسئول: أنت لم تصل بكفاءتك يا صاح.. ومن

يجرؤ أن يقول لكاتب: أنت قارئ أقل من عادى يا صاح..

ومن يجرؤ أن يقول لست هانم: أنت خادمة لا أكثر تلبين طلبات الصغير والكبير، ومن يجرؤ أن يقول لممثل سينما: جئت إلينا بصدفة غير سعيدة. لا أحد يجرؤ على مصارحة الآخرين بعيوبهم ونقائصهم، وإلا قيل عنك (متهور) وسيطالبك الناس بالتعقل و(خلى آراءك لنفسك)، يقولون إن الكاتب الراحل عباس محمود العقاد كان يجاهر بكل ما يعتقد، حتى أنه خاطب الملك علنا فى سراى عابدين.. ويقولون إن الراحل فكرى أباظة نادى - فى مقال - بالصلح مع إسرائيل حسما للحروب، فاعتقلته الثورة.

نحن فى الحقيقة نشقى بسبب ما نؤمن به من أفكار و.. ما هو مفروض علينا، وربما يفلت من هذا الشقاء، الفنانون كتابا أو روائيين، فهم يستخدمون الرمز بذكاء ويصل القصد للأذكياء.

بداخل صَدفة كل إنسان منا رغبات مدفونة فى اللاوعى وعلامات استفهام تستعصى على الإجابة، بداخل صدفتك جروح وقروح وحرائق وزلازل وبراكين، لكن المجتمع يخمدها وينزع منها فتيل الاشتعال، قد تأتيك هذه الرغبات فى أحلام يقظتك وربما ترسمها فى لوحات عبثية وتتخلص من ثورتك بصدام الألوان، بداخل صدفة كل منا، جسد له مطالبه واحتياجاته ومآربه ورغباته، كثيرا ما يشقيك وقليلا ما يرضيك، المهم أن يظل ماء الحياة عامرا فى الجسد ليعطيك تلك الرعشة التى تهز الجسد وتمنح الرجولة الرضا، ذلك أن نزار قبانى قال لى مرة فى خريف عمره (حين هزمنى الجسد اقتربت من الموت) نعم إن رعشة الجسد تعلن انتصار الحياة فى صدفتك، وقد تعلمك صدفتك الجحود حين تكتشف أن الامتنان عملة رديئة فى بورصة الحياة.

داخل صدفة البعض منا من هزمه الجسد ورفض الهزيمة وأصبح ساديا يكره كل الناس ويتعامل مع مرءوسيه بقسوة غير مبررة، لكنه يعوض حرمان الجسد من رعشة الحياة التى أنجبت البشرية، حين يخلو الإنسان إلى نفسه يمر عليه شريط طويل لبشر، تمنى أن يصفق لأحدهم لكنه لم يستطع أمام منافسه، وتمنى أن يصفع أحدهم على قفاه لأنه يتغابى ويتظاهر بجهل ولكنه يفعل ذلك متعمدا لينال الرضا من رئيسه الأقل ذكاء.. ألم أقل لك إننا نمثل أدوارا فرضت علينا؟ كل إنسان عالم قائم بذاته له لون وصوت وطقوس وعادات وطموحات وتطلعات وأشجان وأعاصير وحروب وسهول ووديان وأحراش، كل إنسان ينام معه على سرير واحد الرغبات التى لم تتحقق والجروح التى لم تضمد والمشكلات التى لم تسو.. نحن نكره ونحب ونتمنى ونشتهى وننتقم ونعفو ونغفر ونسامح

ونتجاوز ونتعذب ونحس ونفهم ونتسامى، نحن دنيا تسير على قدمين، كنا نعيش فى الماضى فى أحراش الغابات ولم يكن هناك قانون ينظم العلاقات البشرية، ثم جاء المجتمع لندخل بوابة التمدين.. لكننا فى مواقع كثيرة فى الحياة نعيش أحراش الغابة، وكلما توغلت العولمة فى صدفتك صرت أكثر جفوة وقسوة، إن لنا أشقاء فى هذه الحياة، الحيوان والنبات، فالكلب أو الحصان حين يموت صاحبه، يموت بعده حزنا عليه، والنبات عندما يسمع موسيقى تخضر أوراقه، والإنسان إذا مات توءمه لا يموت حزنا، وإذا سمع موسيقى لا يتأثر إلا نادرا، كل إنسان كتوم حتى يدوس الأرض التى يقف عليها ويدرك ويفطن مع من يتكلم، فهذا زمان بيع المعلومات للمدونات على النت والتسجيل بالموبايل وارد، وفى الحوارات التليفزيونية تبدو الازدواجية فى أعلى مراتبها، فالذى يجلس أمام العدسات شخص آخر خرج من صدفته ليقول كلاما آخر غير معتقداته بالمرة بهدف نفاق الناس وهو أمر سهل فى مجتمع الأمية والفتاوى. زمان وأنا طفل.. كنت أجمع أصداف البحر وأضع كل صدفة على أذنى لأسمع وشوشات البحر وهمس الرجال وثرثرة النساء وبكاء الأطفال وصياحهم.. أو هكذا تصورت! وما زلت، عندما تقودنى قدماى للشاطئ، ألتقط صدفة أو اثنتين وأغافل من أجلس معهم وأمارس عادتى القديمة، أحاول أن أسمع بقايا الهمس والثرثرة وصوت البحر، إذ لم يهاجر الطفل من صدرى وما زلت أندهش!

دمعة وكل أنهار الدموع!

تتململ الفكرة فى الرأس كجنين يتشكل فى بطن الأم، فإذا ما اكتملت الملامح، حانت لحظة الولادة، ومنذ فترة تداعبنى فكرة الكتابة عن الوطن بهدف إنعاش ذاكرتنا نحوه، فنحن نتغنى به أكثر مما نحبه، ونغنى له أكثر مما نعشقه. والوطن ليس أرضا فوق خريطة نتعلمها فى الجغرافيا، وليس تاريخا يمثل علم الأحداث والحوادث الميتة، الوطن ليس قطعة قماش ملونة ترفرف فى المناسبات، الوطن حالة من الشجن الموغل فى القلب والعقل، الوطن أغلى حبيبة، الوطن وشم مطبوع فى الروح، الوطن ترنيمة، الوطن موال أخضر، الوطن ذاكرة تشم وتعصر وتلثم، الوطن أجمل نزيف لدم يتجدد، الوطن أم، أخاصمها ولا أكرهها، أعاتبها ولا أنبذها، الوطن دمعة وكل أنهار الدموع، الوطن هلال وصليب لا تنفك عراهما أبدا، تلك هى مصر التى فى دمى، جريت وراء عربيات الرش وأنا طفل، رأيت فى السينما عباس فارس وعقيلة راتب واستفان روستى وأنا صبى، عشت لحظة جلاء الإنجليز عن مصر وأنا شاب، فلم يعد هناك (جونى) فى ثكنات قصر النيل، ذقت كرباج الهجانة وأنا أقفز فوق سور النادى لأشجع فريقى وهو يلعب بحضور حكمدار المديرية! خرجت فى مظاهرات تردد الشفاه فيها اسم مصر، عرفت دقات القلب فى الجامعة وأحببت فى صمت مصكوك بعدم البوح، تطلعت لمهنة القلم وفى القلب إعجاب لأقلام تحرك الحجر، (شىء من بعيد نادانى)، غازل روحى، فاستجبت!

أحداث مرت على الوطن، كان من الممكن أن تقتلعه من جذوره، لكنها زادته صلابة وتشبثا ضاربا بالكيان، أحداث مرت فلم يتزعزع إيمان ناس مصر فى المحن والصعاب، أحداث مرت تعرضت فيها صحة الوطن لوعكات، لكنها لم تكن أبدا انكسارات، جيناتك يا وطنى محصنة ضد الانكسار، ناسك يا وطنى (انفطموا) على الصبر ورقى المشاعر، ولا أحكم عليك من بذاءات اليوم، ولا أقارن بين ثلاثية نجيب محفوظ وثلاثية محمد سعد!! فالمقارنة مهانة، وكل عمالقة وطنى تكثف حضورهم بعد الرحيل وإن غابوا عنا، وإن تواروا قليلا فى الذاكرة.. وطنى الصبور يتألم أحيانا ولا أحد من الجيران يسمع صوت النهنهة، فقد علمته الأيام ألا ينحنى وينكفئ على ذاته، علمته (المرونة) بفعل الصدمات وصار بسطاؤك يا وطنى قادرين على حل مشكلاتهم الحياتية، لديهم فقه الأولويات ولم يتعلموا الاقتصاد وعلوم السياسة! علماؤك يا وطنى ليسوا فى أماكنهم الطبيعية، فلا كرامة لعالم فى وطنه، ولما دقت الحرية على أبوابنا، انطلقت أقلام كتابك، يا وطنى مسعورة تمزق أثواب العفة وتحطم الرموز وصرت مباحا مستباحا!

أعلم مطالبك يا وطن، تريد حنانا واحتضانا ووجوها فيها القبول فنقبل المر وإن طال، ونتمسك بالأمل ولو تقلص، نريد إخلاصا ولو كانت وجباتنا المش والدود! ناس صعيدك يا وطنى احتموا برجولتهم من المذلة والتحفوا بالسماء والرجاء، صيادوك يا وطن نثروا الشباك وجلسوا مطرقى الرأس يبتغون الرزق، لا يمكن أن يستقر الماء فى الغربال، ففقه الأولويات يقول (حلول قصيرة سريعة وحلول طويلة النفس وبطيئة)، ناسك يا وطن يريدون (من يخطب ودهم) لا ينافقهم، يريدون أن يقتربوا من رأس صانع القرار يصارحهم بما يضمر، يفاتحهم فى أمور تمس حياتهم، يعتبرهم (واحد صحيح) لا أصفار على الشمال، وساعتها (مصر بتتقدم بينا) لأن التفاعل بين الفرد وحراس الوطن ضرورة، سيشعر الفرد بقيمته ولن يشترى أحد صوته فى الانتخابات من محظورة أو غير محظورة وساعتها (يقرأ الأب لابنه الطفل)، غال أنت يا وطنى مهما رخصك أرباب السوابق والبلطجية وأصحاب الصوت العالى، غالٍ أنت يا وطن، ولو تآمروا عليك، ولو نهشوا لحمك، فأنت الفكرة والأفكار لا تموت، غالٍ أنت يا وطن ولو عبثوا بمقدراتك وأهانوا تاريخك، فأنت اللحظة والدقيقة والساعة واليوم والسنة والدهر، أنت الزمن داخل الكرة الأرضية، غال أنت يا وطن ولو سلخوا عنك أيام مجد عشناها، فأنت الشاعر والقصيدة.. والديوان!

يا وطنى، يا من تسكن فوق الجفون وعلى ضفاف الشرايين والأوردة، يا من تمشى مختالا بين الأزقة والحارات وتدرك أن الوطن الذى ليس منه النجار والسباك والاستورجى

وبائع الروبابيكيا، وطن من سلوفان، ربما فيه ناطحات السحاب ولكنها طائرة فى الهواء وليس لها قاعدة ضاربة فى أعماق الزمن، يا وطنى أغار عليك كالمجنون مهما كانت لوعتى منك، علمتنا ألف باء الحب منذ نعومة الأظفار، نقرأ فى عينيك العتاب لأننا لا نساندك ولا نقف خلف كبير القوم كالجنود، يا وطنى، أنت فى حاجة لحراس أشداء يحمونك من الضباع، حراس أشداء بعقولهم لا بعضلاتهم فقط، يحافظون على هويتك من رياح عولمة قادمة، يبصِّرونك بالمنافقين وأنصاف المواهب والكفاءات ونجوم الصدفة وأفاعى المواقف، احفظ وطنى مصر - يا رب - من كل سوء.. تلك صلاتى بخشوع.

لحظات ألم جميل قبل الولادة!

أكشف للقارئ الذكى ـ الذى أستمد منه حماسى ـ تلك اللحظة النفسية التى تسبق البوح فوق الورق، صوت فيروز فى الخلفية، يعتذر عن بعض مظاهر قبح فى الحياة، أختار لحظة الفجر حيث يتساقط الندى على زجاج النافذة.

الكتابة، ملامسة ناعمة لشغاف العقل قبل القلب، هناك كتابات جديرة بأن يلف البقال بها نصف كيلو بسطرمة، وقد لا نعرف ـ نحن الكتاب ـ أن القارئ أذكى منا فهو يقرأ بوعيه العفوى وحسه الشعبى وينفذ فى سطور ما نكتبه ويستشف ويستنبط ويحكم كقاض عادل لم ينزل الشارع وما زال متمسكا بجلال المنصة، أحكام القاضى القارئ لا نقض لها، فهى قاطعة كالسيف، هذا كاتب فاتر وهذا كاتب لم يستيقظ بعد، وهذا كاتب مصاب بإسهال فوق الورق، وهذا كاتب متعال، وذاك كاتب منافق، وهذا كاتب يأخذ شكل البوق، وذاك كاتب من المداحين والكورس، وهذا كاتب تنطق سطوره بالمصلحة، وذاك كاتب من الأفضل لو كان قارئا..!

أكشف للقارئ الذكى ـ الذى يقرر تاريخ صلاحية قلمى ـ بعضا من الطقوس المصاحبة لعملية الاحتشاد والكتابة، فكل هذا العناء من أجله، من أجل أن يلقى نظرة وتشد اهتمامه السطور بدلا من قراءة العناوين ثم يطوى الصحيفة بملل، فالقراء أنواع هناك القارئ المتابع لكاتب بعينه، والقارئ الباحث فقط عما يهمه، والقارئ الذى يقرأ أول سطرين وآخر

سطرين فى المقال، والقارئ الذى تعجبه مقالة فيقصها ويحتفظ بها، والقارئ الذى يقرأ الصور فقط، والقارئ الذى يفهم (الفولة) من السطور الأولى..

والسؤال الذى يلح على - وأنا أستعد للكتابة - هو: من يقرأ الآن؟ إنى أشك فى أرقام توزيع الصحف باستثناء الخبطات الصحفية والحوادث المثيرة وأخبار العلاوات وجداول الزيادة المتوقعة، ومن المؤكد والثابت أن عدد القراء قد تراجع أمام توالد فضائيات جديدة كل ست ساعات.

وبرغم عدد القراء المحدود فقد ازدادت الصحف والمجلات التى تفترش الأرض مع باعة الصحف، ولكن الفضائيات بإبهارها غير المسبوق (خصخصت) عيون الناس لها، وربما آذانهم أيضا.. من يقرأ الآن؟ الشباب؟ لا أظن! الشباب لحست عقولهم الكورة والنيولوك كأحمد عز وأحمد السقا ويحلمون بفلوس وعربية! الموظفون؟ أحيانا قليلة؟ رجال الأعمال مشغولون! العمال؟ المتعلمون منهم! ربات البيوت؟ لا أظن! الصفوة؟ بعضهم فقط! أما (تورتة الإعلانات) فهى توزع بالتساوى على كل الصحف حتى الوليدة بنت يومين، من يقرأ الآن؟ الرياضيون؟ لا أظن فقد (افترستهم) القنوات الرياضية المتخصصة التى تقدم لهم الأخبار من مصادرها صوتا وصورة والتحليلات من كبار النقاد، من يقرأ الآن؟ هل هم الكتاب والصحفيون يقرأون لبعضهم؟ ربما! من يقرأ الآن؟ هل هم المعارضون تستهويهم الشتائم فى الحكومة والنظام التى دأبت بانتظام صحفهم عليها؟ أظن ذلك! من يقرأ الآن؟ هل هم الفنانون؟ زمان، كانت السجلات الفنية تهمهم وبالذات المصورة منها والآن تظهر الممثلة على ١٠٠ شاشة تطلب ودها فى مصر وفى دبى وبيروت وتحصل على أرقام فلكية! صارت الشاشات هى صحافة العصر.. الأكثر توزيعا!

ودون كل هذا تفرغ محبرتى وتنفد بطارياتى ويهنج قلمى! ولكن السؤال: ماذا أكتب؟ إنها عملية ولادة، وكما قال كاتب أجنبى لا أذكر اسمه: الكتابة مهنة صحية للغاية باستثناء صيد التماسيح! هل أكتب للمسئول؟ لقد شبع مقالات! وهل يقرأ المسئول؟ أظن أن (علاقاته العامة) تقرأ بالنيابة عنه! هل أكتب فيما هو رائج الآن؟ إنه - كما كان يقول أحمد بهاء الدين - (تحصيل حاصل)، هل أكتب عن الفلاحين المهمشين؟ إنهم لا يقرأون! هل أكتب عن البطالة؟ كأنى أدير أسطوانة مشروخة..

هل أكتب عن الصحف التى تروج للمحظورة بشكل خفى كالحواة؟ لا يمكن خداع الناس كل الوقت! هل أكتب عن الاستغناء مفتاح السعادة وأوصل المقال بحكاية غاندى الهند الذى حارب إنجلترا يوما بمغزل صوف طلب من شعبه أن يقلده فاستجاب؟ ما جدوى الكتابة إذا كان

الشعب يبحث عن قدوة فلا يجدها إلا فى بطون التاريخ! هل أكتب عن أهمية تغيير نمط استهلاكنا فى الشهر الكريم بدلا من استيراد - بالدولار - ٩٠ ألف طن من اللحوم المشفاة و١٢ ألف طن من الكبد والقلوب والكلاوى؟ سيقول لى واحد (ده موسم كل سنة وأنت طيب).. فألوذ بالصمت! هل أكتب عن (الانبطاح) بين النيات الطيبة والمعانى غير الأخلاقية؟ هذه مهمة قانونى ضليع اسمه دكتور فتحى سرور يصول ويجول فيها، هل أكتب عن حكومة أخرى (تحكم) مصر بعد الثانية ظهرا موعد انتهاء العمل فى الحكومة الشرعية وأعضاء هذه الحكومة من البلطجية ومدعى الاتصالات بالكبار وتمسح بأستيكة قرارات الحكومة الشرعية؟ أؤجل الكتابة حتى تصل المعلومات الموثقة وإلا كنت أحول الاجتهادات إلى وقائع. أكشف للقارئ الذكى - عناء آلام الولادة لمقال وهأنذا لا أصل إلى شاطئ أرسو بقلمى عليه بعد. ولكن عنوان هذه السطور لحظات ألم جميل قبل الولادة!

بيتك هو قلعتك!

حياتى موزعة بين العمل الصحفى والجهد التليفزيونى، ولم يعد عندى أى أعباء إدارية، فأنا أكتب والفاكس يتولى الحفاظ على حروفى حتى تصل للجريدة أو المجلة، أما الصحافة المرئية فتحتاج إلى النزول للشارع تسبقنى عدسات التصوير، وباستثناء مشاوير ضرورية، فأنا إنسان بيتوتى، أى أقضى وقتا طويلا فى بيتى، وأحفظ عن ظهر قلب مثلا إنجليزيا يقول (بيتك هو قلعتك)، وأعرف جيدا ما يقوله الشعبى (من خرج من داره انقل مقداره) وأتذكر عبارة للفنانة العربية نضال الأشقر تقول (بيتى، مملكتى) وكان الموسيقار الخالد محمد عبد الوهاب يقول لى (أنا لا أذهب إلى جمهورى ولكن جمهورى يأتى لبيتى)، وفى زمان ـ ما قبل التليفون المحمول ـ كان يكفى أن أنزع فيشة التليفون الأرضى فأشعر بالخصوصية الحقيقية، وعندما جاء المحمول، صارت الخصوصية سرابا.

بيتك هو قلعتك، برغم مشكلات الأولاد والبنات وبرغم نكد الزوجات، لأن الشارع قد تغيرت معالمه وماتت النخوة فيه وتكاد تكون العودة منه بسلام.. أمنية غالية، كانت أمى تقول لى (ربنا يكفيك شر الطريق) وليس المقصود بالبقاء مدة طويلة فى البيت أنه لدواعى الاكتئاب وفى هذه الحالة أفضل الخروج والالتحام بالناس وتذويب الاكتئاب ليرحل، لست فى حاجة إلى الذهاب لسينما أو مسرح إلا فى القليل النادر، ذلك أن العبء النفسى للذهاب لسينما فى وسط البلد مرهق للغاية وقد استطاع التليفزيون مع نادى الفضاء

والقمر الصناعى توفير مئات ومئات من الأفلام والمسرحيات على القنوات فضائية وأرضية والاستمتاع بها فى مقعدك دون أن تسمع كلمة نابية فى الصالة ودون إصابة سيارتك وتحطيم فانوس نور ع الماشى وأنت (داخل السينما).

بيتك هو قلعتك، وقلعتى المتواضعة فى عمارة لا أعرف فيها أحدا ونلتقى أحيانا فى الأسانسير ويبتسم كل منا للآخر ابتسامة باهتة صنعتها المدينة التى جعلت من سكانها جزرا معزولة، وربما كانت مميزات هذه الجزر أن (كل واحد فى حاله) نعم، لم يعد هناك ذلك التكافل الاجتماعى والزيارات! لقد صحوت على أبى وأمى يصعدان عصرية أحد أيام الأسبوع ليشربا القهوة عند جيراننا وبالمثل يأتى الجيران لزيارتنا وكان ذلك فى بنى سويف فى الخمسينيات، ما عادت هذه الزيارات فى المدن الكبيرة وإن ظلت هذه (العادات) فى ريف مصر.

زمان، كنت أخرج لأقابل أصدقاء الجيل الواحد ولم أعد أراهم، ربما خطف الموت بعضهم، وربما أقعده المرض ولم يعد قادرا على الحركة، وبعضهم أعباؤه العائلية فوق طاقته، فانعزل عن الناس، صرت أحتمى فى البيت من مهاترات صاخبة فى شارع السياسة وشارع الصحافة ولا أذكر أنى شربت مع صديق أو زميل منهم فنجان شاى فى نقابة الصحفيين، وكل علاقتى بنقابة الصحفيين تختزل فى شهادة موجهة لمصر للطيران عندما أسافر، أحصل بموجبها على ٥٠٪ من ثمن التذكرة.

إن بعض لقطات برنامجى حديث المدينة تصور فى بيتى الذى يتحول إلى بلاتوه لساعات، وذلك عندى - أفضل - من الخروج نهارا تحت شمس حارقة ومرور يحرق الدم ويرفع الضغط، إننى داخل بيتى لا ألبس دروعا أقابل بها أحدا يوجه لى سهام البغض ولا أضع على وجهى أقنعة نتنكر فيها فى أثواب المتواضعين والودودين! إن الرزق يعتمد على نظرية السعى فى الحياة ولا أتصور أن السماء تمطر رزقا على التنابلة والكسالى، من هنا أتحدث عن البيت - كقلعة - وليس كجراج لكل أفراد العيلة وليس كسرير اكتئاب أو ركن تشاؤم، أتحدث عن البيت الذى تحتضنك ذراعاه ولا تلفظك إلى الشارع! أتحدث عن البيت الذى يحول الحب والتفاهم إلى قصر مهما كان متواضعا وبسيطا، لقد خرج زويل من بيت شديد التواضع فى دمنهور وخرج البرادعى من بيت متواضع فى الدقى وخرج جابر بطل العالم فى الحديد من بيت ريفى، وكان جمال حمدان مفكر مصر الكبير يعيش فى شقة متواضعة فى ميدان الدقى، إن البيوت المتواضعة تغدو قصورا عندما يكون سكانها برؤية وهدف محدد، يسعون فى اتجاهه.

لكل هذه النقاط، أنا بيتوتى، محب للبيت، عاشق صبابة لغرفة مكتبى، ومأسور لسريرى الشاهد على أحلامى وراحتى، أرى الدنيا من خلال بيتى لأنه ليس مجرد حوائط وديكورات وإضاءة خافتة، ولكنه أعصاب وأحاسيس ومشاعر وذكريات بعيدة ترمز لها أشياء صغيرة.

بيتك هو غطاؤك وملعبك ومسرحك وناديك ومكتبتك وورائحتك وذوقك، بيتك هو أنت حامل الرقم القومى، دافع الضرائب وتمثل رقما فى التعداد، وتحلم بتأمين صحى أمين وتتمنى لأولادك تعليما حقيقيا وتريد ديمقراطية ترفع فيها صوتك فلا تعاقب على رأيك، وتطلب حمايتك من صاحب عقار عاوز يرميك علشان يجوز ابنه فى شقتك اللى بإيجار قديم!!

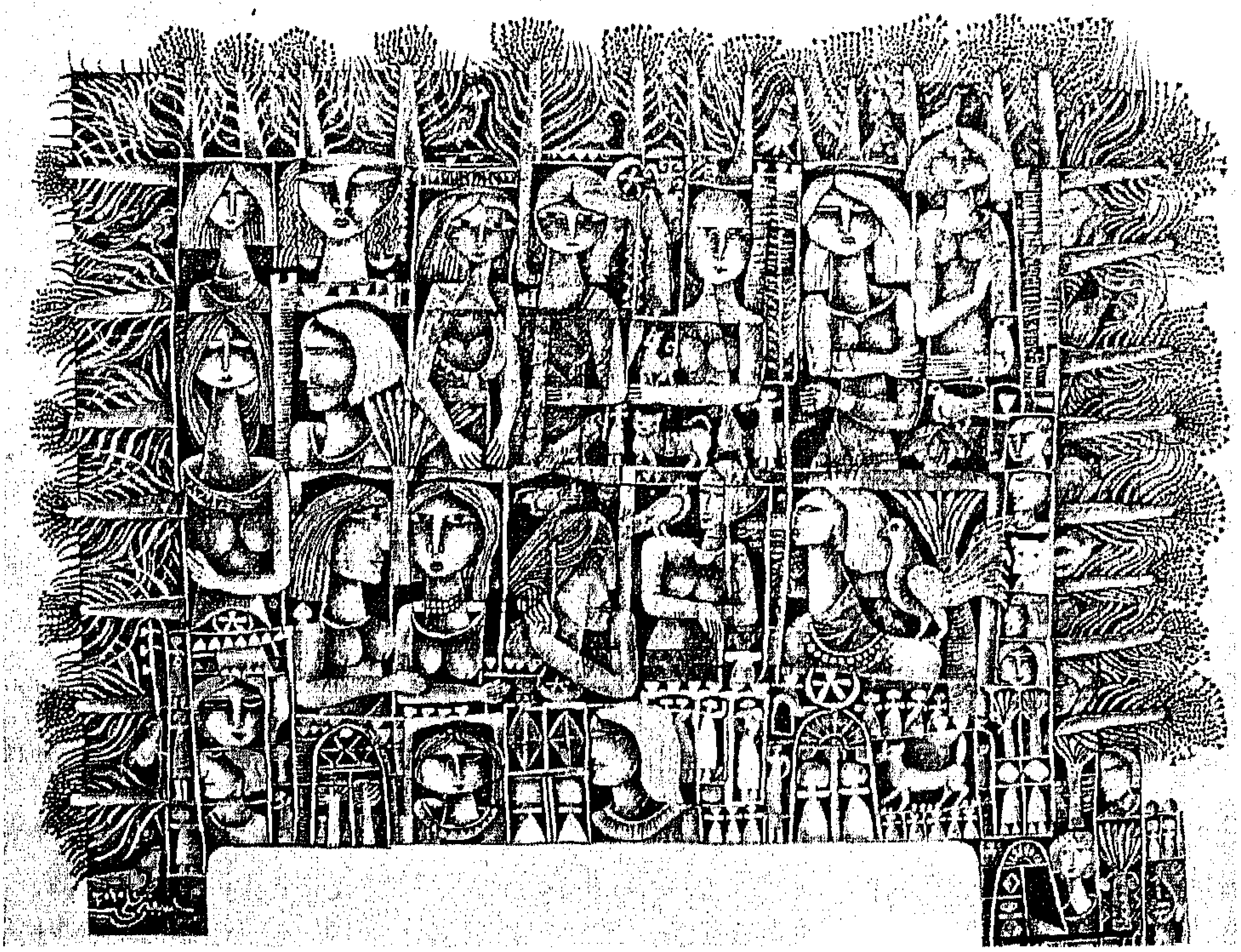

شهادة على حاضر!

أنا من جيل عرف الصعب واجتازه، أنا من جيل وقف طويلا وطويلا أمام باب النجاح حتى انفتح، حضرت مجالس الكبار ولم أنطق احتراما، جلست إلى عمالقة الفكر وكنت بأذنى أنهل قطرات من ثقافاتهم، لم أقاطع أحدهم من باب الفذلكة ولم أزايد على فكرة من أفكارهم، كنت أصغى بكل جوارحى إدراكا منى أن المتحدث كبير المقام والعلم.

أنا من جيل عرف جدول الضرب وتعامل مع المليم والتعريفة واحترم الجنيه، فقد كان له حيثية، وقدر لى أن أرى الجنيه المصرى يهان أمام العملات الأجنبية وهو صامت، واشتركنا فى تعذيبه بالأسواق السوداء حتى دخلت قبضة الدولة ومنحته بعض الاعتبار، كان المليونير فى زماننا شخصية نتهيب الاقتراب منها ونتهامس عنها، رأيت المليونير يتضاءل أمام الثروات التى تكونت فى زمن الانفتاح بمسميات طريفة أهمها العصامية، بيد أنها فى الواقع شطارة وفهلوة وانتهاز فرص.

أنا من جيل سمع عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم، وذاقت الأذن طعم مزيكة السنباطى والقصبجى وزكريا وصدقى، وتمايلنا مع الآهات ودمعنا مع أنين الناى المصلطن ولم نعرف (الدبدبة) بالأقدام إعجابا، جلست بالساعات ليلا مع كامل الشناوى، كنا نمضى ساعات الليل نسمع منه أجمل ما قاله الشعراء، وعشت داخل ردهات صباح

الخير قمة الحوارات الأدبية بين الشاعرين أحمد عبد المعطى حجازى وصلاح عبد الصبور، وتحتدم المناقشة حتى يحسمها أحمد بهاء الدين بمنطقه الهادئ.

أنا من جيل لا يلح ولا يطلب ويتحصن بكبريائه فى خندقه ولم يتقن الصوت العالى ولا لف البهتان فى سلوفان ملون، حفيت أقدامى حتى تنتقل حروف اسمى من بنط ١٠ أسود إلى ١٢ أسود (لغة المطابع القديمة فى الصحف قبل الكمبيوتر) وحين صار اسمى بالكليشيه على صدر ما أكتب، كاد قلبى تتوقف دقاته من الفرح وشعرت أن هذا التاريخ ميلاد ثان لى، كان هذا قبل عناق (الصالح بالطالح) حيث يظهر اسم ابن يومين ولا التابعى فى زمانه، وصارت المسألة (فضائية لكل مواطن)، حيث انتشرت هذه الدكاكين بصورة غير مسبوقة، وقد يحل الساعى فى الفضائية محل المذيع إذا غاب عن موعده أو عطله المحور أو توقف المرور.

أنا من جيل لم يعرف طريقه إلى شاشة تليفزيون قبل ١٢ سنة قضيتها فى الإعداد الذى كان يمثل لى (الغدة الفكرية والمعلومات)، تتسلح بها المذيعة قبل أن تدخل الاستوديو، وعرفت طريقى للشاشة بمغامرة - أظن أنها محسوبية - لرئيس التليفزيون سامية صادق وخلاصتها (أن أفضل من يقدم مادة هو من أعدها)، لم يكن فى جيلى محسوبية أو واسطة أو كروت توصية أو غشم غافل وغشيم، وقد عشت - فى الحاضر - معد التليفزيون الذى يستجلب الضيوف بالتليفون ويطلقون على أنفسهم (رؤساء تحرير)!

أنا من جيل البابا كرلس ومن بعده شنودة الثالث، لم أعرف شيئا اسمه أقباط المهجر يفسدون علينا أوقاتنا بلا طائل، وأغلب الظن كما قابلت بعضا منهم فى أوروبا وكندا وأمريكا أنهم (مصريون حاقدون) ربما أمم عبد الناصر ممتلكاتهم أو حدد ثرواتهم، وذلك التشنج المفتعل على المسيحية نحن قادرون عليه مع قيادة سياسية متفهمة للأوضاع القبطية برمتها.

أنا من جيل الاستئذان، أستأذن فى التليفون الأرضى الثابت، أدق على باب أى إنسان ولو كنت رئيسه فى العمل، لا أضع ساقا فوق ساق أمام أساتذتى، لا أقول كلمة منفرة أمام امرأة، أنتمى لزمان (أولاد حتتنا) نحافظ على بنات الحتة بدمنا ودموعنا، لا أن نتحرش بهن كما الحاضر التعس! أنا من جيل لم يسمع مطلقا عن نجوم الفتاوى وكنت أصغى فى زمانى للشيخ المستنير أحمد حسن الباقورى ثم الشيخ الشعراوى ثم لعقل الشيخ محمد الغزالى، لكن يبدو أن الشعراوى - بعد رحيله - ترك فراغا، ولا أحد يطاول قامة الشعراوى أو الغزالى.

لماذا كل شيء تقزم؟ لماذا (الانفلات)؟ هل هذا (الحراك الاجتماعى أم الجراج الاجتماعى)؟ لماذا انقلب (هرم) الاحترام؟ لماذا يتربص جيل الشباب بالريادات ومن يطلق عليهم الحرس القديم؟ هل جزاء (التجارب الطاحنة) السخرية من أصحابها؟ هل هو (قلة التربية والتعليم) محور جوهرى لهذه السوقية؟ وإذا جاءت التكنولوجيا فهلا استفدنا من (الجوهر) قبل (المظهر)؟ نحن بالمناسبة مستهلكون عظام.

إن جيلى لا يملك إلا مشاعر الحسرة وربما كانت موقفا سلبيا لكن من المهم (تطهير) المجتمع من الشوائب وإعادة الاعتبار لأدب التعاملات فى الحياة، والجرأة فى مناهج تعليم تنسف المدرسة القديمة التقليدية.

ومثلما كان مجلس أعلى للطاقة، يجدر أن يكون هناك مجلس أعلى للتعليم يجمع كفاءات البلد ويعطيه رئيس مصر وراعيها صفة التنفيذ، فالتعليم (طاقة) غير هدمية أى ليست قابلة للنضوب، أنا لا أعادى الجديد ولا أقف موقفا من العلم، لكنى أدعو لتقاليد توفيت فى ظروف غامضة!

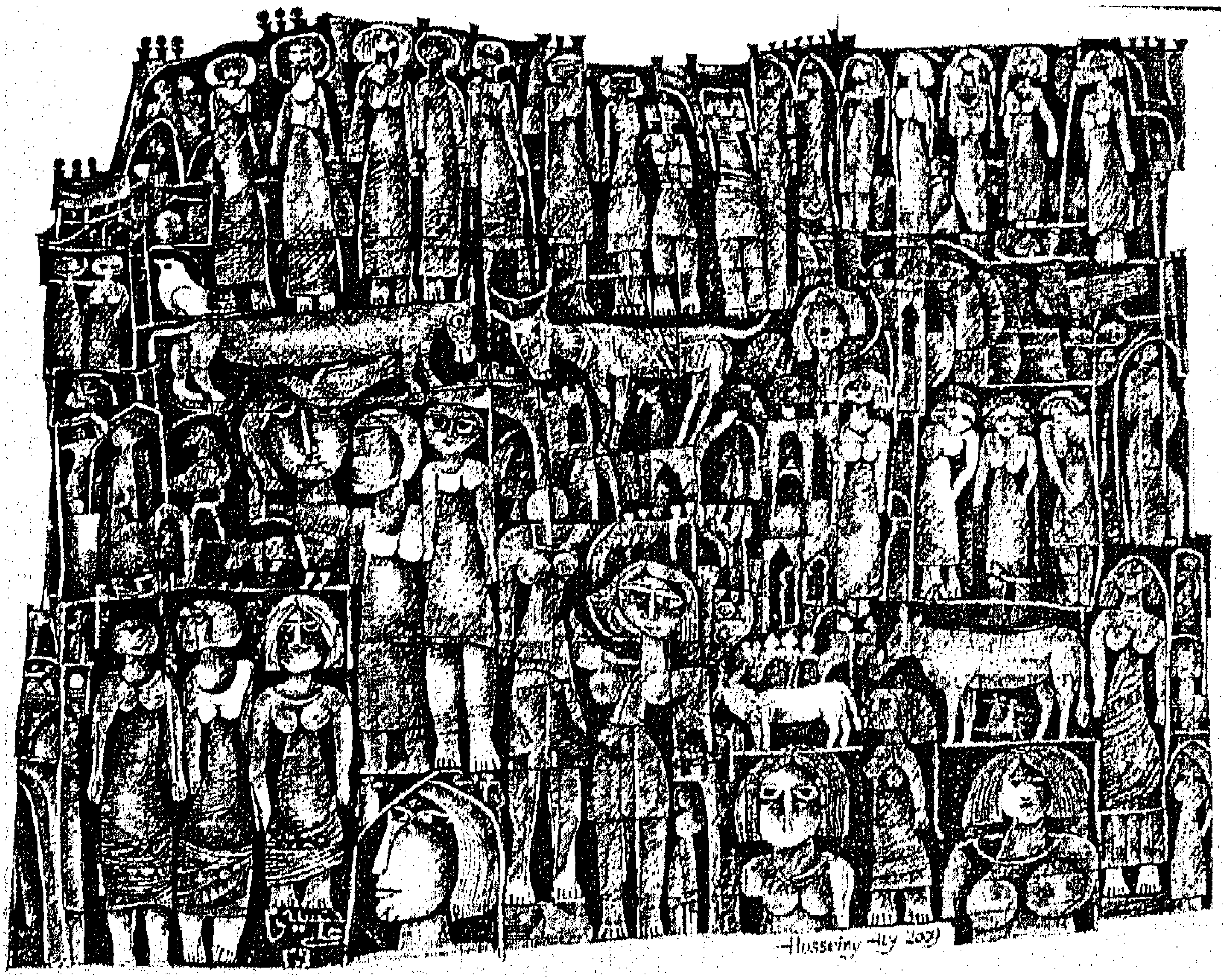

رسالة إلى بيومى محمد بيومى!

عزيزى بيومى.. أنا لا أعرفك ولكنك مواطن مصرى من ملايين المواطنين الذين يسكنون المحروسة مصر، الذى يدفعنى للكتابة لك هو صمتك الطويل.

أعلم أنك صبور وتقول مع أم كلثوم (للصبر حدود)، أنت تستحق الدعم الذى تقتطعه الدولة من لحمها لتوفره لك، ولكنه لا يصل إليك ويسرقه القادرون بصنعة لطافة وأمامك عينى عينك!

يفكرون أن يكون دعما نقديا ليصلك (يدا بيد) وأنت لا تطمئن، فقد علمتك التجربة أن قوتك مرصود يا ولدى، نسوا أنك تحتاج لدعم عاطفى، تسمع الدولة صوتك مثلا، تضمن علاجك مثلا، تؤويك فى خيامها إذا سقط بيتك مثلا!.. أعلم أن أولادك تجاوزوا السبعة، ربنا يبارك ويزيد، ولكن تعلم أنك قطمت وسط الدولة بقبيلتك؟ هل صدقت شيخ الناحية حين قال لك: إن الله موزع الأرزاق؟ لكن الله يا بيومى خلق لنا عقولا نتدبر بها، وأنت تحفظ عن ظهر قلب المثل القائل على قد لحافك مد رجليك!

ولكنك نسيت كل هذا ورحت تمارس رياضتك المفضلة: خلفة العيال!

عزيزى بيومى.. أعرف أسباب إحباطك واكتئابك، فالدنيا حولك مثل (ميدان عمومى تعطلت إشارات مروره) الكل مرتبك والكل يفعلون ما يشاءون (الجميع لا يستحون)! الصحف لا تتكلم عنك بل عن مراجعات جهاد المحضورة! لا تتكلم عنك بل عن تضارب مهرجانين فى وقت واحد،

مهرجان ينظمه الإعلام ومهرجان تنظمه الثقافة!! الصحافة ليست مشغولة بك وبهمومك يا بيومى.. أفهم هذا جيدا!! والتليفزيون يتكلم أحيانا عن همومك إذا كان فيها ما يثير، فالمشاهد ملول ويعبر الأشياء العادية، ويريد إثارة شىء ما يشده! والصحف الخاصة لازم تكسب وتوزع وتغرى بالإعلان فيها، ماذا يهم هذه الصحف من أمرك؟

افهم يا بيومى ولا تغمغم بكلام غير مفهوم! فالعادى صار مألوفا، والمألوف صار عاديا! وأنت تعيش فى زمن مختلف عن زمان (أبوك).. أيام كانت البيضة بمليم والرغيف بتعريفة، وفنجان القهوة بنكلة! أعلم جيدا أن الأسعار تشويك، فابحث عن أى عمل لأولادك ليساعدوك بدلا من الموبايل بكارت! واحلم يا بيومى يا أبو عطوة!

أنا أعلم أن الدش فتح عينيك وعيون أولادك وبناتك على حياة أخرى أكثر رغدا، ولكن ماذا تفعل و(العين بصيرة واليد قصيرة) الدنيا طبقات وأصابع اليد ليست متساوية، وفيه ولاد سبعة وولاد تسعة أشهر، ما أنا حريص عليه هو أنك إذا ذهبت إلى قسم بوليس تشكو تصرفات جارك الاستفزازية، يقابلك الضابط النوبتجى باحترام، ولا يسفه لك الأمر ويحرر المحضر. ويستدعون جارك للمساءلة، ما أنا حريص عليه هو أن تذهب زوجتك إلى مركز صحى يعتنى بها ومستشفى يصرف لها الدواء، وطبيب طوارئ مدرب عنده إنسانية مرفق بها شهادة البكالوريوس فى الطب.

ما أنا حريص عليه - يا بيومى - أن تجد عربة إسعاف بلا مقاولات إذا استغثت بها إذا حدث لك مكروه.

هذه أبسط حقوقك فى هذا المجتمع، تمسك بها قبل أن تدوسك نعال الإهمال.

عزيزى بيومى.. أحسدك على صلابتك وأنت تواجه كل يوم امتحانا جديدا فى أمور الحياة ولكن تذهب دهشتى حين أتأمل المصريين على مر محطات الزمن، يستوعبون المراحل، يحزنون ويقاومون الحزن، يقهرون ويقاومون القهر، ويخافون ويقاومون الخوف.

عزيزى بيومى، تفاءل برغم شجيرات التشاؤم!

اضحك برغم الدموع! الغد أفضل! فالأحزان تقصر العمر وترسم التجاعيد المبكرة، عش اللحظة لأنها ثمينة، فالحياة قصيرة مهما تطل.

إن سيناريوهات إلهية ترسم خطاوينا، فلا نثأر من ظروفنا، وما زلت أتساءل يا بيومى: هل الحظ حقيقة أم أنه تعريف آخر لجهد إنسان؟ وهل تستقيم معادلة الحياة ببشر ٧ نجوم وبشر نجمة واحدة أو نجمتين؟ لكنها الدنيا لغز استعصى على الحل ولا مناص من قبوله كما هو..!

هذه ليست دعوة للاستسلام، إنما للتكيف مع الظروف، فالتكيف صمام الأمان من الانفجار والتمرد والعصيان.

افهم يا بيومى وافتح مخك فتسد الطريق على ناس يلعبون على أوتار احتياجاتك الصغيرة، احظرهم، فهم محظورون.

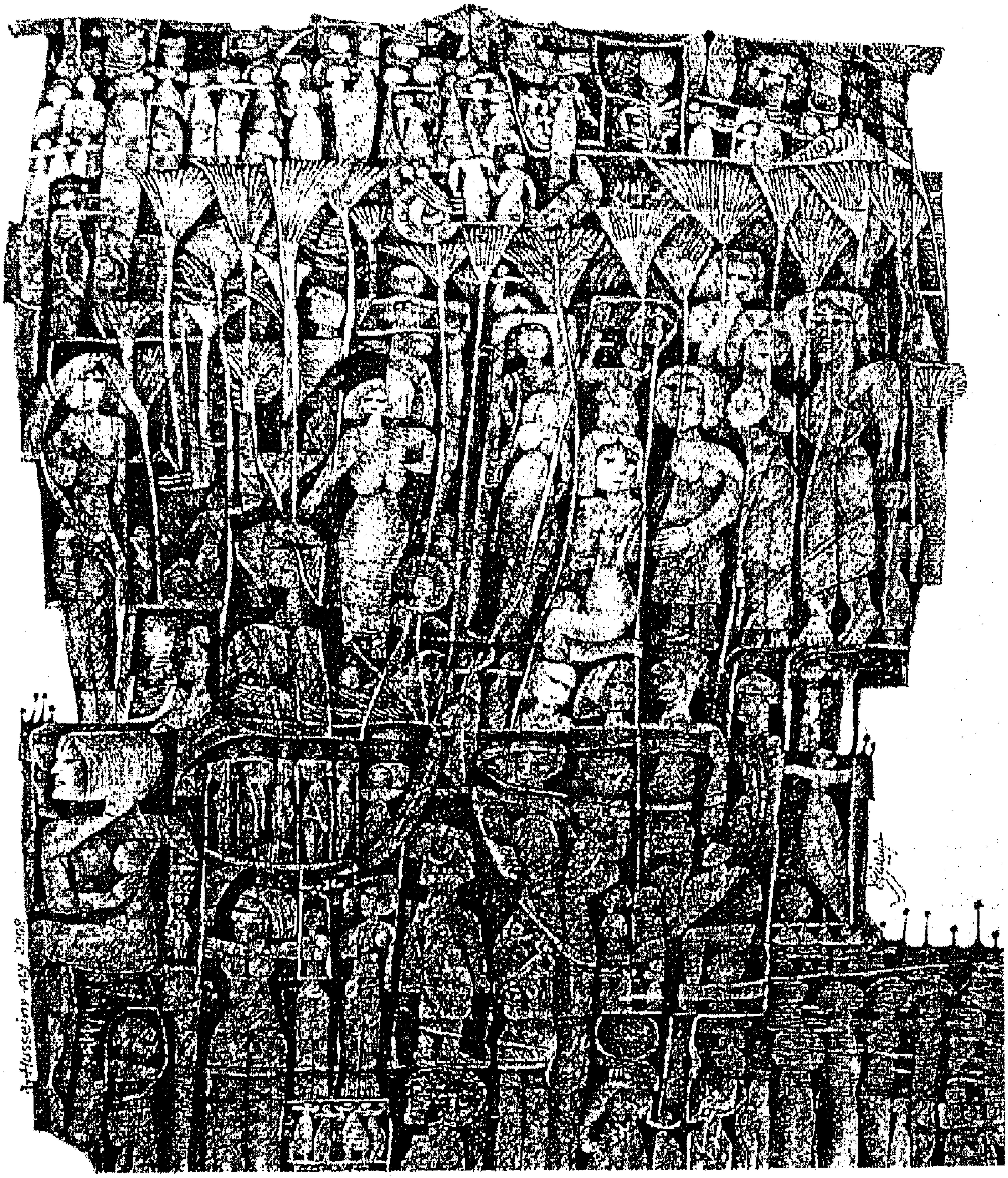

صداقة هذا الزمن!

الفنانتان منى واصف (السورية)، ونضال الأشقر (اللبنانية) لهما تقليد جميل حاولت تقليده وتطبيقه! إنهما - بعيدا عن الأحزان الديسمبرية - قبل وداع عام أهم عشر شخصيات سكنوا الوجدان وربما أقاموا فى فندق العقل والقلب، أما لماذا هذه الإقامة، فلأن هذه الشخصيات العشر - رجالا أو نساء - مست أوتار النفس وتركت بصمة وشاركت فرحة ما أو محنة ما، المهم كان العزف الروحى شجيا، وما أحوجنا ونحن نلهث فى الحياة ونتعارك ونتدافع بالأكتاف إلى كف صديق، هى فى نهاية مرفأ لسفننا بعد طول إبحار، كف صديق.. نوزع عليه أنفسنا، أحزاننا، خوفنا، حيرتنا، عجزنا، ونحن فى واقع جزر مهجورة ومعزولة ما لم نعتصم بحبل الصداقة، ولكن هل الصداقة - هذا الاختراع السحرى - ما زالت بعافية فى هذا الزمان؟!

لقد حاولت أن أحصى عشر شخصيات جدد فى حياتى عبر عام يلفظ أوراقه الأخيرة فوجدت أنى أضفت ربما شخصيتين، رجلا ليس من أبناء (الكار) لاستحالة هذه الصداقة، وامرأة لا تسعى للضوء! واكتشفت أن الباقين (معارف) لا أصدقاء، فالصديق رتبة عالية فى جيش الحياة إن أذن التعبير، الصديق عملة نادرة فى سوق الأوغاد، صديقى مرآة حقيقية لى، يصارحنى ولا يبيع لى الوهم، يكاشفنى ويضمد جروحى، ويعطينى إصغاءه باختياره، ويمنحنى ثقة بلا حدود.

كان الشاعر كامل الشناوى يقول لى بعض أصدقائى قبورهم، صدرى! كان الدكتور زكى نجيب محمود ينبه ألا نستغرق فى صداقتنا لأن التقلب من صفات القلب! كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول لى الصداقات الكبيرة علامات فارقة فى الحياة وأكثر صداقة ربطتنى بأمى.

ما زالت صداقاتى القديمة معمرة.. حتى ولو لم نتلاق، فالرصيد يسمح بتغطية الأيام، هل لأنها صداقة الجيل الواحد؟ ولم لا؟ صداقاتى برجال السياسة أكثر عمقا بعد أن غادروا المناصب والكراسى، إنها صداقات العقل ولهذا تعيش ويكتب لها البقاء فى غيبة أية مصالح! صداقات النساء للنساء افتراض ساذج على أرض الواقع، فهى صداقات يحكمها التنافس والغيرة، والضرب تحت الحزام بلسان له صفة (المبرد) وأدق تعبير لصداقات النساء، إنه (حسن جوار) ليس إلا! الصداقة بين رجل وامرأة واردة بشرط تكافؤ العقول ونضجها ولكن لو تسرب الدفء لهذه الصداقة خضعت لشرط الحب وأنانية الامتلاك وجنون الغيرة! صداقات مقاعد الدراسة لا تفنى مطلقا ولا تتعرض للتصدع، إنها صداقة عاشت بحفنة من أعز المشاعر وأكثرها نقاء! ولا تؤثر فيها عوامل تعرية الزمن، كان إحسان عبد القدوس يحذرنى فى مطلع شبابى الصحفى من توهم الصداقة مع الفنانين! كان إحسان يكتب (صديقى هذا الأسبوع الفنان الفلانى حتى يولد فيلمه الجديد أو أغنيته الحديثة أو مسرحيته التى تعرض)!

الصداقات بين الأزواج والزوجات غير ممكنة إلا بعملية (تهجين) صعبة، ذلك أن الرجل الشرقى - على حد قول الشاعرة سعاد الصباح - لا يرضى بدور غير أدوار البطولة! نحن - برغم هبوب رياح العولمة علينا - لم نصل بعد أن تكون الزوجة الشرقية لها (خزانة أسرار) أرقام شفرتها مع الزوج فقط! الصداقات بين آباء هذا الزمن وبناتهم نادرة لأن جيل (الموبايل) خارج نطاق الخدمة والطاعة! ربما تتكون صداقة بين البنت وأمها إذا كانت الأم لها أذنان للسمع وعينان تغضان الطرف عن بعض ما تراه!

الصداقة بكاء بعيون الآخرين.. وهذا المفهوم فى ندرة اليورانيوم فى هذا الزمان، لأن الحبيب (اللى يبلع لك الزلط) تنبت فقط فى زمن العصر الزراعى! حيث يقول الحس الشعبى (قيراط ملك ولا فدان شرك)! صداقة الصفقات هى (صفقة) وليست (صداقة) وعمرها بعمر إتمام الصفقة، الناس تلتقى فى ساحة الحياة، هناك (عوامل خفية) تقربنا من ناس وعوامل أخرى تنفرنا من آخرين، ولكن (الصداقة) تحتاج لزمن، لاختبارها ونضجها وصلابتها فلا تتفتت وتصبح هشة عند أول صدام فى الرأى أو نميمة فى الأذن،

وكان توفيق الحكيم يعتقد أننا (نصادق من نستلطفهم) ونكره (من يصارحنا برأى يؤلمنا) فرؤيتنا للصداقة انفعالية وليست موضوعية، لماذا تموت بعض الصداقات المعمرة؟ حين تختلف بحدة زاوية الرؤية وحين يصبح المال ـ لا الدفء ـ سيد الحياة، وحين يختلف ترتيب المشاعر.. وتتراجع قيمة الصداقة وتصبح عبئًا! وليس من المهم أن يكون أقرب الناس إلينا جغرافيا، الجغرافيا لا تصنع صداقة ولكنها التاريخ! الصداقة هى (طوق النجاة) من الغرق فى بحر الحيرة والحزن، ولكن الناس ـ فى هذا الزمان ـ تسأل (أخبارى أيه عندك)؟!! وزمان، كان من ألتقى به يسألنى (أخبارك إيه، فرحنى)؟ لم تكن الحياة قد تعقدت ولم تكن المصالح قد تشابكت ولم تكن النفوس ببعضها قد تحرشت..، حين أفقد صديقا من أصدقائى القدامى، أقيم مأتما داخليا وأذرف دمعة، فأنا أبكى لحظات نادرة عبر مشوار العمر، ثم أفيق على حكمة تقول (عمر الأشياء الجميلة.. قصير)!

ملعونة الكلمة التى..!

ملعونة الكلمة المحبوسة فى القلب بين ثنايا الضلوع، لأنها تفتك بالكذب والبهتان.. ملعونة الكلمة التى لا تثقب العتمة بضوء من الأمل.. ملعونة الكلمة التى تبرئ الحكومة مما اقترفت يداها.. ملعونة الكلمة التى تروج للازدواجية فيقول المسئول شيئا ويفعل شيئا آخر.. ملعونة الكلمة العشوائية المنفعلة التى تعانى أنيميا العقل والفهم.. ملعونة الكلمة التى تفتح جرحا طائفيا فى جسد الوطن.. ملعونة الكلمة التى تشكك فى مقدسات هى جزء من تراثنا باسم حرية التعبير.. ملعونة الكلمة التى تخدش الحياء، فالأدب فضلوه على العلم.. ملعونة الكلمة الصادقة عندما تخرج على استحياء فى زمن يفسرها ألف تفسير.. ملعونة الكلمة التى تنافق النظام على حساب الشارع.. ملعونة الكلمة التى تضرب أمن هذا البلد لترضى فكرا معينا يريدها فوضى غير خلاقة ويصفو له الجو.. ملعونة الكلمة الغبية التى تنتصر لفكر متخلف يخشى نور التنوير.. ملعونة الكلمة المترددة حين يكون الأمر متعلقا بصحة الناس.. ملعونة الكلمة المغناة حين تعلو قيمة العيب على شفاه المغنين.. ملعونة الكلمة التى تغتال براءة الأطفال فلا تحذرهم من الوجبات السريعة المدمرة للمناعة.. ملعونة الكلمة عندما لا تلح على الناس منبهة إلى خطورة أنفلونزا الطيور على البشر.. ملعونة الكلمة حين تفرد للكورة صفحات وتزنق الأدب فى عمود ونصف.. ملعونة الكلمة التى

تختصر مشوار إنسان فى سطر جارح.. ملعونة الكلمة التى تروج لشائعة تستهدف الأذى لمصر.. ملعونة الكلمة التى لا تنبه الشباب أن (النفس الواحد من الشيشة يساوى ٤٠ سيجارة).. ملعونة الكلمة (المظاهرة) حين تحرض على التظاهر بلا سبب جوهرى ويكون الهدف الخفى إشاعة البلبلة عند الناس.. ملعونة الكلمة التى تهز التفكير العلمى أو تشكك فيه مع أن العلم هو المنقذ من التخلف والتخاريف.. ملعونة الكلمة (المعتقلة) فى صدر كاتب لأنه يخشى الأذى والاعتقال.. ملعونة الكلمة التى نقولها لأولادنا ونتنصل منها.. ملعونة الكلمة التى تغازل تيارا أو فكرا أو سياسة أو دولة.. ملعونة الكلمة غير الخالصة لوجه الله وتمل فى الثنايا إعلانا أو دفاعا أو اتجاها مشبوها.. ملعونة الكلمة الملونة التى تستقبلها أنت بشكل ويستقبلها غيرك بشكل تانى.. ملعونة الكلمة السوداء التى تحجب عن البلد سائحا أو مستثمرا وتبدو بريئة وهى مسقية كراهية.. ملعونة الكلمة التى تهز إيماننا بجناحى الدولة: الأن والقضاء.. ملعونة الكلمة التى لا تنصف معوقا أو مدرسا أو طبيبا شابا أو موظفا فى أضابير الأرشيف.. ملعونة الكلمة التى تستهزئ بالمرأة عن قصد أو بغير قصد.. فالذى يهزأ من الأم أو الأخت أو الابنة ينكر أنه جاء من رحم أمه.. ملعونة الكلمة التى تقلل من هيبة رجل الدين ونحن بلد متدين ولا يجوز أن نرى رجال الدين فى وضع أقل.. ملعونة الكلمة (المقبرة) ألتى تخرج من فم المغرور يحفر لنفسه هذه المقبرة.. ملعونة الكلمة الناقدة حين تهدم عملا فنيا لا ترى فيه شيئا ولو ضئيلا.. ملعونة الكلمة التى ترى كل شىء فى البلد أسود.. ملعونة الكلمة المحرضة على الاعتصامات والانقسامات والغضب الساطع آت.. ملعونة الكلمة التى لا تلقن الشباب ثقافة الاعتذار إن أخطأ، فبدون الإحساس بالخطأ تسود ثقافة الهوجائية حيث يستوى الخطأ مع الصواب.. ملعونة الكلمة عندما تعوى كالذئب باحثة عن فريسة، أى فريسة تتصيدها.. ملعونة الكلمة المراهقة التى لا تعى جيدا مصالح الدولة وتتربص لها بوطنية مضروبة.. ملعونة الكلمة التى تعتم على نجاح إنسان فى أى موقع كان، كجزء من نشاط حزب أعداء النجاح.. ملعونة الكلمة المسلية المدغدغة فى بلد نام يحتاج لكل حرف يضخ وعيا وإحاطة.. ملعونة الكلمة (الفرمان) التى لا تقبل النقاش أو الجدل، إنها كلمة مكبلة بالأغلال.. ملعونة الكلمة التى تبشر بسراب أمل وبرائحة تفاؤل كاذب.. ملعونة الكلمة الملتوية التى تمسك العصا من المنتصف ولا تعرف أهى حق أم باطل، وبعد قليل ينكشفون.. ملعونة الكلمة التى لم تنضج

على نار الخبرة وتخرج بلا مسئولية كسيحة القدمين، ومرتعشة.. ملعونة الكلمة التى لا تدعم قيمة الكبرياء الوطنى وعلى الربابة تتغنى به.. ملعونة الكلمة الموحية بكراهية النظام لأنها لم تفطن أن البديل مخيف.. ملعونة الكلمة المحبطة، لقد ثبت أن نصف حلول مشكلات الناس بالكلمة التى جاءت فى الحديث الشريف (الكلمة الطيبة صدقة) وجاء فى الإنجيل (الكلام اللين يصرف الغضب).

إنها عملية تستيف أوراق!

بكل أدب جم ولسان عف يعرف حدوده ولا يبحر فى غير المياه الإقليمية، يروق لى أن أتطرق لنقطة حيوية فى حياتنا العملية وعلى الأخص ونحن نناقش مشكلاتنا وأوجاعنا الاجتماعية، إذ إن نقطة البداية - فيما أتصور - هى معرفة الداء بوضوح شمس استوائية، مهما تكن المرارة وطعم العلقم، الدول الناضجة - وأقصد العالم الأول - تذهب إلى ما تعانى منه مباشرة ولا تتلكأ فى السير مثلنا! الطبيب الأمريكى يقول لمريضته المصابة بالسرطان: سيدتى، أنت فى المرحلة الثالثة وما عاد العلاج الكيميائى مفيدا!

الطبيب المصرى يقول لنفس المريضة: أنت زى الفل وكل ما فى المسألة شوية بواسير أمرها سهل زى شكة الدبوس! أقول هذا الكلام عن تجربة عشتها وليس اجتهادات أو حوار سينمائى لفيلم فى كوميديا سوداء، الطبيب الأمريكى صادق برغم المواجهة القاسية والطبيب المصرى مجامل، قد يعرف الحقيقة ولكنه يكتمها مهما تكن فداحة إخفائها، الطبيب الأمريكى.. صادم، بالحقيقة.. والطبيب المصرى يستف الأوراق ليجمل الصورة.

المستشار الملط صادم يواجهنا بحقائق الأداء المالى فى حياتنا الحكومية، وهناك من يستف الأوراق ليجمل الصورة أمام الرأى العام، وتنفلت الأعصاب، لأن الأمر صراع بين صدق الأرقام التى لا تكذب وتستيف الأوراق التى تجيد فن لىّ الحقيقة وتجميل الصورة

ووضعها فى برواز مذهب! نحن أمام خيارين، أيهما أهم: (الصورة) أم (البرواز)؟ ولحسن حظ هذا البلد فإن قيادته السياسية لا تهتم بالبرواز مهما يكن مذهبا وتهمها الصورة ولو كانت مجرد ظلال قاتمة.

كوارث القطارات نبهتنا إلى بشاعة (الصورة)، لأن البرواز كان مطليا بالفضة وكانت هناك دائما عملية تستيف أوراق.

كوارث العمارات الآيلة للسقوط برغم قرارات الإزالة الصادرة (نبهتنا) إلى صورة الأحياء المحلية وقدرتها على تستيف أوراقها، فكانت النتيجة سقوطها فوق سكانها. تسأل مسئولا عن عدد مرضى الإيدز فيقول لك وهو يبتسم: بيقولوا أن العدد الرسمى كذا ولكن أنا أعتقد أن الرقم الحقيقى غير كده بالمرة، فإذا قلت: أقول الكلام ده فى التليفزيون؟ انفعل وقال ماتقولش على لسانى، أرجوك، لماذا؟ لأنه يستف أوراق حقيقة يعرفها ولا يود الإفصاح عنها بلسانه، فإذا قلت (العالم يعرف الرقم الحقيقى ونحن نكذب) قال (ماتسودش الصورة).

تحكمنا الثقافة الورقية ونجيد تستيف الأوراق مستعينين بالشىءون القانونية المزروعة فى الأجهزة والمؤسسات والدواوين، تعرف الثغرات وتسدها بديباجات يرتديها الباطل فيزهو فى خيلاء الحق! أحيانا نرصع الأوراق بأرقام مزورة (تبعث على التفاؤل الكاذب)، وأحيانا أخرى نستف الأوراق وهى تتجمل برغم القبح، وكم من المآسى عاناها منها الوطن لأن الأوراق الحكومية متستفة.

إن أجهزة الدولة الرسمية المهتمة بالإحصاءات ومركز دعم القرار بمعلومات، هى بعبع تستيف الأوراق ولكن (النشال دائما أذكى من فريسته) تنقصنا ثقافة الاعتراف بالواقع، كل ملفات الدولة تشير عبر عملية تستيف الأوراق أنه ليس فى الإمكان أبدع مما هو الآن! لكن قضايا عديدة لا ينفع معها أى تستيف للأوراق، القطن المصرى، الرغيف، المرور، التعليم، مستوى خريجى الجامعات، جرائم المتعلمين، وغيرها، إن المسئول الذى يصارح الناس بحقيقة أمر ما، أو عجز ما، أو انعدام كفاءة ما، أو تعثر ما، هو ذلك المسئول الذى يستحق الجلوس على الكرسى، أما المسئول الذى يحتفظ فى مكتبه بمئات (الشماعات) فهو لا يخدم الناس، إنما يخدم نفسه وشريحة معينة من الناس. إننا نحتاج أيضا فى حياتنا السياسية إلى شجاعة الاعتراف بالتقصير، إن التقصير فى أداء المسئول وارد، والاستقالة

لا الإقالة، تعطى انطباعا عند الناس باحترام المسئول الذى يستقيل ويتحمل مسئولية التقصير، أما (التمادى) فى التقصير دون بارقة أمل فى الإصلاح، فهذا هو السقوط الشعبى بعينه.

إن بعض قضايا هذا المجتمع التى اندلعت مثل حيتان الأسمنت واحتكار الحديد ونشوء شركات توظيف الأموال من جديد والمياه المعدنية المغشوشة، لم تندلع فجأة، إنما كانت لها ملفات مغلقة وأوراق متستفة، والصحف أحيانا كثيرة تلمح لهذا الشأن الداخلى، ولكن المسئول يقول: (أوراقى زى الفل، ومتستفة)!

ماذا أردت من هذه السطور؟ أردت:

١ـ المتابعة المستمرة للأداء بطريقة القوات المسلحة . ٢ـ تغيير قيادة أى موقع عندما تفوح رائحة كريهة . ٣ـ انتزاع ألغام الإحباط من أمام الناس، عندما يسود شعار (شيلنى واشيلك). ٤ـ تقليل تحويل بلاغات إلى النيابة بشأن إهدار المال العام (السايب) أحيانا و.. الالتفات الجاد لأمور محورية ومصيرية فى حياتنا بدلا من إهدار طاقات فى الجرى واللهاث وملاحقة الفساد، وإلا هذه (اللخمة) مطلوبة وموظفة و.. متستفة؟!!

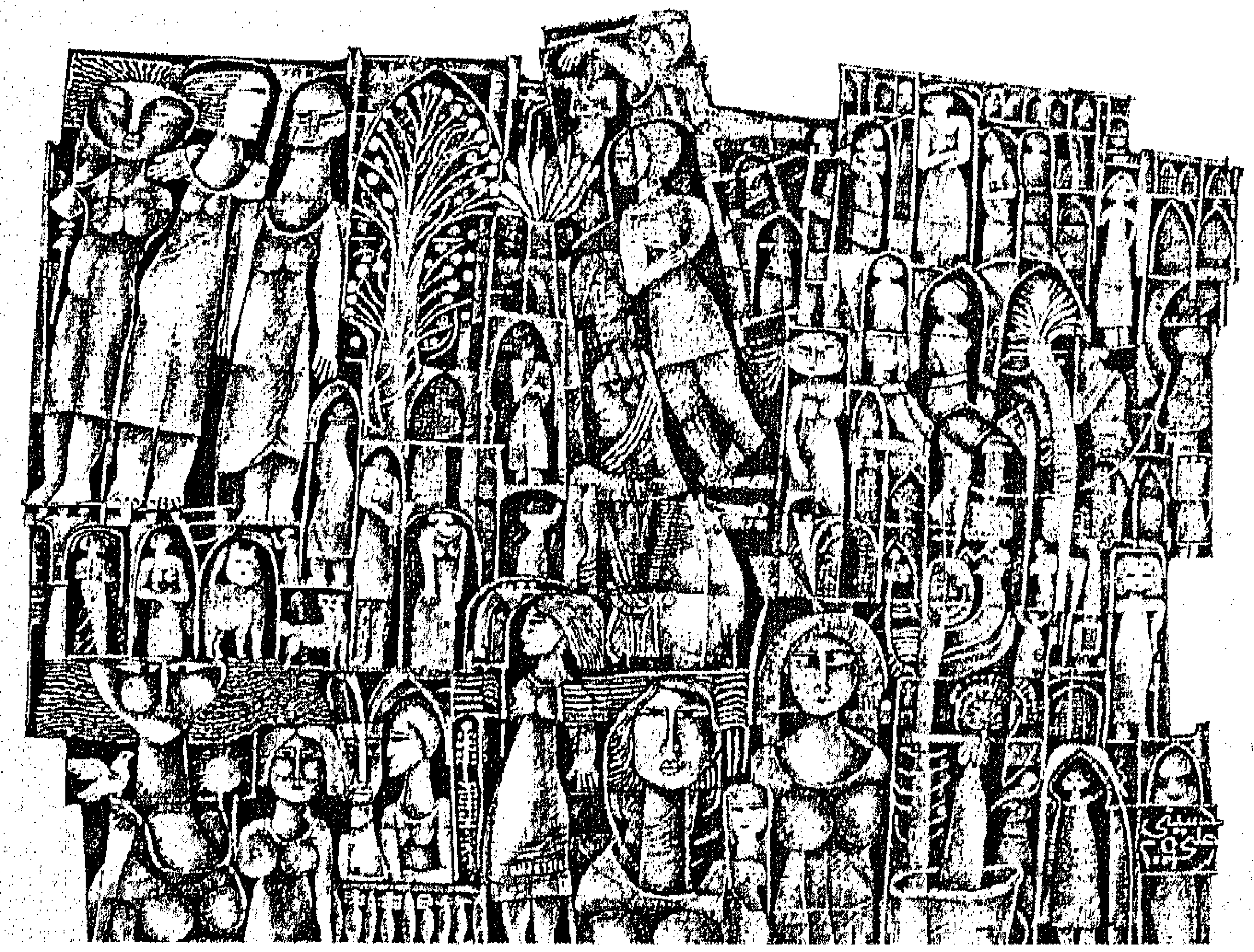

ساركوزى.. والوجه الآخر!

الإنسان هو الإنسان حاكما أو محكوما، نفس المشاعر والرغبات، ولا يختلف إنسان عن آخر.. إلا بطريقة إدارته لشىءونه وتوجيه الدفة فى سفينة الحياة، كان أحمد بهاء الدين يقول اثنان يكشفان الرجل، المنصب والزواج. وأنا أفرض على نفسى فلسفة متواضعة بعدم إقحام قلمى فى الشأن الخاص لرجل أو امرأة، ولكن الصحافة وعدسات التليفزيون لا يلتزمان بهذه القاعدة فى الشأن الخاص للرجل العام، لاسيما أنه حاكم فى العالم الأول، وبحجم ساركوزى، فالخطوة محسوبة عليه واللفتة مرصودة، حتى الإيماءة تخضع للتفسير والتأويل، إنها أشهى الوجبات على مائدة القارئ تحت أى سماء، وعندما جاء ساركوزى وصاحبته كارلا إلى الأقصر وأمضيا أيام غرام بين المعابد القديمة ومقابر الملوك، ارتفعت أصوات من المحافظين الفرنسيين ومن بعض المحرومين العرب ينتقدون ساركوزى على سلوكه العلنى الفاضح، ولم تكن كارلا قد حصلت بعد على لقب زوجة لتصبح السيدة الأولى فى فرنسا، يومها ضحكت لأن حكام فرنسا مسكونون بعشق النساء، فالعشيقة مكافأة على العناء من أجل الشعب الفرنسى!

وجاء ساركوزى، وجعل غرامياته على رءوس الأشهاد، أى (على عينك يا تاجر)، ويروق لى بعض التفسيرات النفسية، فالكراهية الساخنة حب، والرغبة فى الانتقام من حبيبة غادرة، حب! ولا أدرى هل ذهبت سيسليا زوجة ساركوزى السابقة إلى حب قديم آثرته على لقب السيدة

الأولى وفضلت عليه رجلا آخر تعيش معه فى بنسيون بالحى اللاتينى على.. قصر الإليزيه؟ وربما كان ذلك صحيحا، فأراد ساركوزى نسيان امرأة، بامرأة أخرى.

بالمناسبة تمنيت لو أجريت حوارا مع مدام ساركوزى السابقة لأعرف كيف تقاوم المرأة الجاه والسلطان والصيت الذائع، تمنيت أن أعرف متى تكره المرأة رجلا وقفت معه ببسالة فى انتخابات الرئاسة ثم أدارت ظهرها قبل أن تدخل قصر الإليزيه، هل كان من الممكن أن تستمر الحياة مع ساركوزى لو لم يغمر حياتهما ذلك الضوء الباهر، وهل أراد ساركوزى أن يلقن سيسليا درسا لا تنساه، أم أنها طوت هذه الصفحة وتعيش حياتها؟ ساركو - بالمناسبة - هو الاسم الذى يطلقه الفرنسيون على رئيسهم ساركوزى ومعناها الشاطر، وبمعايير السياسة يعتبر ساركوزى من (الشطار) لأنه هزم العملاق شيراك ورئيس وزرائه فيلبان من أن يرشح الحزب الديجولى أحدا ضده، وانتصر على الاشتراكية رويال التى هزمت كل خصومها الاشتراكيين، يجىء الشاطر ساركوزى ولا يخفى غرامياته مثل من سبقوه من رؤساء فرنسا، أيضا يجىء الشاطر ساركو ويقول لكل الزعماء العرب (الأولوية بالنسبة لى أمن إسرائيل).. ويبيع بمليارات اليورو أسلحة ومحطات نووية فرنسية، حسم الشاطر ساركو أمور السياسة وانتبه لنفسه كإنسان وكرجل فى قلبه غصة لا ترى بالعين المجردة، وعكف بحماس على إعداد ترتيبات الزواج من كارلا...

إنه شاطر.. ورايق، ففى فرنسا مشكلات تنتظر الحل من رجل الإليزيه الجديد، مشكلات مثل (حل للأجور أمام موجة الغلاء العارم)، وإرضاء رجال الأعمال بتخفيضات ضرائبية جديدة (كان ساركوزى قد وعد بها فى أثناء حملته الانتخابية).

ساركوزى الرايق، اختار قصرا صغيرا كان منزلا للصيد ملحقا بقصر فرساى لحفل الزواج، نفس هذا القصر كانت تعده زوجته التى كانت - مقرا للإقامة بعد فوز زوجها فى الانتخابات - ويلاحظ المراقبون أن اختيار هذا العش يرمز إلى مشاعر كيدية من طليقته، غير أن طليقة ساركوزى لم تأبه لهذه التصرفات ولم تعلق، فما عاد يعنيها الأمر على ما يبدو، ذلك أنه حين تنغلق مسام المرأة وينسد شريان حبها لرجل، تهز كتفيها لا مبالية!

ثقافة مختلفة تماما عن طقوسنا الشرقية، إن ساكنات القصور يتمردن ولا يبلعن إهانات الرجل ولهن سيناريوهات مختلفة، زوجة ترودو رئيس الوزراء الكندى - يوما ما - ضاقت بحياتها، فخرجت ذات ليلة من مقر إقامتها مع ترودو ولم تعد! قالت فى كتاب صدر عنها (بحثت عن نفسى فوجدتها مجرد ملف مركون فى أحد أدراج مكتب ترودو)، وكالعادة قال المحافظون إنه (تصرف سوقى)، وقال الآخرون (لقد تمردت على القهر بطريقتها)، الأمور نسبية

دائما، وإرضاء كل الناس رهان على مستحيل، وربما فطنت سيسليا طليقة الشاطر ساركو أن له (علاقات خاصة) فثارت لكرامتها وتركت له الجمل بما حمل! ولكن هيلارى كلينتون كانت أذكى وبعيدة النظر، لقد فضح العالم كلينتون ومونيكا، ومع ذلك تحملت هيلارى وخز العيون حتى تدخر (زوجها) لوقت صعب وهو انتخابات الرئاسة الأمريكية، وظهر الاثنان أمام العالم متحدية الدنيا وكأنها تقول (لم يفارق ذراعى برغم كل شىء).

لم تستطع سيسليا الفرنسية أن تتغاضى عن مغامرات ساركو حتى يدخل قصر الإليزيه ثم تخرج معه وبراءة الأطفال فى عينيها وتعلن للدنيا أنها (سامحت شقاوة ساركو)، ذلك أنه حين يكون للمرأة هدف بعيد وحان وقت تحقيقه، فإنها تغفر أخطاء الحبيب بعقلها حتى لا يضيع منها الهدف، تلك هى المرأة المخططة بعيدة النظر مثل هيلارى!

ساركوزى الرايق أحب كارلا الإيطالية واهتم بتفاصيل علاقتهما، ومن الشهود على الزواج، ومن يضع قائمة أصناف العشاء الجمهورى، الطبق الأول والطبق الثانى والطبق الرئيسى.

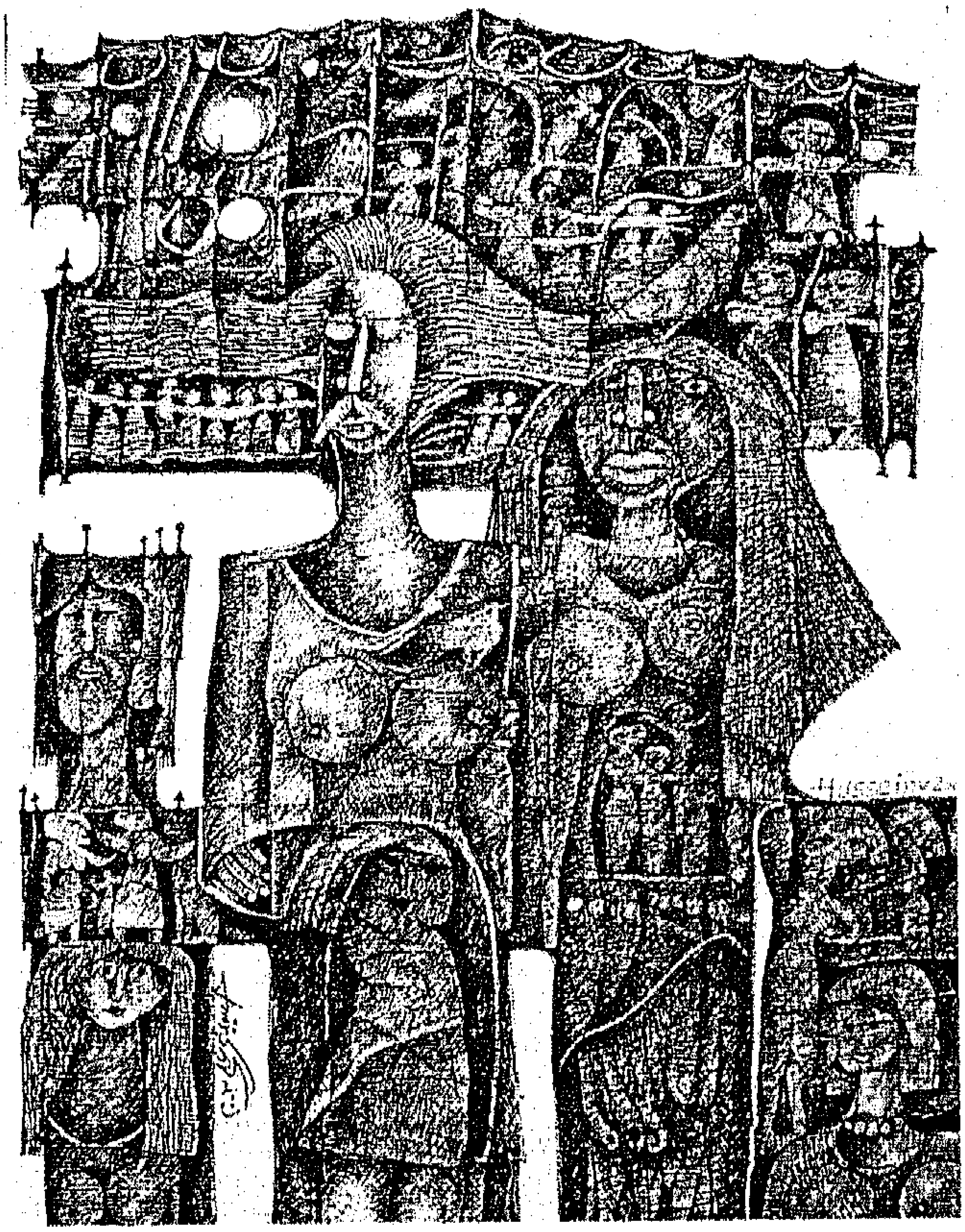

هؤلاء هم أعداؤك يا وطنى!

ليس عيبا أن أنتقد الوطن، ولكن من قلب محب مخلص لترابه، ليس عيبا أن أعدد سلبيات الوطن بهدف الحرص عليه والخوف على مقدراته، إن حب مصر ليس عبارة إنشائية، ولا كهنوتا غامضا ولا أغنية حماسية تذاع وقت المحن والكوارث، وعلم مصر ليس قطعة قماش ملونة ولكنه رمز خفاق، تخفق له قلوب المصريين، وحاكم مصر رجل تتجسد فيه آمال وآلام هذه الأمة ويحمل على كتفيه أحلام شعب وأطفال مصر ونسائها وشبابها وعجائزها (٧٨ مليون نسمة) فى رقبته. ولا بد أن نتفق على أرضية مشتركة فى الفهم، وهى أن أعداء وطنى ليسوا هم فقط من يتربصون بحدودنا أو يفلتون من معابرنا أو يغيرون على سمائنا أو يجتازون حدود مياهنا الإقليمية، هناك (أعداء) فى الداخل يتربصون لأخطائك يا وطنى وأعداء (يتصيدون) فى الماء العكر يا وطنى، هناك (أعداء) يحلمون بهزيمتك يا وطنى ويتمنون (أن تولع)!

أعداؤك يا وطنى من (يعرضون) أمرا مهما على مسئول أو وزير أو محافظ أو رئيس جهاز، فالعرض الأمين (موصل جيد) للحل، والعرض الناقص أو المستخف (موصل سيئ للحل)، أعداؤك يا وطنى فى (الإدارات الوسطى) التى تقع بين رئيس العمل وموظف الأرشيف، هؤلاء لديهم القدرة على تجميد أو ترحيل أو تبديد المشكلة فتظل المشكلات

(تلعلط) فى بركة إدارية راكدة وآسنة، وتغلى صدور الناس ويتمنون لك (الأذى) يا وطنى وربما كانوا (معذورين)!

ماذا نسمى هذا السلوك الإدارى؟ ارتعاشة قلم غير قادر على اتخاذ قرار أم إلقاء المسئولية على الآخرين أم بلادة ذهنية نصفها لا مبالاة؟

ولنتجاوز التسميات إلى الجوهر، أعداؤك يا وطنى الذن يرفضون التفكير المستقبلى فتكون النتيجة تكدس المشكلات وتمحورها مثل الفيروسات، وما قضية الشرب وقضية العيش وطوابيره إلا مشكلات مؤجلة أو حدث فيها (تغيير جزئى) الذى هو - على حد قول مفكر الإدارة الجاد د. عبد الرحمن توفيق - ألد أعداء الإبداع والتطوير. نعم إن الإمساك بذيل الفيل لا يمنعه من التحرك، وجذب ذيل الحصان بشدة يدفعه للتمرد، وعلاج مشكلاتنا الكبيرة لا يبدأ من ذيلها! لقد آن الأوان يا وطنى لاستثمار عقول المفكرين وعلماء الإنسانيات لدرء الأعداء الغافلين لمصر.

أعداؤك - يا وطنى - هؤلاء الذين يتكلمون برقاب نافرة وصوت جهورى عن العلم والعلماء بدلا من العمل فى صمت داخل معامل مجهزة واحتفاء أكثر بالعلماء، أعداؤك - يا وطنى، أولئك الذين يحبطون الناجحين بتفتيت حماسهم أو وصمه بشىء ما أو مطاردته أو تقليص دوره، فتجد المصرى الناجح يهرب بجلده من البلد إلى أى وطن آخر يحتضنه ويربت على كتفه بحنان.

أعداؤك - يا وطنى - بعض أقلام راهنت على ضياع فرصة مصر فى التألق والازدهار، وأنا - يا وطنى - أضع الأقلام المنافقة على طول الخط مع الأقلام (المشبوهة) التى تنخر فى جسدك مهما كنت تتألم أو فى طريقك للشفاء، فالقلم الذى يتحول إلى فريق المداحين والكورس يتساوى عندى وعندكم مع القلم ووجهة النظر (المحظورة) ولو ارتدت ثيابا مزركشة، فالناس فطنت بهوية كلمتها مهما تظاهرت بالاستقلال وإمساك العصا من النصف. أعداؤك - يا وطنى - يكرهون أمنك الساهر على كيان بلد، حيث ينام الأطفال نوما هادئا عميقا، إنهم يودون أن ينتكس ويحلمون له بالتقصير، وتصوروا معى طعم الفوضى لو تزحزح أمن مصر عن السيطرة الأمنية، إن مجرد حركة بهلوانية لبلطجى بيد واحدة يقود ميكروباص ويؤذى سيارتك بخبطة فى الإكصدام تجعلك - لاشعوريا - تسب وتلعن البلد (٧٨ مليون نسمة).

أعداؤك - يا وطنى - من يبالغون فى حادث طريق أو الاتجار بلحوم حمير أو كلاب ولا

يعلمون أنهم يحولون القادمين إلينا فى الصيف إلى قبرص أو اليونان.

أعداؤك - يا وطنى - يلوكون كثيرا عن البنوك، والتخبط فى القوانين المصرفية، وهنا يفكر المستثمر ألف مرة قبل اتخاذ قرار بالاستثمار فى مصر، نحن نخسر المستثمر والسائح ونقف على الأبواب نغنى موال البطالة يا بلدى!

أعداؤك - يا وطنى - طائفة من التجار تربحوا وما زالوا من تجارة فى حبوب أو حديد أو ماشية أو خضر أو فاكهة أو مدارس خاصة، لا ضمير ولا خشية الحساب الأخير ولا خوف من الحساب الأرضى.. فـ...

فتنبه يا وطنى لأعدائك الملثمين والجالسين على الكراسى والجبناء والجهلاء والمنافقين، ولا تخذلنى.

فأنا أنتمى إليك و(أبلع لك الزلط).

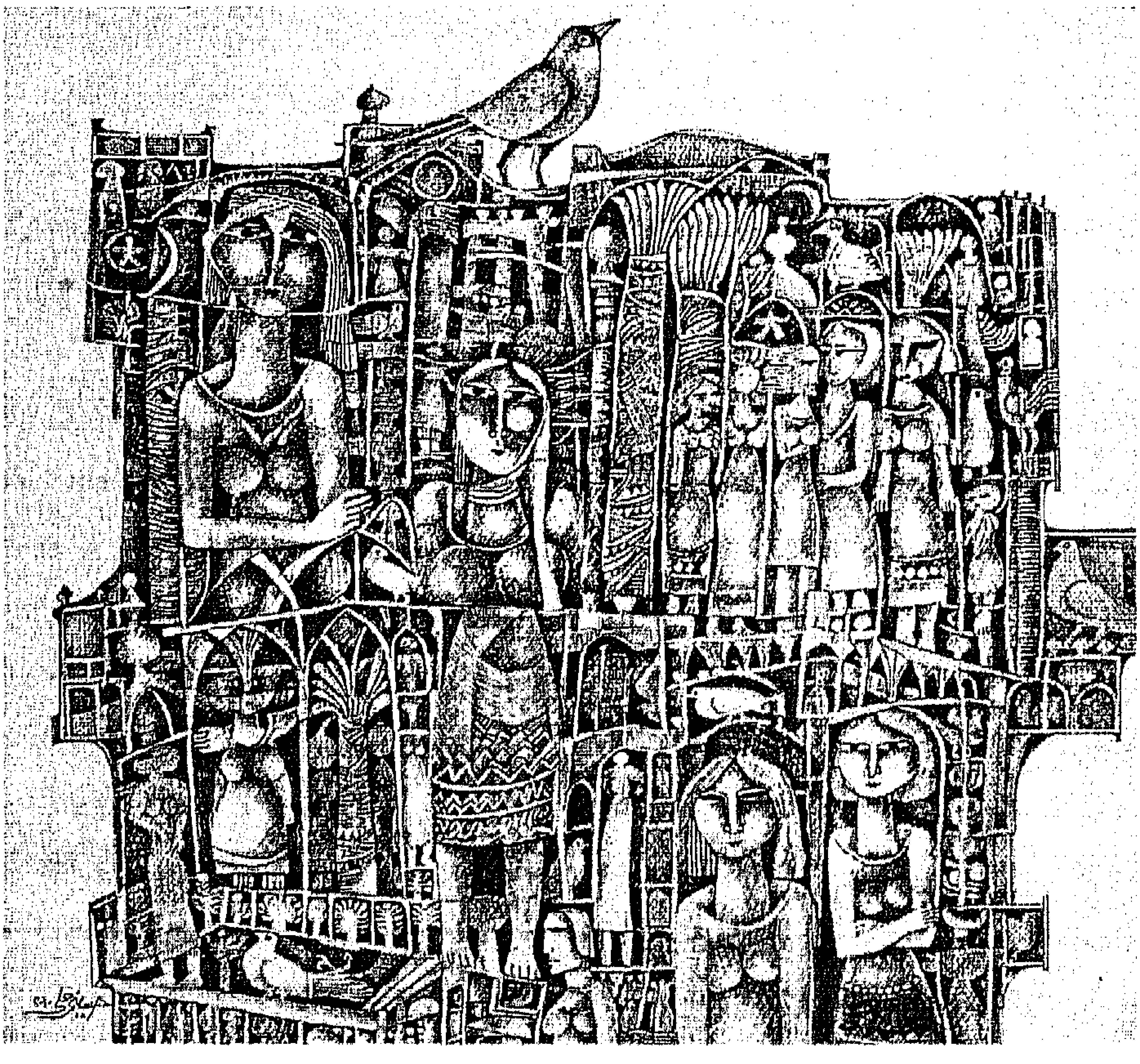

إلا قارة النفس!

أحمل ثمانية جوازات سفر منحتنى إقامات دافئة فى قلوب صديقاتى من مدن العالم، إذ لا شفاء من مرض الحنين إلى السفر إلا بالسفر، وكلما تصفحت الجوازات القديمة مر أمامى شريط طويل منسوج من يسر وعسر، ومن سعادة وتعاسة ومن دموع ومسرات، إن جوازات سفرنا هى كتب مفتوحة على رفوف الذاكرة، أمد يدى فألتقط حفنة من التجارب ربما لا تزال خضراء، أستعيدها وحدى بين ختم السفر وختم الوصول، ويقينى أن هذه الأختام أضافت إلى علما لم أتعلمه من مقاعد الدراسة وجعلتنى أمسك بيدى تعريج سواحل كنت أرسمها فى دروس الجغرافيا، ولصعوبتها، كنت أشفها بورقة كربون! قطعت آلاف آلاف الأميال فى السفر وخلوت إلى نفسى تحدثنى وأحدثها وأتسلق سلم الذاكرة تعبث بى وتلهو، فذاكرتنا.. مخزن أسرارنا التى لا يطلع عليها أحد سوانا، سافرت إلى معظم قارات العالم ورأيت شعوبا كنت أقرأ عنها فقط، عرفت طقوسا غريبة عشتها وربما لم أشعر بالألفة معها ولكن لكل شعب دستوره وطقوسه، سرت فى شوارع عريضة، ودلفت إلى أزقة ضيقة ورأيت التسول بكل الصور، دخلت ناطحات سحاب شاهقة، ونمت فى غرف فنادق معلقة على كتف جبل أو محيط، تعاملت بنقود بكل لغات العالم، وقابلت سفراء وقناصل وعدت أحمل كروت هؤلاء وفيها أرقام تليفونات المكتب والمصيف، ركبت قطارات أجنبية تمرق وترشو الوقت، وركبت سيارات بأجهزة مثبتة فى التابلوه تصل إلى العنوان دون سؤال.

وعرفت الخوف فى التلفريك، وأنا معلق بين السماء والأرض، تجولت فى أسواق شعبية عبر عواصم الدنيا حيث لا يعرفك أحد فأنا واحد من عباد الله أرى وجوها ملونة وأحيانا سمراء وأحيانا أخرى لا لون لها، وأسمع لهجات غريبة على أذنى ولغات أكثر غرابة، لغة تشى بالتوسل والضراعة ولغة كلها أوامر ولغة تبث فيها الشفتان بالحب. دخلت متاحف بلاد لم أتصور أن تطأ أقدامى عتبتها، تصعلكت فى ليالى مدن لا تعرف النوم، وركبت المترو فى مدن تبدأ حياة الناس فيها من السادسة صباحا، رأيت بشرا يأكل الكافيار ويدخن السيجار ورأيت بشرا يترصد للموائد التى فرغت من طعامها.

حاورت آلاف الناس عبر مهنة البحث عن المتاعب، يسمح لى مهما كنت مراوغا فى أن أطل على ما يريده فقط ولا يكشف من المستور إلا ما يرغب فيه فقط، وربما قال شيئا وهو يضمر شيئا آخر!

صادقت عشرات الناس، تغيروا وتبدلوا ـ على مر الأيام ـ مرة بسبب مال وفير أو منصب لم يكن ع البال أو بخطوة قريبة من السلطة، جلست مع ناس متحمسين للبلد فى الظاهر وكارهين حاقدين فى الباطن، عرفت رجالا لا كلمة لهم ومواقفهم مائعة ولكنهم يصدّرون للآخرين رجولة زائفة، عرفت بشرا لا يصلحون إلا مداحين وكورسا لكبير أو عظيم، فإذا انكسر رمح الكبير أو العظيم انفضّوا من حوله وطاروا كالجراد بحثا عن أرض أخرى، عرفت أناسا سممت السياسة حياتهم وصاروا مبرمجين، ولا تدرى هل لهم قلوب أم عيون زجاجية كعيون المقامرين لا تستطيع أن تقرأها.

ومثلما قالت مرة الكاتبة كوثر هيكل: المصالح تتصالح، اكتشفت صداقات صنعتها المصالح وعندما تسقط هذه المصالح، تتبخر الصداقة، الناس أسرى لمطالبها الذاتية، وربما انحصرت فى قناتها ولم تعد ترى إلا من أين تؤكل الكتف، النفاق صار العملة الرائجة فى هذا الزمان، بقدر ما تنافق تحصل على مكاسب، الازدواجية صارت سمة للمجتمعات، عين على العولمة وعين على مواريث التخلف وقد أدى هذا التناقض الحاد إلى طحن الشخصية بتروس التكنولوجيا، نحن لا نواجه أنفسنا ونخفى عوراتنا عن الآخرين وعلى النت نتخلص من ملابسنا ونصبح عراة أمام من لا نعرفهم أو يعرفونا!

أطباء النفس يقولون لنا: حين تكره إنسانا، اجلس إلى مكتبك ومزقه إربا فوق الورق لتستريح، لقد أفرجت عن طاقتك المخبوءة، أحزان إنسان يحملها فوق كتفيه ولا أحد يشاركه وطأتها إلا قليلا، لم أعد أحكم على أحد من ضحكاته فربما يضحك من فرط البكاء، لم أعد أفسر حديث إنسان عن الشرف بأنه شريف فربما يتحدث عن الشرف من

داخل مستنقع، عيون الناس على (الأرباح) من هذه الحياة حتى ولو لم تستحقها، أجهزة الدولة تحقق والأجهزة الرقابية تتقصى وتظل الحقيقة تائهة شاردة لا يعلمها إلا الله. وبعد أن كانت السماحة والتعاطف والتكافل من قيم الأمس، اندثر كل هذا وصارت أدوات العصر مختلفة كالطمع والأنانية والغش، يغرسون أنيابهم بخفة ومهارة فى جسد المجتمع وينهشون الباقى من القيم، الذين لا يستطيعون مجاراة (قرصان العصر) يلملمون أشرعتهم عن جزر الأنانية ويرحلون أو ينسحبون.

وبرغم أنى أعيش بين الناس ومع الناس، فقد سافرت كثيرا إلى قارات الدنيا وخبرتها إلا قارة النفس البشرية، فهى قارة غامضة وكل محاولات علماء النفس فى فهم كنهها طواف بقارب حول جزيرة مجهولة ابتلعها المحيط، وما محاولات الفلاسفة للدخول إلى أعماق قارة النفس إلا إضاءة بقنديل نفد زيته من طول البحث والتوغل. قارة النفس بعيدة المنال، غامضة، معقدة، تحكمها آلام طفولة وعذابات مراهقة، وأحلام خائبة وأمنيات لم تحقق، وصدامات متكررة فى البشر، قارة النفس لا تأشيرات لها ولا خط طيران ولا حقائب مسافر ولا أختام ضباط الجوازات فى المطارات، قارة النفس لا تفتش فى أثناء سفرك ولا تدخل أجهزة الكشف، قارة النفس فيها المعتل والمختل وفيها السليم والسوى والطماع والطموح، ولكن هيهات أن تعرف النيات ولا كيمياء هذه القارة.. ومن هنا تجىء عذاباتنا فى هذا الوجود.

أبحث عن امرأة!

أبحث عن امرأة، عيناها.. ليست كعيون المها، ورقبتها ليست كرقبة نفرتيتى، وبشرتها ليست برونزية اللون، أبحث عن امرأة جميلة وهى مغسولة الوجه بدون مساحيق أو كريمات، بشرتها بلون طمى النيل، ممشوقة كعود قصب، قلبها سنبلة قمح تشى بالخير.

أبحث عن امرأة تعرف أن التى تهز المهد بيمناها.. تهز الأرض بيسراها، وتفطن إلى تطور الأمم الذى لا تصنعه حضارة أسمنتية بل أمهات.. أمهات.

أبحث عن امرأة، ترضع أولادها لبن الانتماء لتراب وطن وأن القرآن والإنجيل كتابات سماويات لا فرق، وتدرك أنها - كأم - الروضة والابتدائى والثانوى والجامعة، وهى ليست خاضعة لوزير، ومن هذه المؤسسة قد يخرج الغشاش والنصاب والمرتشى والقاتل.

أبحث عن امرأة تكشف مهارات الأبناء مبكرا وترعاهم بحنان وافر وغذاء لا يصيبهم بالأنيميا.. فينهد حيلهم قبل الأوان.

أبحث عن امرأة (لا تنشغل) بغير طريق الأبناء، لا مظهريات تأخذها ولا صداقات تستغرقها، فقد كانت أمهاتنا شموعا.. تنصهر.

أبحث عن امرأة تفجر طاقات الرجل إذا أحبها وأحبته ولا تفجر فيه ديناميت الغيرة وتقتله برصاص الشك والريبة، فالرجل يخون الحمقاء ويرتمى على شاطئ امرأة نسمة وليست زوبعة.

أبحث عن امرأة لا تطالبنى أن أكون شاعرا ألقى على مسامعها فى الصباح والمساء

قصيدة نزارية، ولا تطالبنى أن أكون طابور مداحين فى كورس، امرأة أتعطر أمامها بعطر المسئولية والفروسية، وكلاهما ليستا عطورا فرنسية وإنما فى سلوك الرجل ومواقفه تفوح منه تلك الرائحة الذكية.

أبحث عن امرأة لا ترى الدنيا بأذنيها، فالبث الدائم بكلام حلو، مهمة دون جوان احترف التسلل إلى قلوب النساء، والرجل يريد امرأة ينفذ إلى عقلها ويقيم مع هذا العقل علاقة حميمة بنفس طويل.

أبحث عن امرأة جمالها الآسر يكمن فى قناعتها بما لديها ولا تنظر للأخريات ولا تتجاوز أحلامها.. قدراتها ..امرأة.. رفيقة طريق وشريكة مشوار.. امرأة هى رئيس مجلس إدارة شركة قابضة لحياتى، باختيارى.

أبحث عن امرأة تتكحل بالحروف وتتزين بكتاب وتتعطر بالوعى، فلا تبدو مسطحة يفر العمر من بين أصابعها دون وقفة تأمل وتسقط فى اختبارات الحياة بامتياز.. امرأة تفهم أن الإنسان القارئ لا يهزم.

أبحث عن امرأة نصف وزنها رقة والنصف الآخر كبرياء، امرأة ليست لوح خشب وتعرف متى تتدلل، امرأة تصل رقتها إلى مراكز المخ فتشعل الرغبة للحياة وتدمر فيروسات الإحباط، جمالها فى ضعفها الإنسانى وهو قوة فولاذية.

أبحث عن امرأة لها عنوان ومقر إقامة وبيت يستدل عليه، ولها بطاقة رقم قومى وجواز سفر يحمل أختام سفرها فى جزر الرجل، والتأشيرة صالحة للعمر كله ولا تمر على ضباط الجوازات فى المطارات.

أبحث عن امرأة تقود قاطرة حياتها مع الرجل مثلما تقود سيارتها، تدوس فراملها فى لحظة معينة وتعبى بنزين قبل أن ينفد وتكشف على إطارات السيارة فلا تفاجئها وترى فى المرآة المثبتة أمامها وما حولها، وتمضى الرحلة فى أمان.

أبحث عن امرأة تفهم أن دخول قلب الرجل بتأشيرة من عقله، حين تغرق فى بحر اهتماماته لا فى بحر العسل، وتفطن أن هذا (الاهتمام) هو حب أبقى من كلمات منمقة وشعور مسبسب وأناقة مفرطة، تهتم بما يهتم به.

أبحث عن امرأة تحب الرجل بعيوبه، فلا مكان للسوبرمان إلا فى الأفلام الأمريكية أو شرايط البلاى ستيشن، وعيوب رجل هى بعض من سماته، ومخلفات تربية، وبقايا تجارب معاشة وربما صفات أبراج كما تذهب ابنتى حنان فى التفسير الفلكى.. ولا نطالب المرأة أن تعيد تشكيل هذا التكوين، فلا هى هدى شعراوى ولا هى أمينة السعيد.

أبحث عن امرأة.. ذكاء قلبها يفوق مكر عقلها ودهائه ذكاء قلبي يحس بالرجفة والارتعاشة، وتدرك أن صوت الرجل هو فهرس أيامه ولياليه، وتقرأ لغة أصابعه أبحث عن امرأة.. تكمل عبارة بدأتها، لأنها على موجة فهم واحدة، وتتبنى نظرية (أومن بها)، وتبدو قطة بين ذراعى رجل سمحت له طوعا باحتكار قلبها، وتصبح نمرة متوثبة فى المجتمع، امرأة ليس من الضرورى أن تكون عيناها سبحان المعبود ولكن فطنتها لا يخطئها إنسان، لا يطارد خيط دخان.

أبحث عن امرأة لا تتذبذب عواطفها كالبورصة، امرأة لا يعانى قلبها من (هشاشة عظام) فحبها لرجل حبيس ضلوعها، وهى لا تشكو من (ضعف المناعة) ولا تعانى من (ثقب فى القلب) ولا تشكو من (قصر نظر).

أبحث عن امرأة، تعرف متى تقترب ومتى تبتعد ومتى توجد مسافة أشواق، وتقرأ الرجل بإحساسها وتصغى للبوح.. ويصدق معها إن (الصداقة هى بكاء بعيون الآخرين)، امرأة ليست ثرثارة ولا صامتة كعمود رخام ولا ترسم ابتسامة مضيفة طيران ولا مبرمجة كناشطات الكثافة السكانية.

أبحث عن امرأة تأخذنى من يدى إلى شرفة المساء نطل منها على الدنيا ونعتصم بحبل الحب، امرأة تستدعى مراهقة الأيام، يتسكع معها الرجل فى وادى الذكريات ويعترف لها بهزائمه، قبل انتصاراته.

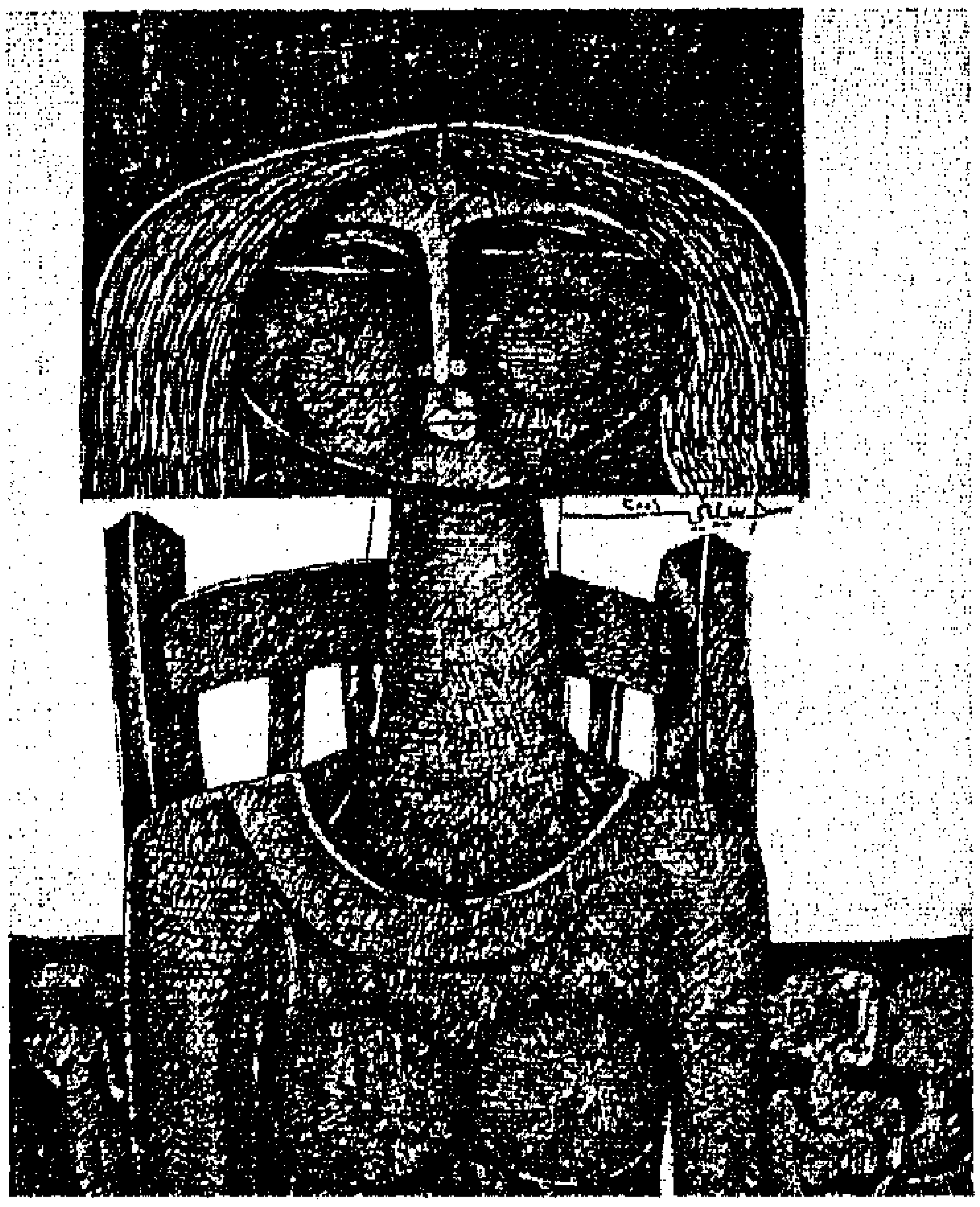

الكلمنجى!

ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذا العنوان وقلت ربما لا يتفق مع رصانة الأهرام، وقلت: إذا كان من ناحية العامية فقد قال طه حسين يوما (لست أخاف على الفصحى إلا من عامية بيرم التونسى)، وهذه الكلمات واردة فى قاموس العامية، ولكن الأهم من ذلك أن الكلمنجى والحلنجى، نمطان لهما وجود فى المجتمع ويشار لهما بالشطارة والمهارة لأنهما يعرفان من أين تؤكل الكتف. وبالإبحار قليلا فى هذين النمطين، سنكتشف أن المفكر د. حامد عمار يقول في فصل من كتابه عن الشخصية المصرية إن هذين النمطين يعبران عن الفهلوة وربما كانت الفهلوة منهج حياة لأصحاب المهن الضئيلة حيث إن الرزق يحب الخفية) والمقصود بها التلاعب بالكلام وبعض الأدعية. وكان الأديب الراحل يحيى حقى يقول لى فى حوار صحفى إن بائع البسبوسة حين يدق على الصينية دقات متلاحقة مقترنة بكلام مسجوع، إنما يستحث القدر على الرزق! وقد اصطلح الناس على وصف الإنسان الذى يتبع هواه بعناد بأنه مزاجنجى واعتادوا وصف الرجل الذى لا يعرف قيمة القرش بأنه فلسنجى أى أنه مفلس دائما.

إن البيئة الشعبية زرعت فى الحياة معانى عميقة رغم بدائية اللغة، وربما كان الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى الراحل يمجد قيمة هذه المعانى ويقول لنا فى محاضراته بكلية الآداب (لقد اغترف بيرم التونسى) من هذه الثروة(!) الكثير.

وقد لوحظ فى سنوات ما بعد ثورة يوليو إلى الآن مرورا بثورة التصحيح أن نمطى الكلمنجي والحلنجى قد سادا فى الحياة المصرية بما يتفق مع تفكير سيد الخيال وهو يصف أسباب النكسة بأنها (ثمرة للكلام المرسل دون ضوابط) ونتيجة (العنترية من نسج الخيال). وقد جاء ثوار يوليو أتقياء القلب ولكن الناس الموالين والمنافقين التفوا حولهم وأمطروهم بالثناء بغية ركوب الموجة وإظهار مشاعر الولاء، وقد صدق الثوار الكلام بحيث أصبح هناك اصطلاح شعبى يقول (فنجرى بق) ووصل الأمر إلى حد الخوف ممن أطلقوا على أنفسهم (مندوب الثورة) أو (رجل القيادة)، وللحق والإنصاف فإن من بين أخطاء ثورة يوليو هو تقسيم الناس إلى صنفين أحدهما موال للثورة والآخر معارض لها.

ولم تكن الكفاءة شرطا أساسيا لاستعانة الثورة برجال المجتمع المدنى، إنما كان (الولاء) الشرط الأساسى، هنا فى هذه اللحظة، انسحب من الميدان أصحاب الكفاءات والمهارات الذهنية وتبقى نمطان جديدان هما الكلمنجي والحلنجى، وهما نمطان يملكان كفاءة الإقناع بالصوت العالى والإلحاح بدون كلل أو ملل ويملكان مهارة الاقتراب والابتعاد حسب المواصفات ويملكان مفردات التعامل.. ولأن النفس البشرية ضعيفة أمام الثناء وحلو الكلام فقد وصل الكلمنجي إلى غايته وحقق الحلنجى أهدافه، ولقد استشرى هذان النمطان فى مجتمعنا وحققا نجاحا ملموسا، والكلمنجى والحلنجى ليسا حكرا على الرجال فقط، هناك نوعية من النساء يملكن خاصة الكلام المدهون زبدة وعسل وهو مدمر لمناعة بعض الرجال مهما تحصنوا بالوقار والسلطة.

هناك امرأة حلنجية لها قوة ثلاثية فعالة، وهذا النوع يتمتع بجمال باهر أخاذ وينتشر وجوده حول رجال الأعمال (المليانين) وبعض رجال (السلطة) ولهن شباك من نوع خاص، يقتربن جدا عند الحدود غير الآمنة ثم يبتعدن فرا وكرا، ثم يعاودن الاقتراب بشروطهن وينجحن فى هذه المهام الصعبة.

والحلنجية تدرس فريستها جيدا ثم تهاجمها برفق ثم بالمناورة وأخيرا بالإنقضاض! الحلنجية جعلت النوع الآخر من النساء خائب، وهذا النوع الخائب من النساء، كرامته (تنقح عليها)! فى حياتنا العامة، داخل جهاز حكومى أو داخل أروقة الجامعة أو معامل بحثية أو شركة خاصة أو بلاتوه تصوير، هناك صنفان من الناس، نوع شاطر بكفاءته ومهاراته الشخصية ولكنه لا يجيد تسويق نفسه، وصنف آخر يفتقد الشطارة والكفاءة ولكن مهاراته الشخصية تنحصر فى كونه كلمنجيا أو حلنجيا. كلمنجى بمعنى أنه يجيد الكلام، كل صنوف الكلام، الهايف، وحلنجى بمعنى أنه يلعب على أوتار الضعف عند

رئيسه، فالحلنجى يزين لرئيسه أنه الأوحد القادر على تحويل التراب إلى فلوس، ونحن بشر الكلام يؤثر فينا وربما نتهم الكفاءات الصامتة بكبرياء أنهم يتآمرون علينا، حتى باتت هناك نظرية تقول مشى شغلك أى نافق وداهن وراوغ أى كن (كلمنجى) أو (حلنجى) أيهما أقرب إلى طبيعتك.

بعض الناس لا يجيدون الكلام والمداهنة والمراوغة، فيظلون محلك سر، آخرون منهم الكلمنجى أو الحلنجى يحققون أهدافا معنوية ويترقون وأهدافا مادية، فهم فى كلتا الحالتين.. رابحون.

الكلمنجى أو الحلنجى، حالتان لهما مكونات نفسية وبشرية وربما بدنية، وليس باستطاعة أى إنسان أن يكون ذلك النمط، وهذا الإنسان الأمين الكفء المستقيم الرأى ينطبق عليه وصف كامل الشناوى (بعضى يأكل بعضى)، ولكن لماذا طفا على سطح حياتنا هذان النموذجان؟ لأسباب منها غياب الموضوعية ومنها التحول بسبب الثروات المفاجئة، ومنها بقايا الحكم الشمولى وتفضيل الولاء على الكفاءة، ومنها افتقاد المعايير فى شتى وجوه الحياة، ومنها ضعف النفوس أمام النفاق، ومنها تطلعات الطبقة الوسطى للجاه والسلطة، هناك فى المجتمع بشر تسكنه الكرامة والكبرياء ولا يحملون نفسية الخدم وهؤلاء ينبذون الوصول للأهداف بالمكلمة والحليطة.

إن الكلمنجى والحلنجى، إفراز لمجتمع فقد بوصلة الطموح الطبيعى باعتباره أحد أهم حوافز الحياة، وكلما شاع هذان النمطان الدخيلان، تدنت نوعية الحياة وأصبح لزاما علينا أن نعلم أولادنا وأحفادنا علم الفهلوة.

صابر صبور الأخرس..!

ليس صابر صبور الأخرس طبيبا يعيد للعذارى عذريتهن، صكا بالشمع الأحمر (نمط سائد فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس تاجر دقيق يبيع الدقيق المدعم بالسعر الذي يريد من وراء مصيلحي بحيل وأساليب «نمط سائد في المجتمع». وليس صابر صبور الأخرس موظفا فى الإدارة الهندسية للحى وظهرت عليه مظاهر الثراء لأنه يسهل رخص البناء ولا يستعجل الإزالة (نمط سائد فى المجتمع).

وليس صابر صبور الأخرس من أباطرة مصانع تحت السلم فى الدواء المعلب بعناية(!) وقطع الغيار الفتاكة المغلفة بأناقة (نمط سائد فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس صاحب توك توك يتحدى المرور ويسخر من تصريحات المحافظين وينقل الركاب من قلب المدن (نمط فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس فتوجى فضائيات يعالج المرضى بسم الثعابين ويفتى للعاجزين جنسيا بجرعات من ماء السمك (نمط سائد على الشاشات). وليس صابر صبور الأخرس رجلا عزم النية مع زوجته على الانضمام لشلة تبادل الزوجات(!) (نمط ظهر أخيرا فى المجتمع).

وليس صابر صبور الأخرس طبيبا أخطأ فى ختان بنت بنوت فتوفيت بين يديه ولم تقدمه النقابة للتحقيق، بينما عاقبت السعودية طبيبا مصريا بالسجن والجلد (نمط فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس عضوا فى الوطنى ومارس عضوية كل الأزمنة

السياسية بدءا من هيئة التحرير ومرورا بالاتحاد الاشتراكي وهو قادر على (تخليص أي مهام) ببطاقة العضوية (نمط شائع فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس بلطجيا يؤجر للاعتداء والقتل والسحق والانتخابات أحيانا (نمط موجود فى المجتمع).

وليس صابر صبور الأخرس مدرسا ينظم له عميد شرطة سابق حصص الدروس الخصوصية التى يدفع عنها للدولة ضرائب بانتظام (نمط سائد فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس أحد حراس جنينة الحيوانات الذى يقتطع جزءا لنفسه من اللحوم المقدمة للأسود والنمور وربما تطاله مخالب أسد أو نمر هائج (نمط واقعى فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس عضو مجلس شعب لم يفتح فمه مرة واحدة ولا يعى ما يقال فى القاعة، ولكنه من رافعى اليد بالموافقة إذا طلب رأيه (نمط سائد في المجتمع)، وليس صابر صبور الأخرس مضاربا فى البورصة، وخسر بعد الإعصار المالى ثروته وجار بيع شقته المتناثرة (نمط موجود فى المجتمع). وليس صابر صبور الأخرس ضالعا فى مافيا الاعتداء على أراضى الدولة بمعونة آخرين ومشطته جهات الأمن هو والآخرين (نمط سائد فى المجتمع). الحقيقة أن صابر صبور الأخرس، مواطن مصرى، مجرد رقم فى التعداد يتحلى بالصبر ويواجه أزماته بالصبر ومن أسرة متواضعة اشتهرت بصوتها الأقرب إلى الهمس وصارت تحمل لقب الأخرس.

صابر صبور الأخرس، اسمه ـ كمواطن مصرى يشكل أغلبية المصريين الكاسحة ـ يحكى حاله.

صابر صبور الأخرس يشاهد هو وأسرته التليفزيون وينبهرون بعمارات شاهقة وفيلل أسطورية وملاعب جولف ويهمس لنفسه (الكلام ده فى مصر؟). صابر الأخرس وأسرته المكونة من زوجته و٥ عيال يقررون الاشتراك فى مسابقات التليفزيون لأنها بالألوف ويرسلون على الموبايلات مئات الرسائل ولا يجنون شيئا، ويهمس صابر لنفسه (أمال مين اللى بيكسب؟). صابر الأخرس ذهب ليعالج زوجته من الروماتيزم واختارت أن تكون بين أهلها فى الصعيد، ولما قطع لها تذكرة ودخلت المستشفى الأنيق الجديد اللى اتكلف اليورو، خرجت بعلاج صورى لا يفيد، ويهمس صابر لنفسه (هوه الرخام فى المستشفيات الميرى بيعالج العيانين؟). والد صابر السيد صبور الأخرس استنجد به ليرافقه فى مشوار حصوله على المعاش، ويهمس صابر لنفسه (مش كانوا قالوا إن المعاشات حتوصل لأصحابها فى بيوتهم، واللا هوه كلام؟).

صابر صبور الأخرس يقرأ هو وزجته كلاما فى الصحف الرسمية فيصدقه، وتقع عيناه

على صحيفة مستقلة فيقرأ عكس الكلام، ويسمع من جاره فى الشغل ما تقوله صحيفة معارضة، فيصاب بالحول الذهنى ويهمس لنفسه (أصدق مين؟). صابر صبور الأخرس اصطحب زوجته وابنه الطفل للمدرسة ولم يجد مكانا لضناه، فقد قيل له صراحة (واسطتك مين؟) ويهمس صابر لنفسه (هو لما تكون واسطتى ربنا يا كفره، ماتتقبلش؟).

رأى صابر الأخرس.. الرئيس فى التليفزيون يتكلم، فهمس لنفسه (قلبك معانا يا ريس، مفيش غيرك فى البلد دى حاسس بينا).

رأى صابر الأخرس رئيس الوزراء يتكلم (احنا أكتر حكومة اهتمت بالغلابا) ويهمس صابر لنفسه (بنسمع يا دكتور لكن ما بنشفش.. يكونش عمينا؟).

رأى صابر الأخرس وزير التربية والتعليم يقول للمذيع (أنا تحت أمر الآباء) فقال صابر وهو يخاطب الشاشة (عايز كارت منك علشان الواد ضياء يدخل المدرسة)!.

رأى صابر الأخرس وزير النقل يشرح أسباب سقوط قطاراته، فهمس لنفسه (مش كان بيقولوا هايجددوا السكة الحديد وحتيجى قطارات جديدة واللا هوه مسكنات لأمثالنا نتنكد ونحط همنا فى عيالنا؟).

أغلق صابر صبور الأخرس التليفزيون وقال لنفسه وهو يستعد للنوم: (أنا صحيح أخرس ابن أخرس، بس فى يوم.. حنطق)!!

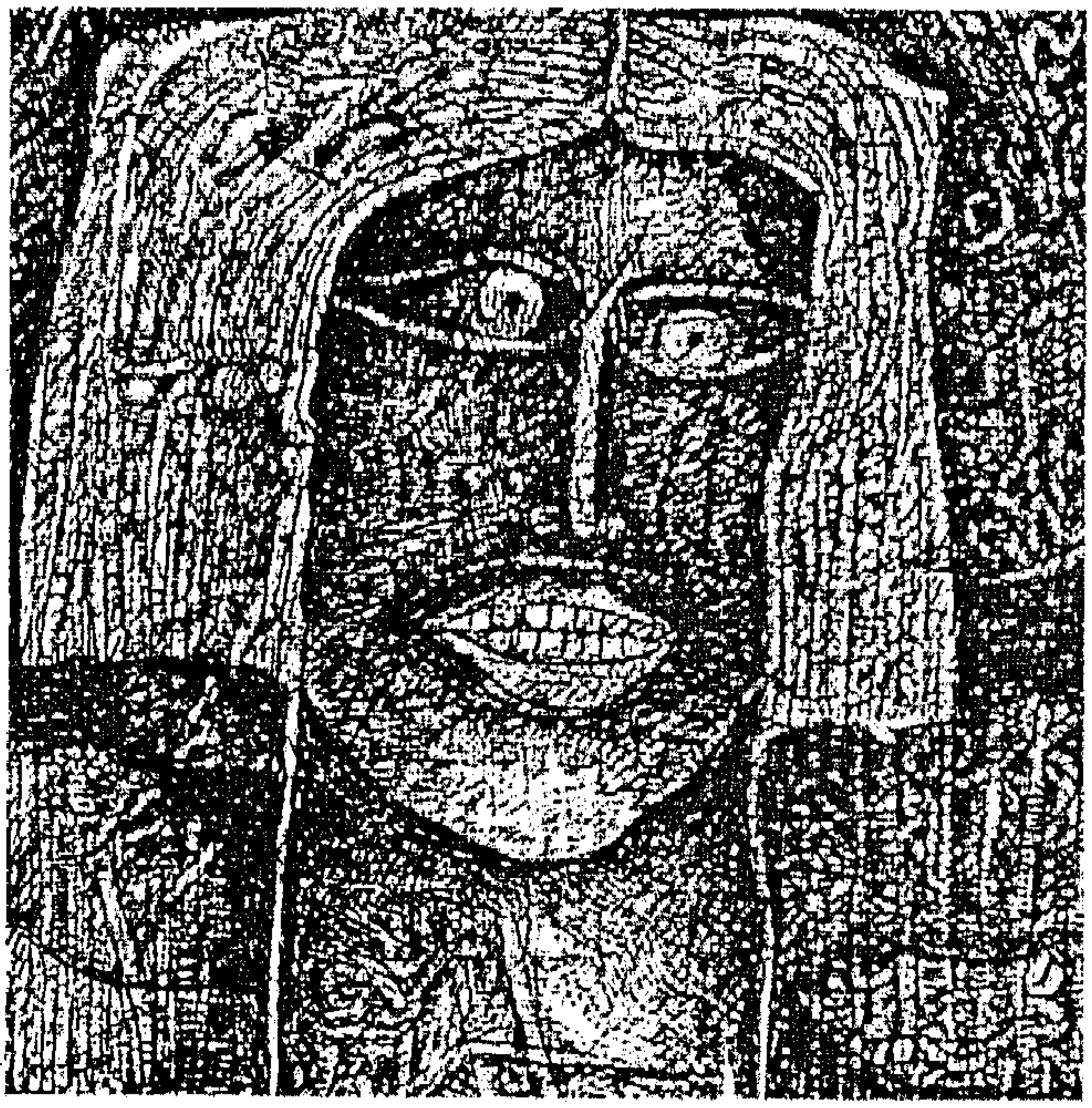

أنا لم أعتزل الغرام!

أنا لم أعتزل الغرام بزهره، بنيل بلادى، بقرص الشمس عند الغروب، بترتيل فيروز، بقصائد صلاح عبد الصبور، بعلم بلادى الأخضر ذى النجوم، بشقشقة الفجر، ببطولات صامتة لنسوة يقمن من الفجرية ويركبن عربات يتكوم فيها الخضار ليبعن المحصول فى البندر.

أنا لن أعتزل الغرام وسأظل طليقا أحلق حتى لو ضغطتنى هموم البلد.

كنت أبقى على شىء من الدهشة يحمى علاقتنا من الطبيعة الملالة والصدود، كسرت الملل وغيرت لون ستائرى الذى لم يكن يعجبك، غيرتها بلوك جلدك، أحن لعصافير الدهشة فى صدرك.

شكوكك المدببة تحاصرنى وكأنها صخور المقطم تنقض على براءتى.

أنا وأنت أعضاء فى حزب واحد وشروط العضوية أن نوقع عليها بقلوبنا، روضنا - بالأيام - المعارضة وسددنا ثغرات الضعف حتى لا ينفذ أحد من الثقوب، جبهة حبنا الداخلية قوية.

المعادلة - سيدتى - تبدأ باللهفة العارمة لرؤية المحبوب، ثم يمضى النهر فى الجريان، فتهدأ اللهفة وتتحول إلى قلق وخوف ع المحبوب، ولكنها أبدا لا تموت تظل أوراقها خضراء فوق شجرة المحبة.

حين تلاقت عينانا، حدثت شرارة هى وأجزم أنها الماس الكهربائى الذى أشعل حرائق العمر فى قلبينا.

يوم جلسنا نحلم، بنينا عمارة من الأحلام تكاد تطول السماء، ومر من أمامنا رئيس الحى وفهم من ثرثرة المحبين أنها مخالفة فى أطوالها، لكنه لم يقرر إزالتها، فقد خجل أن يزيل طابقا واحدا مبنيا بحديد الحب وأسمنت الإخلاص.

غابات صدرى هى الملاذ من الاكتئاب إذا داهمك، غابات صدرى للاحتواء لا للعرض، غابات صدرى كثيفة لأنها منسوجة من خيوط حنان.

رغدة هى الحياة حين تغفرين نزوة رجل فنان توقف ليتزود بالوقود، حين تبررين خطأ حبيب وحين تقلدين الشعوب فى النسيان.

فى التعديل الوزارى المرتقب، اقترحنا فى لحظة حب (وزارة للحب) تحمى العشاق من الفشل، تساعد على اخضرار العلاقات وانطلاقها فى برارى المحبة، وزارة تقنن الغضب وتزرع ثقافة العتاب.

يوم تعرض أخيك الطفل لعنف مدرس، حملتنى رياح الغضب للمدرسة واستجمعت المنطق الهادئ لأفتك به، وحين سألته عن فعلته بكى وعلمت أنه ينتظر مولودا منذ ١٠ سنوات ولم يأت.. وقررت ألا أعاقب ولو بكلمة أرضا جدباء!

أنا وأنت نخاف أن تتدحرج أمامنا كرة لهب، إنها ـ يا أغلى البشر ـ تنشر الحريق وتندلع النار بلا هوادة، وكذلك ـ بالمناسبة ـ كرة لهب الغيرة ليس بإمكان أى جهاز إطفاء محاصرة نيرانها، هل تعلمين؟

كتبت فى مفكرتى اليوم: الناس مش مستحملة بعضها ليه؟ وكتبت: بعض الناس تنتقم من بعضها بدون مبرر وهذا يثير العجب. وبعد تمهل قصير، كتبت فى مفكرتى إنها أخلاق الزحام.

لم أصادف أغنية شبابية تحرك دمعتى، ولم أصادف فيلما يلامس أوتار قلبى، تسمرت أمام (قنوات زمان) فى الطرب والسينما.

أرى فى إليزابيث تايلور برغم العمر عينيها وأرى فى كلورديا كاردينالى بشرتها وأرى فى أيفوك ايميه طلتها وأرى فى جوليا روبرتس ابتسامتها وأرى فى الأميرة ديانا رقتها، أنا ـ مثل ماجدة الرومى ـ لم أعتزل الغرام.

لم يكن الود أبدا بالأجر، عبارة لم يقلها أحد لسوزان تميم!

ما بيننا، ليس سوى سحابة صيف وانقشعت، فلا تقيمى طويلا فى مدينة الغضب

وتجعليها سحابة سوداء، تظلل سماءنا دوما.

نعم، يجتر الإنسان أحيانا بعضا من جراب الألم الكامن فى اللاشعور الذى يستيقظ بعد إغفاءة ويبدأ بالبوح قائلا: ذات جرح..!

(كل نكسة) تمر بها المرأة حين تكون (شمولية) فى عواطفها، لا كلمة نقد واحدة توجه لها، وحين تفتح رئتيها لهؤلاء (المعارضة) تعرف حجمها فى قلب الرجل!

ما حالة الغرام إلا مسرات تثقب ظلمة القلوب وتضيئها.

الإعجاب: قصر فوق الرمال، والحب: كوخ من جريد المحبة وأخشاب الدفء فوق أرض فهم مشترك.

أنا لم أعتزل الغرام، ما زلت أحيا فى محارة فيروز، ما زلت أعيش على ضفاف حنجرة عبد الحليم حافظ، ما زالت عيناى تدمعان ولم تهاجر الدهشة من قلبى.

آخر النهار وأنت تخلو لنفسك!

آخر النهار، عندما تتخلى عن أرديتك وتخلع أقنعتك وتواجه فى مرآة الذات وجهك الحقيقى وتخلو إلى نفسك، ويمر أمامك شريط يومك بحلوه ومره، تراجع كلمة انطلقت كرصاصة من فمك أو دمعة غافلتك فحجبتها عن العيون.

آخر النهار، عندما تكون أنت وذاتك بقوتك وضعفك.. بصدقك وكذبك.. بطمعك وطموحك، بأحلامك ونزواتك، بخوفك وقلقك.. تصبح الأكثر قربا من الصدق وربما الأكثر قربا من الزهد، لحظتها تشعر أن كل شىء هو قبض الريح وأن بقايا أصداء صخب النهار ما هى إلا بقايا ألعاب السيرك، سيرك الحياة بمختلف نمره وحيواناته ومهرجيه، تكتشف أشياء كثيرة ربما ضاعت فى الزحام.

تكتشف أن لدينا القدرة على أن نفهم ونعى ولكننا نؤثر ونفضل أن نبتلع.

تكتشف أن أفضل الحلول هى أن تتبع إحساسك وتمضى، وتدع الآخرين يقولون ما يقولون فهم لا يكفون، تكتشف أنه يوم تخرج من بين شفتيك عبارة لست أحلم بشىء فأنت تكتب نعيك بنفسك، تكتشف أن كارثة الكوارث ليست إعلانك الإفلاس بل فقدانك كرامتك وتكتشف أنه لا يذل أعناق الرجال إلا شهوة السلطة وشهوة المال واشتهاء امرأة، تكتشف أن لحظة الحماس لشىء - أى شىء - يزيد المناعة لديك وأن هبوط أسهم حماسك فى بورصة الحياة معناه الركود والموت، وتكتشف أن الاعتدال مذهب العقلاء فى الدنيا حتى لو نهلت من مسرات الحياة.

آخر النهار، عندما يعم الكون ذلك السكون، تشف أن الاستغناء قوة.. نعم، ترى بوضوح أن اللهاث وراء شيء هو العذاب بعينه وربما ذقت طعم الذل والمرارة، وحين (تستغنى) فأنت حر.. وقوى.

تكتشف أيضا أن الرضا عملة صعبة فى سوق الحياة، لا أحد راض، فالفيلسوف يريد أن يكون ملكا والملك يريد أن يكون فيلسوفا، وتبحث عن القناعة تلك الخلطة السحرية للسعادة، فلا تجدها إلا عند العطارين وقارئات البخت، وتمشى بلادا لتحصى عدد الراضين فتكتشف ضآلة الأرقام، إذ أن الأثرياء يزدادون ثراء، والفقراء يزدادون فقرا وانسحاقا، والرضوان - فى أغلب الأحيان - فعن إمكانات محدودة وربما أصابتهم فيروسات اليأس والقنوط.

آخر النهار، عندمات تدلف إلى سريرك وقبل أن تسحب الغطاء، سوف تتمتم بالشكر للخالق الذى منحك الصحة وأعطاك العافية ما دام التأمين الصحى على العباد ما زال أملا، وفى الواقع ما زال وهما، سوف تتذكر عبارة توفيق الحكيم كل صباح أقوم من نومى وأقف على رجلى وأدخل الحمام أقضى حاجتى ثم أجلس على مقعدى أقرأ صحف الصباح وأرشف فنجان قهوتى، فهذا ميلاد جديد لى.

ستكتشف أن الدنيا صفقات، صفقات فى السر وصفقات فى العلانية، وتظل أهم صفقة مع الستر، ستر صحى وستر اجتماعى وستر مادى وما أصعبها من صفقة، إنك تعقدها مع رب هذا الكون عندما تكون حاجتك للصفقات الضارية صفرا ولن تكون، إن فيروسا اسمه الطمع، هاجمنا واستقر فى الأفئدة، فالغنى يريد مزيدا، والمشهور يزيد أكثر شهرة، والجالس على كرسى سلطة يريد فوتيل وأحيانا دكة، سوف تشعر أن هذه الأصوات العالية والمتشنجة التى سمعتها عبر ساعات النهار، هى أصوات الحقد والحسد والجشع والجهل والأنانية، فإذا دق المرض على الأبواب.

آخر النهار وأنت مسترخ أمام شاشة تليفزيونك سيثير مشهد ما أشجانك وتتذكر صداقات وئدت فجر ميلادها، وصداقات نسجتها المصالح وذهبت بأفول المصالح، وصداقات باسم الجغرافيا وصداقات لها تاريخ ومعمرة لا تصل إليها صخور الدويقة المدببة، ستكتشف أنها قليلة الصداقات المعمرة، فهى صداقات لها أصول لا تباع كأصول الدولة التى - بتفكير رومانسى - سوف توزع على الجماهير الغفيرة فى صيغة أسهم، ستكتشف أنها صداقة زائلة لو صادقت كرسى سلطة، ستكتشف أن صداقات كبيرة سقطت فى فخ الأنانية وانشطرت نصفين وراح كل فى طريق، ستكتشف أن للحياة ضغوطها وإرهاصاتها وأنه من الصعب أن نرسم للآخرين سكة جديدة يعبرها قطار

حياتهم متى شاءوا، فالدنيا منسوجة من صدف وفرص ونحن نسكن قارة النفس.

آخر النهار، قبل أن تذهب فى النوم العميق - وتلك نعمة - ستكتشف أن بعض هزائمك انتصار، لأنها أضافت إليك ما كنت تجهله، وأن بعض انتصاراتك هزائم لأنك دفعت فيها ثمنا غاليا من اهتمامك وأعصابك وربما سقطت مريضا أو بكيت على ذراعى الحزن، ستكتشف أن بشرا دخل من بوابة حياتك وبرغم خروجه لكنه يسكن فى فندق ذاكرتك ويقيم، ستكتشف أن من صور لك الدنيا كقصيدة شعر قد كذب عليك، فصعوبات الحياة هى ملح الدنيا وبدون أن نقفز فوق هذه الصعوبات نفقد البصيرة ويصيبنا الكساح. إن ترتيب الأشياء بعد الفوضى يمنحك سعادة، إن الحب هو انقلاب فى كيمياء المخ يمنحك مسرات.. مسرات خارج إطار أى خصخصة لا تباع أو تشترى.

آخر النهار، عندما تخلو لنفسك، تكتشف أن الإصلاح فى المجتمع والتطوير والتحديث وإزالة غبار التخلف.. بيدك، نعم، أنت أصغر وحدة فى المجتمع، ولكنك صانع قرار وصانع حراك ثورى، وصانع تغيير، أنت لست صفرا على الشمال مهما أرادوا توطينك هكذا، فالشعوب تصنع مصيرها، سوف تنام الآن، وليكن نوما بعيون مفتوحة، إن مصر تطلب وتلح وترجو ألا تنام فى العسل أكثر من ذلك!

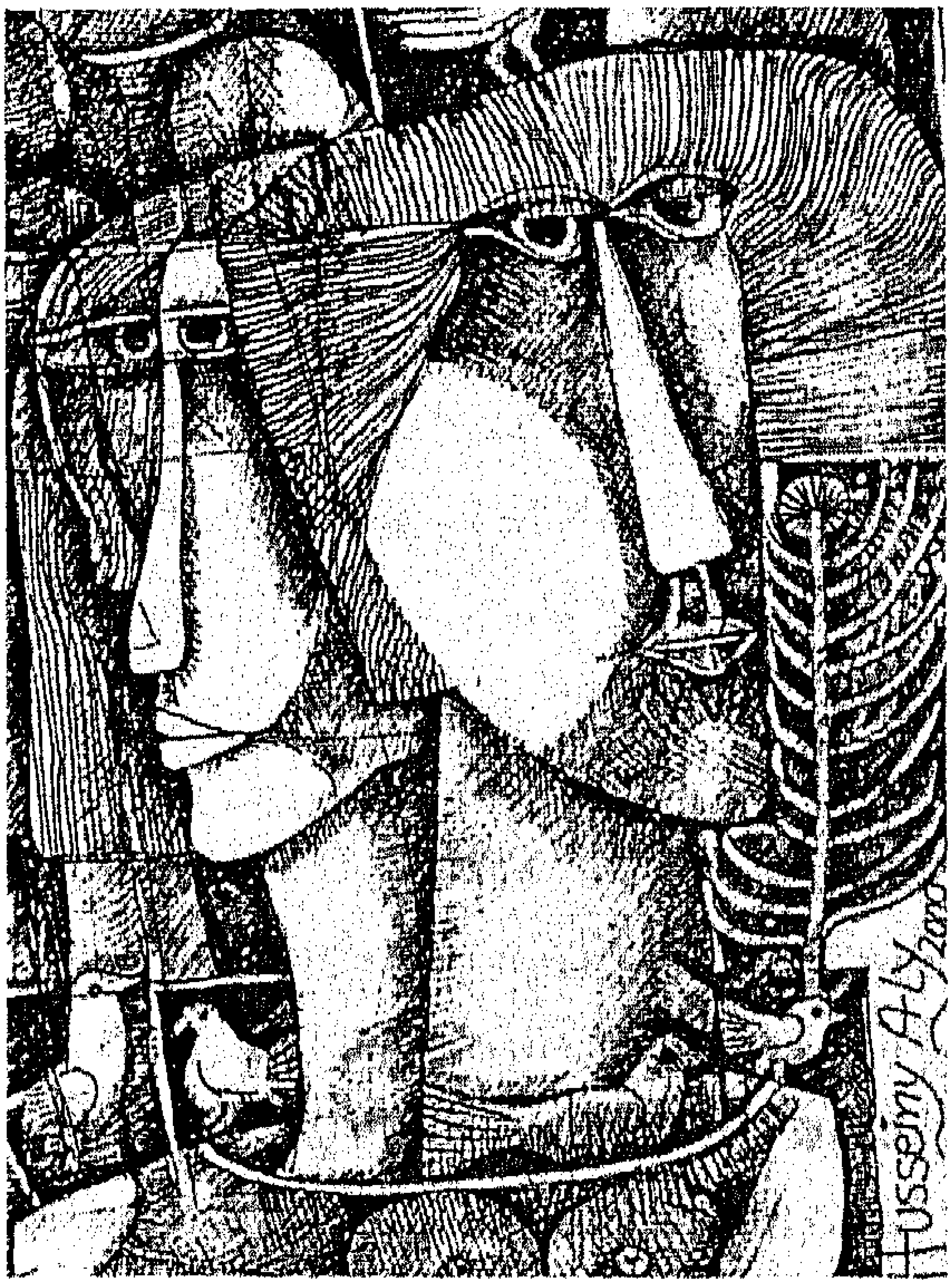

اسألوا ولا تكفوا عن السؤال!

السؤال فعل علنى غير فاضح فى طريق الرأى العام! السؤال تحرش محمود بالحقيقة، أينما كانت مخبوءة! السؤال عندى طرقات خفيفة على باب المجهول، أحيانا يصبح السؤال استئذانا متحضراً، لدينا المعرفة، كثيرا ما يكون السؤال (معلومة) ولا تهم الإجابة عنه!

وقد أحببت السؤال منذ كنت طفلا حتى أدمنته واحترفته! وطوال مشوار عمرى وأنا أشعر بأن أسئلتى هى محاولة لهز الواقع الراكد وإخراجه من خدر الجمود، وكم من مرة (غازلت) الحقيقة بالسؤال فلم تستجب وعدت مهزوما.. مكسور الوجدان، السؤال دليل يقظة، فالذى لا يسأل، ماتت لديه حاسة الرغبة فى المعرفة، والشعوب التى تسأل، تخطو أسرع نحو التقدم، والشعوب التى لا تسأل، تحولت إلى أمة من النعاج، نعم، فالسؤال يثقب الغموض وربما يفتح طاقة أمل، الراعى دائم السؤال عن الرعية، ومن حق الرعية أن تسأل الراعى ويصله السؤال دون أن يتعثر فى الطرق الوعرة بين الراعى والرعية، الفيلسوف بالسؤال، يدق على أبواب المعرفة، وعالم النفس - بالسؤال - يبحر فى قارة النفس البشرية، وأحمد زويل - بالسؤال - فى معامل العلم، وصل إلى الفيمتوثانية، وابن خلدون - فى التاريخ القديم - بالسؤال، عرف بواطن علم الاجتماع، حتى رجل الشارع البسيط، يسأل ليعرف، فقد ترضى الإجابة فضوله وقد تريحه، وإذا سأل ولم يجب عليه أحد، دخل سرداب الشك والتخمين. وقد يعطى أذنه للإشاعة يغذى فضوله بها وربما

يضيف إليها من عندياته ويتطوع بنشرها فى مقهى! الأنظمة الرصينة لا تترك سؤالا دون إجابة تحسبا لخفافيش الإشاعات، الأنظمة غير الرصينة تستخف بالسؤال وتترك مواطنها فريسة الإشاعات والتكهنات.

نعم فى بعض الأحيان تكون الإجابة مرة، وذلك أفضل فى لغة مخاطبة الرأى العام عند النظام السياسى الرشيد، فالمعلومة مهما تكن مرة، هى أشبه بدواء مر الطعم ولكنه مفيد، فالطبيب الأمريكى يصارح مريض (الخبيث) بأنه فى المرحلة الثالثة والأمل ضعيف إلا إرادة الله، والطبيب المصرى يقول لمريضه: ميت فل وعشرة، إنه يكذب عليه ويعرف أن الكذب يريحه والمريض يفطن أن طبيبه يكذب عليه! حين يكذب طبيب على مريضه، فهذا موقف مهنى بلا ضمير، ولكن النظام الراشد يجيب عن كل سؤال مهما كان السؤال جانحا أو شاردا، إن أسئلة الناس هى حياتهم اليومية التى هى صميم السياسة، أما أن تعيش الناس حالة من الغموض أو للدقة حالة من ترقب المفاجآت فالسياسة ليست علم الحواة! والاتحاد السوفيتى السابق سقط يوم كان ألغازا وأحاجى، حين سأل جورباتشوف الأسئلة التى كانت على ألسنة مواطنى هذه الدولة قبل أن تتفكك، عند الشعوب الناضجة، المعلومة قبل الخبز أحيانا، وعند الشعوب التى تفكر بمعدتها، الخبز قبل كل شىء دائما، وفى هذه الحالة، لا تهتم الأنظمة بالمعلومة، فالمعلومات غذاء العقول، وليست إطعام الجهاز الهضمى!

أكاد أتصور أننا أفقدنا الناس الاهتمام بما هو خارج نطاق اللقمة، فالصفوة ـ فقط ـ تحتكر المعلومة إن سمح بها النظام، ولكن غالبية الناس مهمومة بتفاصيل حياتها وأولادها وشىءون معيشتها، وبالطبع فإن هذا الاهتمام الإنسانى لم يدع مجالا للاهتمام بالعام، وانحصر الناس فى الخاص، لذلك ليس غريبا أن يذهب ٦ ملايين نسمة للانتخابات، إنه رقم لم نتوقف عنده بتأمل. منذ فترة وجيزة، حين شحبت المعلومات غرق الناس فى الكورة والحوادث وجاءت الفضائيات وأشبعت هذا الاهتمام، و صحيح أن الناس فى العالم الأول يتابعون الكرة باهتمام، بل يراهنون على المباريات ويهتمون بالحوادث والجرائم ولكن الخاص عندهم لا يبتلع العام، وتظل (أسئلتهم) مؤرقة لأنها تتناول الوجود والكيان. فى ألمانيا تنصب أسئلة الرأى العام على البيئة، فى أمريكا يسألون فى أشكال الديمقراطية وحقوق الإنسان، فى فرنسا يسألون عن الحضارة وموقع الفكر، هذه الأنظمة (لا تلهى) الناس بجريمة حدثت أو فضيحة نسجت، و يظل الرأى العام يقظا لقضاياه العامة، وهذا هو مقياس نضج أمة أو تخلفها. إننى كلما سمعت عندنا كلمة (شفافية) تصيبنى حساسية منها، ولكنى مضطر لاستخدامها فى علاقة أنظمة شعوب العالم الأول بالناس، الإجابة عن

أى سؤال لا يحتمل المنطقة الرمادية، لا تكهنات ولا حادى بادى، تلك هى الشفافية الحقة والمصارحة.

نعم، دعونى أبح بما فى قلبى، ففى صدور الناس أسئلة كثيرة بلا إجابة، أسئلة تخص الغد والمستقبل بلا إجابة، أسئلة تخص هناء الأحفاد بلا إجابة، أسئلة عن تداعيات الإعصار المادى العالمى علينا بلا إجابة، أسئلة عن صكوك من أصول الدولة لبسطاء الناس بلا إجابة، المتعلمون يجتهدون فى الإجابات، وأنصاف المتعلمين يميلون للإشاعات، والشارع لا يسأل حين يلف الغموض الأمر، ويتحركون إذا أصاب رغيف العيش وعكة أو شعروا بالعطش وعز الماء العذب، نعم، وأنا على يقين أن حكومات مصر من محيى الدين وصدقى وكمال حسن ولطفى والجنزورى وعبيد، إلى نظيف، حاولوا الرد على أسئلة الناس ولكن ليس بالقدر الكافى فصاروا نهبا لاتجاهات الرياح، حتى احتواء الإخوان المسلمين لبعض الفئات التى منحت ٨٨ عضوا منهم فى برلمان مصر، أصواتهم دخلوا من ثقب السؤال وأجابوا عنه دون تعتيم فكسبوا الثقة.

إنه بالإمكان إعادة الثقة بين الحكومة والناس إذا أجابت الحكومة عن كل سؤال وكل شاردة وواردة، وخرجت من خندق الغموض وصدرت للناس قرارات صريحة حتى لو كانت بطعم مر، دون تضارب أو إخراج سيئ للرأى العام، فالناس (عايزة تعرف رأسها من رجليها)، كما يقول الحس الشعبى. اسألوا، ولا تكفوا عن السؤال، فالسؤال علامة صحة فى الشعوب.

هذه الدنيا وإن ابتسمت!

هذه الدنيا وإن ابتسمت، ليس من قانونها الأزلى دوام الابتسام، إنها تكشر عن أنيابها، أحيانا، كامرأة تخفى مرارتها بغلاف حلو جذاب، إن دوام الحال من المحال، تلك هى ترنيمة الدنيا وترتيلها الدائم، ذلك هو الدرس الذى تلقنه لنا بكل شعوب الأرض، وأحيانا نستوعبه وأحيانا أخرى نكابر ولا نفهمه! هذه الدنيا، امرأة لعوب تلمح فيها الفضيلة كالبرق، ومن يصدقها، يدفع ثمن براءته وسذاجته، قد يجد السقف ولا يجد الاستقرار، قد يجد الوسادة، ويبحث عن رأسه، قد يجد الخبز ولا أسنان له تمضغ، يبدو الإنسان تائها هائما، كالساكن فى بيت شعر من قصيدة مهجورة!

لا نصدق أن السعادة مجرد زائرة لبعض الوقت ثم تمضى، لا نصدق أن المجد حالة تمضى بعد قليل نحو الغروب، ولا نصدق أن المال وسيلة للسير فى الدروب الوعرة وقد يفقد قيمته مثلما هز الإعصار المالى الكرة الأرضية ومشى الهلع فى القلوب وكانت مفاجأة القرن.

هذه الدنيا وإن ابتسمت، لا نتوقع منها رحلات على الشاطئ الفيروزى أو جولات فى حدائق ياسمين. إنما - من النضج - أن نتوقع الأسوأ، وليست هذه دعوة تشاؤمية ولا نظرة للكوب الملآن ماء على أنه فارغ، ولكنها صمام أمان من الصدمات، فالصدمة هى حدوث غير المسبوق ولا نتوقعه ولا نتصوره، تماما مثل (صدمة الصباح) فى اليابان حين لقى

(الأهلى) أمل مصر.. هزيمته! أسقطنا - بفهلوتنا - كلمات مهمة من حياتنا، كالفشل والهزيمة والمرارة والمرض، نعم، نحن شعب عربى يخاصم النضج ويتخيل أن الدنيا نجاح متصل وفوز ساحق وقوة لا مكان فيها للضعف، ولأننا نفكر بهذه الصورة الرومانسية، كان لصدماتنا فى الحياة والبشر طعم العلقم، فالإنسان قد يعيش قمم العظمة وقد يتحول فى لمح البصر إلى مجرد حشرة، ويوما ما، كانت الورود تطوق عنق بوش فى فترة ولايته الثانية، ثم كان وداعه فى بغداد بفردتى حذاء!

نحن نبدو أحيانا فى زهو ريش نعام ملون، وربما نصبح مجرد وسادة قديمة مرمية، نحن نصل إلى أعلى مراتب الشهرة والتوهج وبعد حين طال أم قصر يطوينا النسيان ويكفننا الظلام، فى عالمنا الثالث تموت الأحلام بنت ٧ أشهر ولا تكتمل النمو فى رحم القدر. يسقط أتوبيس بركابه بأحلامهم وآمالهم فى ترعة، تغرق الأحلام وتموت فى قاع الترعة، ويهرع إلى مكان الحادث ضباط وجنود ورجال ضفادع بشرية ينزلون إلى الأعماق لاستخراج الجثث، إلا الأحلام.

هذه الدنيا، لا تعرف أنصاف الحلول ولا تدمن اللون الرمادى، وحين نتعذب فيها نلعن الحظ ونسب الأقدار ولا نشير إلى أنفسنا بصباع واحد من أصابعنا العشرة، لا نعترف بشراكتنا لمصائبنا وكأنها مصائب أحد آخر! نحن نجيد اللطم والصياح لأننا (ظاهرة صوتية)!

هذه الدنيا وإن ابتسمت لها ناموس سرمدى، من جاء إلى الضوء بالمصادفة، يعود إلى الظل بالمصادفة، ومن صعد القمة فى غفلة فوق أعناق الغير، نزل إلى السفح سريعا، ومن ركب حصان الفهلوة وجرى فى البرارى، فقد الحصان الطريق ورماه من فوق ظهره، ومن أحاطته النساء وجيوبه منتفخة مالا، هجرته إلى غير رجعة حين صارت الجيوب خالية، ومن تحكم فى عباد الله يوما ما، سيأتى زمن يجعله مهمشا لا حول له ولا قوة، ويردد فى صمت (يوم لك ويوم عليك)! ومن ادعى الحكمة وليس أهلا لها، سيعود يوما مفلس العقل بلا أهلية.

هذه الدنيا تريد منا أن نشقى ونعمل ونتعب ونعرق ونحفر جهدنا بأظافرنا لتستقيم معادلة الحياة، ما ثروة جيتس إلا ثمرة جهد مضن، وما نوبل زويل إلا نتيجة إرهاق معمل، وما لقب السير يسبق اسم د. مجدى يعقوب إلا مكافأة لرحلة طب بضمير. إن شمسا واحدة تجفف ملابسنا فى شتى أنحاء المعمورة ولكن عقولنا مختلفة، بعضها مسه التخلف فضاق حجمه وبعضها مسئول عن تطوير الحياة، بعض الناس، زرع فيهم الله الموهبة،

فسقاها ورعاها، والبعض الآخر خاصمته الموهبة وعانده الطموح. وما عذاباتنا فى هذه الدنيا إلا خلاصة صراعات ذواتنا وأجسادنا تشقى بها وتشقى بنا هذه الدنيا، فكل الأديان والعقائد والمذاهب والملل لها سماء واحدة، ومن هنا كانت الفتن الطائفية فى المجتمعات بكل انتماءاتها الدينية من (الكبائر) على حد قول المفكر جمال حمدان. بعض الكبائر هى حروب هذه الدنيا، لأتفه الأسباب تندلع وتشتعل وتقضى على الأخضر واليابس، فى المحكمة التى شكلها الفيلسوف بتراند راسل من كبار المثقفين لمحاكمة جونسون كمجرم حرب قرر مائتان من الفيتناميين حضور المحاكمة كشهود! نحن - فى هذه الدنيا - شهود لم نستدع فى محاكم الضمير لجرائم بلا مستندات لأنها جرائم معنوية تمس الوجدان، وتصنع رعشة الخوف بدلا من رعشة الحب!

هذه الدنيا - وإن ابتسمت - فلنأخذ ابتسامتها بحذر.

إنها قشرة موز!

إنها سراب نبع عذب!

إنها حكم بالإعدام لحظة الميلاد!

إنها حبة بن فى محمصة الزمن!

إنها الرحيل فى بداية السفر!

إنها الكاذب حتى الصدق!

إنها السفر بحقيبة هموم!

إنها الفرح بطعم الحزن!

إنها لعبة الكراسى الموسيقية فى الفرص!

إنها الجدل حول معناها بلا طائل!

إنها اللهاث حتى الإعياء!

إنها الأمل بأن هناك غدا أفضل!

إنها المسرحية الناجحة التى تعرض كل يوم، فى كل ساعات النهار ونحن أبطالها، وفينا الكومبارس، وتعرض منذ ملايين السنين من بدء الخليقة!

دمعة على خد الزمن!

الأيام تمر، تمضى، تجرى، ترمح، تلهث، وفاتت سنة. هل من طبيعة الأيام هذا الركض أم هو سيف الزمن البتار يشق عباءة الأيام؟ ثم ما هو الزمن؟ هل هو طفل ظهرت أسنانه أم رجل زحفت التجاعيد إلى جبهته أم عجوز واراه التراب؟ إن أبسط تعريف للزمن هو المسافة بين لحظة الميلاد ولحظة الموت، ولكن الزمن ليس شيئا ملموسا، إنه كالبرق والريح لا يمكن الإمساك به، أدخل أحيانا محارة اليأس وأقول لنفسى (كلنا كومبارس نتكلم فى مسرحية الزمن) وأقول ما جدوى الحياة وما جدوى الصراعات وما جدوى الآلام والموت هو إنزال الستار على هذا العبث؟ لكنى أفلت من قبضة هذا الإحساس وأعود إلى جزيرة الأمل أطوف حولها بقاربى وأكتشف أن لذة الحياة فى البحث عن اليقين، ولكن اليقين يبدو سرابا، فكلما ظننت أنى عثرت على ينبوع معرفة ثبت لى أنه صحراء لا نهاية لها ولكنى لا أكف عن المحاولة، ومن يكف عن المحاولة يكفن نفسه بيديه! فهل الأمل اختراع أهداه الزمن للبشرية لتركب على جناحه وتحلق كالطير بجسارة؟ ومهما كان التحليق جسورا، فسوف تأتى لحظة يحن فيها المحارب للراحة، هل (العدم) من مفردات قانون الزمن؟

نجمع المال وننفقه، نصل للسلطة، وننزل من فوق جوادها، نبنى أجسادنا وتقل المناعة يوما بعد يوم، نعشق بجنون، فيخطف الحبيبة طائر الفراق، نعيش اللذة ونحترق كالفراشات، نحقق الأحلام حتى نسقط من الإعياء، ندخل سباقات محمومة وندفع الثمن

الباهظ من طاقتنا، ننجح ثم من فرط الغرور نسقط فى شباك الفشل، كل شىء متوهج إلى عدم، هل هى - كما قال المتنبى - تعب كلها الحياة؟ ومع ذلك هناك (من هو راغب فى ازدياد) سئلت مرة: هل عرفت الندم؟ قلت: من لم يعرف الندم استقال ضميره من الخدمة، قال غيرى: ماذا يفيد الندم؟ قال ثالث: القوى لا يعرف الندم، ازدادت حيرتى الذهنية وجعلتنى أسأل: هل الندم مصطلح اجتماعى حتى لا يسود قانون الغابة؟

فاتت سنة من عمرى لا من عمر الزمن، كان محمد عبد الوهاب يقول فى عيد ميلاده (كيف أشعل الشموع، وأحتفل بسنة راحت من عمرى؟) وفى ليلة رأس السنة هل الصخب الذى يملأ الدنيا هو فرح حقيقى أم تقليد بشرى كلما أطل عام جديد؟ فى تلك اللحظة يسكت الرصاص ولكنه يعود، تسكت الجريمة ولكنها تعاود ممارسة نشاطها، ولو كنت زائرا لأرض جديدة أو صديقة لى من مدن العالم وحانت لحظة الوداع، تغافلنى فى مقعدى فى الطائرة دمعة تتسرب إلى خدى. ولكن الزمان ليس كالمكان شىء محدد له سقف وأبعاد، حتى المكان لا يشعر بطعم الفراق، فغدا يستقبل زائرين جددا وينسى دمعتى، هل سنة فاتت من عمر الزمن تثير أشجانه إلى حد دمعة على خده؟ لا أظن، فهو كالهرم الرابض فوق البشرية تمضى الأجيال أمامه جيلا بعد جيل، ولا يتأثر. الزمن ليس حجرا أصم وليس جبلا غارقا فى الصمت، ولكنه رحيل دائم وحائط مبكى وشاهد على الصمت والصخب وعلى مدن الفرح والحزن على زلازل الحيرة وبراكين الغضب، الزمن شاهد عيان على الكرة الأرضية، هذا الكوكب الذى يشكو سكانه من الإرهاق فى الثراء والجوع فى الفقر، شاهد على نعيم سويسرا وجحيم دارفور، شاهد على غروب بوش وشروق أوباما، وشاهد على مجزرة غزة وجنوح حماس، ليلة ٣١ ديسمبر احتفلت مع أصدقاء برحيل عام واستقبال عام، فعلت ذلك حتى لا أشذ عن جموع البشر وإلا وصفونى ونعتونى بالاكتئاب، مع أن بداخلى أحزانا روحية لأن اليقين بعيد وعصافير الشك على نافذتى تنقر بمنقارها الصغير.

تصورت أنى أحاور الزمن وأسأله عن أحوالنا نحن سكان الأرض الحيارى، ما هو الفن؟ قال الزمن سلوى وعزاء للمتعبين، من هى المرأة؟ قال الزمن لا تستقيم بدونها المعادلة الأبدية، ما هو الدين؟ قال الزمن المرفأ بعد طول إبحار، ما هو المال؟ قال الزمن لغة السادة أمام العبيد، ما هى اللذة؟ قال الزمن قطعة الشيكولاتة فى فم البشر، ما هى الحرب؟ قال الزمن لعبة البقاء.

فاتت سنة بكل أحداثها وحوادثها، مرة منحتنى نوما هادئا ومرات أمطرتنى بالقلق،

مرة ضحكت من قلب طفل ومرات حجبت دموعي، عرفت أصدقاء جددا، وظللت متشبثا بأصدقاء قدامى ربما من مقاعد الدراسة، أعطتنى رضا عن نفسى مرة وتمردت على نفسى مرات، وأقبلت على الدنيا أحيانا وزهدت فيها كثيرا، أغرقت نفسى فى العمل، حتى لا يسلمنى الفراغ للتأمل والضحك على كل المكاسب وهى هزائم! جاءت سنة جديدة تحمل رقما فرديا وقيدت اسمها فى سجل الزمن، سنة حبلى بمفاجآت نترقبها فى بطن الزمن، فهل هذا الترقب والفضول هو الذى قاد إنسان العصر الضعيف إلى علوم التنجيم وقراءة كف المجهول؟ وهذه الشوكة - إسرائيل - فى الحلق العربى، هل يأتى تاريخ لاقتلاعها أم وصل الشر بين البشر للاحتفال برأس السنة بأكفان الموتى من الأطفال والعجائز؟ يا ترى كيف يستقبل البشر فى دارفور أو العراق أو فى فلسطين المحتلة بشائر ٢٠٠٩؟ إنهم لا يودعون أو يستقبلون، فالأيام مكررة، ولا فرق بين سنة مضت وسنة أتت، ولا فرق بين نهار جديد وليل يرتدى عباءته. لون الأيام كالح وطعمها مر، لا شىء ينتظرونه غير الموت، وحتى المساعدات الإنسانية مؤقتة حتى لو جاءت من دول ترحم جرحى غزة الجريحة.

جاءت سنة جديدة، فى ثناياها إعصار مالى عصف بالأرض فهل غافلت دمعة خد الزمن؟ أبدا، ستجف الدموع فى المآقى، لأننا (كالسائرين نياما) نساق كالخراف إلى مصائر لا نعرفها، ندق الطبول، نعزف على الأرغول، نرسم لوحات سيريالية، نموت عشقا ونعانق الوهم.

إنها الحياة، بضجيجها وترابها وصراخها وهمساتها، عربون البقاء على ضفافك.. يا زمن!

رسالة إلى امرأة ترفضني!

سيدتي الرافضة: لست أحاول إقناعك بي فأظهر جانبا آخر مني وأتلون كزهرة عباد الشمس، ولست أحاول أن أنهمر كلاما وعويلا كالفضائيات العربية في مواجهة محنة غزة، فأنا أعلم أنك سددت أذنيك؛ وكأنك مجلس الأمن الذى استمرأ الدم والقتل، أفهم طبيعتك، فأنت سيدتى امرأة عنيدة، عناد حركة حماس، وفى نفس الوقت أنت امرأة ضعيفة ضعف الثكالى اللواتى فقدن أطفالهن الرضع فى الغارات البربرية على سكان عزل، سامحينى إذا اختزلت شخصيتك فى لسانك الذى يفرز سما كقناة فضائية تكره مصر، صحيح أنت لا تحملين كراهية لى ولكنك ترفضين الأسلوب والمنهج، أسلوبى فى الحياة يحتاج - كما ترددين - نيولوك، ومنهجى فى رأيك قديم وعتيق مثل سكك حديد مصر وبحاجة لتحديثها، وأنا رجل بسيط، أفرح كالأطفال بكملة صادقة حروفها مغموسة فى قارورة حنان. أنا رجل لطموحى سقف، فأنا لست أملك عنترية حسن نصر الله، ولا مغامراته وليس لدى جرأة حماس وهى تحاول ملاطفة الثعبان الإسرائيلى الأرقط الدفان، وأنا لا أنكفئ على ذاتى ولكنى أفهم ما حولى بعقل، هل يضيرك عقلى يا سيدتى؟ أنا لا أسبح فى بركة غرور، فلا يطاول عقلى، عقول زويل وفاروق الباز ود. مجدى يعقوب، لست أملك منجما من الكلمات تأتمر بأصابع نزار قبانى وتداعب أوتارك وتنفذ من أذنيك إلى قلبك، أهديتك شريطا لكاظم الساهر الذى يعجبك وكان من الممكن أن أجاملك بكلمة عنه ولكنى مسكون

بعدد الحليم حافظ وأعتبره شريك كل قصة حب عشتها، أعلم أنك عاطفية وما زلت تعيشين فى دولة رومانسية، ولكنى لا أبعثر مشاعرى كل لحظة كأعضاء وفود الجامعة العربية حين يشجبون ويدينون، أنا أعبر عن أحاسيسى فى الوقت المناسب ولست بورصة عواطف فى ظل أزمة مادية عالمية طاحنة، قلبى فيه صفاء سماء بلادى ولا أحمل ضغائن فتح لـ حماس وإلا هلكت نفسى، لقد اخترتك لأن فيك لمحات من نجمة السينما العالمية جوليا روبرتس التى أحبها لعفويتها فى كل شىء: جمالها المتواضع وأدائها التلقائى، أنا رجل محدود الموارد وليس عندى عزبة ولا أطيان زراعية ورثتها أو شفطتها من الدولة فى ساعة مغربية، ولست أملك سلسلة مطاعم وتتسرسب الفلوس كل ثانية إلى جيوبى ولا أحتكر فى السوق شيئا ولو كان (أمشاط وفلايات) ولست أنفق مليما على امرأة روسية أو أوكرانية، ولا أفتح الباب لامرأة تركية لأننا لم نستورد حرامية من تركيا بعد ولكن عصابة من النساء (التراكوة) جئن كعينات.

أنا لست كريستيانو رونالدو لاعب الكرة الذى يكسب الملايين من رجليه ولا أنا لارى كنج، أغنى وأغلى محاور فى العالم باستثناء بربارا والترز أو السمراء أوبرا ويمفرى، أنا رجل من العالم الثالث، عالم تدنى البيئة ودخل الفرد والانقلابات العسكرية.

أنا - يا سيدتى - رجل هادئ النبرة، ولا أصرخ كمظاهرات هذه الأيام التى أخشى عليها من فوضى حرائق المحلة الكبرى، فهل ترفضين هدوء نبرتى؟ تقولين إنى جامد المشاعر، أنا أنفعل بحرقة أمام طابور أنبوبة غاز وأصرخ حين تتسرب مياه الصرف الصحى إلى بيوت الناس، وأرفض اعتذار إسرائيل عن قتل شرطيين مصريين على الحدود، تعلمت من تجارب العمر أن يكون العقل بوصلتى، أمامك نساء لهن قلوب ومشاعر وكان العقل بوصلتهن مثل فايزة أبو النجا، وزيرة هادئة النبرة حتى (كوندى) كما يناديها بوش، هادئة النبرة وهى تبث سمومها فى تصريحاتها المعادية للعرب، أنا رجل أهتم بما حولى بحرية ذهن ولست سجين نظريات كالشيوعيين أو سفير أوامر ذقون كالإخوان، أنا مصرى، أعيش على ضفاف نيل معطاء أنجب نجيب محفوظ ويوسف إدريس وجمال حمدان، وأنجب الشيخ الباقورى والشعراوى وأنبت فكر البابا شنودة، أنا مصرى، وشربت من القلل القناوى وتشمست بشمس الأقصر ونفدت بجلدى من البلهارسيا وتعلمت فى مدرسة الأمير فاروق الثانوية ببنى سويف وكانت إجازتى أقضيها فى غيط قصب، لم أعرف لوع الرجال ولا لؤم النسوة.

فهل ترفضين براءتى؟ ماذا تريدين منى؟ أن أكون خبيثا كشارون فى غيبوبته،

ديكتاتورا كصدام فى قبره، فهلويا كسائقى الميكروباص فى حوارى شارع فيصل، هل تريديننى أتحدث بلغة رفع حذائى فى وجه من يعترضنى أو يخالفنى الرأى؟! هل تريديننى محايدا كتليفزيون الدولة أم محرضا كالصحف الخاصة أم مهيجا كقناة الجزيرة؟ ماذا تريدين سيدتى بالضبط؟ أنا رجل متواضع، أحمل جزءا من تواضع أسامة الباز والطيب صالح ولكنى مستعد أن أتنازل عن تواضعى الجم أمام غطرسة آخرين يحتمون بالكراسى.. وفى نفس الوقت لا أحمل هدايا ملونة كبابا نويل العرب أوباما، ولا ندرى أهى هدايا ملونة أم هدايا مفخخة؟

يا سيدتى الرافضة: أموت على حدود غزة برصاص إسرائيلى ولا أتوسل، أموت فى مجاعة دارفور ولا أتوسل، أموت برصاصة من أمريكى محتل فى بغداد أو البصرة ولا أتوسل، أموت ليلا على الطريق الدائرى غير المراقب بدورية راكبة، ولا أتوسل، أموت فى القرية الذكية من الوعود الحكومية الوردية ولا أتوسل، أموت فى استاد رياضى إذا كان الأهلى منتصرا وزحفت الغوغائية بكرات النار ولا أتوسل، أموت على ظهر سفينة مصرية استولى عليها فى البحر قراصنة الصومال ولا أتوسل، إن شيئا ما فى الجينات يرفض التوسل.

ارفضى - سيدتى - وانضمى لأى (جبهة رفض) على سطح الأرض، وستعودين يوما وقد نكست راياتك، مكسورة القلب، كسيرة الوجدان.

خدعوك فقالوا دقة قديمة!

لا تستقيم المعادلة فى مجتمع كله شباب أو كله عواجيز، والأمر البديهى أن يضم المجتمع فئات عمرية مختلفة، أى يضم (المخ والعضلات) فالمخ وحده حكمة فى الهواء، والعضلات وحدها (طاقة صماء) وفى أسطورة إفريقية ينادى الأب أولاده قائلا (لن تكون لى أبوة بدونكم). فى يوم من الأيام ساد بين شباب هذا الزمن (هوجة) سخيفة تقول نحن جيل بلا أساتذة، لعل أصحاب هذا القول يتصورون أنهم ولدوا فى حالة اكتمال، وهو وهم كاذب وادعاء مريض، فلا يوجد طفل لم يتعلم أن يحبو ويقع مرات.. حتى يقف على قدميه ويمشى.. ولا يوجد صبى دخل المدرسة دون حاجته إلى معلم، ولا توجد بنت نزلت من بطن أمها تعى حقائق الحياة دون أن تجلس على الدفة.. فى سفينة الحياة، والمجتمع الشاب وحده، أعرج، مثل ألف تنقصها الهمزة أو تاء بلا نقطة، والمجتمع الناضج هو تعبير أميل إليه أكثر من مجتمع العواجيز، لأن للعواجيز فى مجتمعنا مفهوما مختلفا، إنهم- أى العواجيز- كسالى، فاقدو النشاط، كالنهر عند المصب، العواجيز هم سكان ورواد لمقهى النشاط كما رصدهم صلاح جاهين بريشته الساخرة.

وكان الراحل الفنان صلاح طاهر يصف نفسه بشباب (ما بعد الثمانين)، فقد كان كتلة نشاط، حاضر الذهن، حتى التسعين، وكان من العبث أن يطلق عليه لقب عجوز، الوصف مرفوض لأنه يشير إلى العجز فى الحياة، وقد وصف الفيلسوف الإنجليزى بتراند

راسل الذى رحل عن عمر اقترب من المائة سنة بقوله (الإيقاع بطيء لكنه يتأنى) وقال (حكمة السنين تترسب فى عقلى). عمر الستين ما زال فى مصر سن المعاش وهناك (المعاش المبكر) وهناك مهن ارتفع فيها سن المعاش إلى ٦٥ عاما و٧٠ عاما وربما أكثر كالصحفيين والقضاة، ولقد كان كاسترو يستعين بخبرات مدرسين تعدوا السبعين، ولكنهم قادرون على العطاء فى معركته للقضاء على الأمية فى كوبا، وفى نيجيريا مجلس (المائة عاقل) الذى يفكر فى مستقبليات البلد وكلهم خبرات غادروا مقاعد العمل الإدارى اليومى، الخبرات هى ثمار السنين وهى ليست للحفظ فى ثلاجات الزمن بينما هى للضخ فى عروق شباب مجتمع يجلس فى مواقع القيادة، ومن أخطاء شباب القيادات الجديدة عدم الالتفات لخبرات من سبقوهم بدعوى أنهم دقة قديمة وليسوا بحاجة إلى وجهات نظرهم، فالشباب نتاج عصر الكمبيوتر والموبايل، والدقة القديمة نتاج عصر الكتاب والقلم الكوبيا وجدول الضرب.

إن عدم استفادة القيادات الشابة من الخبرات المتراكمة، كمن تعلم فن قيادة الطائرة - على حد قول المفكر د. عبد الرحمن توفيق - ثم قرر التخلص من معلمه بعد أن حلق بالطائرة منفردا، فكيف يهبط بها وهو ما زال يتعلم، أى لم يتعلم بعد وإذا أردنا توصيف الموقف فهو شكل من أشكال العنجهانية كما كان يطلق عليها الشيخ الباقورى، حين يقول (هذا التصرف فيه عنجهانية) فالحس الشعبى يقول (إدى العيش لخبازه حتى لو أكل نصه) هنا يرمز الخباز إلى الخبرة، وأن العجين الطرى - بالنار - يستوى، هذه النار هى التجارب، بدون تجارب الحياة والصدمات لا يستقيم عود الشباب، أى أن خبرات السنين هى (الزاد الحقيقى) للشباب فى مواقع القيادة، وأعود إلى توصيف الشيخ الباقورى (العنجهانية) إن فيها التعالى والشعور أنه فوق التعلم ولا يحتاج لخبرة (دقة قديمة).

فى بعض الأحيان توصف الدقة القديمة فى السياسة بأنها (حرس قديم) وأنا أشعر بأن هذا الوصف لو حللناه لكانت النتيجة: خبرة + تجربة + فهم + إحاطة بالواقع + مرونة، وهاتوا لى بمجتمع يتخلى عن حرسه القديم، بوتقة انصهار تجارب الزمن وخبراته، إن الرئيس الأمريكى الشاب أوباما استعان بوزير دفاع بوش وهو رجل عجوز يحمل تجارب عسكرية وهذه دلالة على أن قيادة شابة تستثمر – إن صح التعبير - خبرة رجل، رأسه فى لون الثلج، إن فى كرة القدم مثلا، يتحول اللاعب القديم إلى مدرب يمنح خبراته فى الملاعب للنشء الموهوب، إن شهادة ميلادك هى شهادة (تجربتك) فى الحياة و(قدرتك) على العطاء و(تفاعلك) مع مجتمعك و(استيعابك) لأدوات العصر، ومهما غطى الشيب

رأسك، ومهما كنت (دقة قديمة) إنها خدعة، هدفها معاملتك كخيل البلدية حين يعجز عن جر العربة، إن أمثالنا الشعبية ترد على هذه الخدعة حين يقال (الدهن فى العتاقى) ودلالته مفهومة، هناك مجتمعات متحضرة تضع (عجائزها) فى أرفع مكانة لإيمان هذه المجتمعات أن الخبرات للاستفادة بها وليست (للادخار). لقد كنت فى بداية مشوارى فى الصحافة، يروق لى الجلوس مع سلامة موسى ومحمد زكى عبد القادر ود. حسين فوزى ويحيى حقى، كنت أشعر دوما أن أذنى تشرب من نبع ثرى بالمعرفة، وربما لهذا فتنت بقراءة التراجم الذاتية لأنى أغوص وأتسكع داخل (حيوات)، جمع حياة. نعم، إن المهندس الشاب فى حاجة إلى خبرة (الأسطى) والمحامى الشاب فى حاجة إلى خبرة (الميتر)، والسياسى الشاب يفهم ألف باء السياسة من السياسى المحنك، والصحفى الشاب يفطن لأسرار المهنة من الخبرات المتراكمة لمن سبقوه فى المهنة من (المرمطة) المهنية.

إن التجاعيد فى التلافيف، تلافيف الدماغ، هى دلالة قدرة على الذكاء والوعى وليست (خرف الشيخوخة) أو (الزهايمر) ولست أدافع عن جيلى، أو أنفى عوامل تجريف الأيام، لكنى أمجد قيمة مهمة وهى الامتزاج بين خبرات العمر وتطلعات الشباب، فمن هذا المزيج يقف المجتمع ثابتا ممشوقا يواجه التحديات بالحكمة والأمل، مثلما تعلمت من الزمن المحفور على جبين أبى يوما ما.

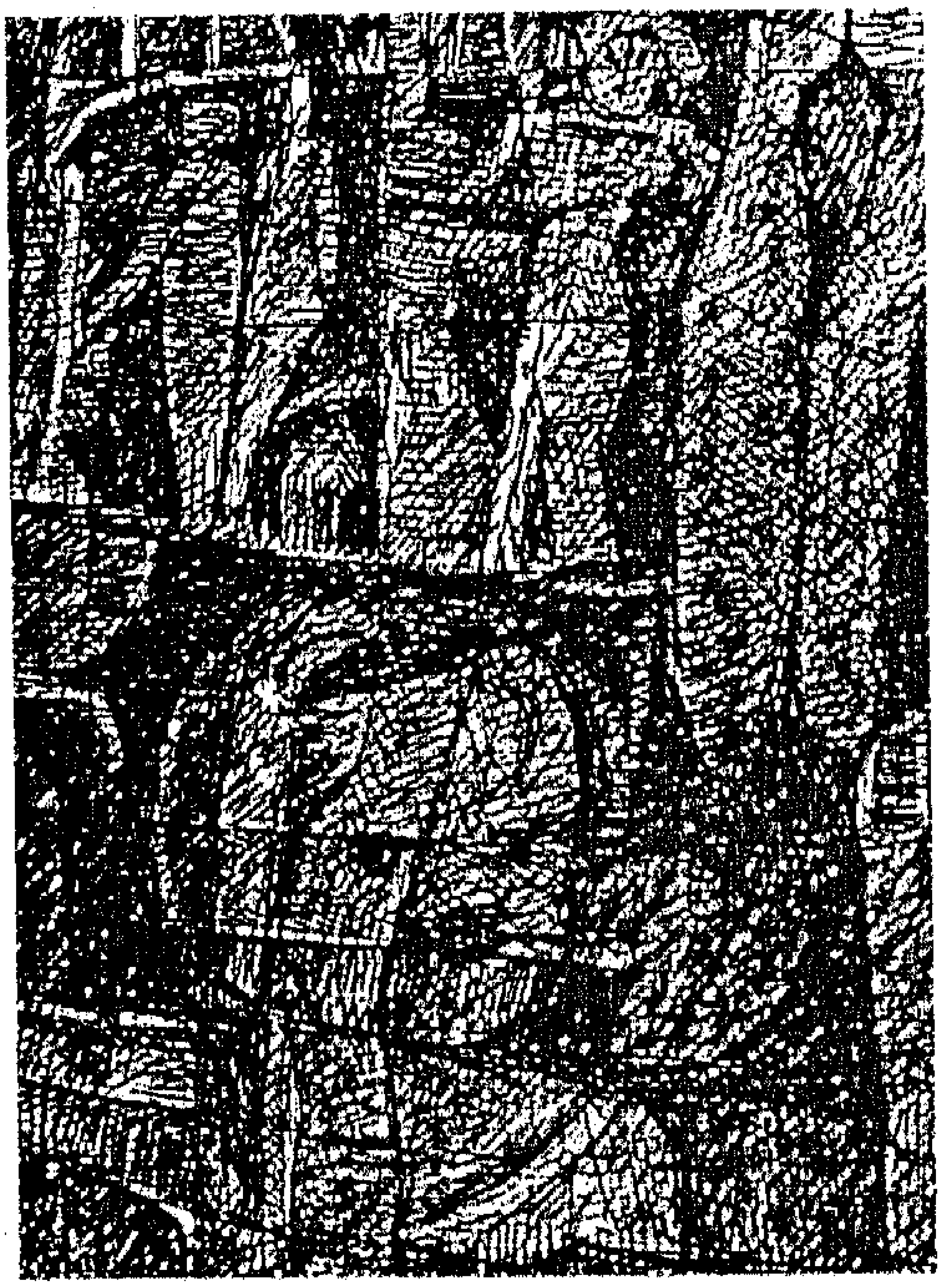

أهمية أن تكون مقامرا!

أبادر من اللحظة الأولى أن أعلن أنى لا أدعو للقمار الذى تحاربه وتنهى عنه كل الأديان، ويسبب الكوارث فى البيوت ويهدم الأسر ويشرد الأطفال، القمار بكل أصنافه، على مائدة خضراء فى بيت أو مضاربة فى بورصة البوشى، للعلم، أنا أكره القمار والمقامرين وأعترف بفضل الله أنى لا أدخن ولا أقامر ولم أحاول التجربة. ولكنى - فى المقال الذى تحت بصركم وبصيرتكم - أمجد قيمة الصلابة فى الحياة، وبصراحة، أنا أحارب هشاشة الذات من داخل صدفة النفس، لا بد من إخفاء ضعفك بوجه مقامر، وجه أملس ناعم، وعيون زجاجية ليس فيها رفة جفن، أو نبضة رمش، فما عادت الحياة رومانسية ولا عدنا نعيش فى زمن زراعى تغنى فيه ليلى مراد (الحب جميل) ولا تشدو فيه أم كلثوم (عزة جمالك فين) ولا يغنى فيه عبد الوهاب (محلاها عيشة الفلاح) ما عاد هذا زمان (كتر خيرك) عندما نشكر ولا زمن (حسك فى الدنيا) عندما نتمنى طول العمر لأحبائنا.

يلتقط الناس عيوبك وينسجون منها حبلا يشنقونك به، من ثقوب نقاط ضعفك يتسللون ويتربعون، علمت ابنتى - مرهفة الإحساس - ألا يرق قلبها لرجل يزحف على الأرض بين السيارات فى إشارات المرور يستجدى الناس، وحينما رأنى رجل أذكره جيدا باحترام اسمه اللواء محمود وجدى حين كان مديرا لمباحث العاصمة، حيث ذهبت أحقق بالعدسات

أمور البلطجة بالسنج وبلطجة الاتجار بالعاهات، فالرجل المقطوع الرجل - أى القدم - يتفنن فى إخفائها، والمرأة الكفيفة حاملة طفلها ترى أوضح منى ومنك! وربما كان هؤلاء يستغلون رحمتك بوسائل غير مشروعة، ولكن الكارثة فى الذين تمنحهم ثقتك المطلقة فيخدعونك نهارا جهارا، لا بد من وقف العواطف الجياشة فى هذا الزمن، فهذا أوان تقنين المشاعر ومن المهم تصويب الأحاسيس للهدف الصحيح، أما بعثرة المشاعر بلا حساب والثقة الزائدة فى البشر بلا حساب فهذه هى الغفلة بعينها أو الطمأنينة الكاذبة بنصها وروحها، لم يأت بعد ذلك الزمان الذى تصبح فيه أدوات الحرب الفتاكة فى المتاحف، نحن ما زلنا هائمين فى وادى الخلاص وأغلب الصداقات أكذوبة تحكمها المصالح. ذهب ذلك العصر الذى كانت فيه الصداقة هى (البكاء بعيون الآخرين) هذا زمان يصعب فيه التمييز بين العدو والصديق، كلها ابتسامات وأحضان تفتقر إلى تحليلات المعامل لتثبت صدقها، من الممكن أن يتخفى عدوك فى ثياب صديق فتجامله بعذوبة وسلامة نية ونقاء قلب، هنا أتوقف عند (النية) وأطلب لها المناعة، إن ضعف المناعة فى النية يعرضها لصدمات لا أول لها ولا آخر، وقد صرنا نصف فلانا بأنه (على نياته) أى أنه ليس فطنا ومعرفته بالدنيا محدودة، والمناعة فى النية تجعلك تميز بين الخير المضروب والشر المغلف بسلوفان.

إن أهمية أن تتمتع بوجه مقامر، تكمن فى فهمك العميق لمن حولك فلا تنخدع بسهولة فى كلام معسول، ولا فى تحريض مبطن وبصراحة أكثر لا تكشف كل أوراقك. وجه المقامر مطلوب فى السياسة ومطلوب بشدة فى الدبلوماسية، ومطلوب فى الحياة، وأنا لا أرمى بذور الشك فى البشر كأنثى العقرب ولكنى آخذ حذرى، سمعت مرة من المهندس سيد كريم وهو فى سن التسعين يقول (توقع الغدر من أقرب الناس إليك ولو بنسبة ٥٪) وكان المفكر القانونى جمال العطيفي يقول (لا تعط لأصدقائك فرص النيل منك) العطيفى لم يقل لا تعط لأعدائك! والمفكر مصطفى محمود كان يرى أن (الشك جسر لليقين)، وقد سمعت الدكتور النبوى المهندس يقول - وأنا شاب بعد - قليل من الحيطة تقلل وقع الصدمة، ولا أنسى نصيحة الحكيم د. مصطفى خليل اختبر دائما معدن من تعامل ويستطرد ضاحكا (فيه برانى كتير). نعم، الوفاء كالديناصور، كلاهما انقرض، ولكل إنسان (أجندة) فلا تتطوع مختارا للكشف عن أجندتك إلا لمن يستحق، الحياة العصرية تفرض عليك أن تعرف ما تريد دون أن يبدو عليك ذلك، قد تعتصرك الأحزان، ولكن كما يقول شاعرنا أحمد عبد المعطى حجازى (استجمع أحزانك واضرب.. استنهض قلبك فى يدك.. وصوب.. اضرب).

تلاحظون أن كلمة (الأخلاق) أو (القيم) لم تأت على سن قلمى ليس إنكارا لوجودها،

لكن اعترافا بتقلص مساحتها، فى جيلى كان يقال عن عريس شاب (عنده أخلاق) واليوم يقال (عنده شقة وعربية)، فى جيلى يقال عن عيلة (ناس تعرف الأصول) واليوم يقال عن عيلة (تعرف أصول اللعبة)، من هنا، أدوس على قلبى، لو كان السبب فى صدمات الحياة، وأبدو قويا فى مجتمع لا يعترف إلا بالأقوياء.

كان كاتب المسرح المتفرد سعد الدين وهبة يقول لى فى حوار إذاعى (ابتسم فى وجه عدوك، ربما كانت ابتسامتك سكة السلامة)، وكان للداهية السياسى كيسنجر عبارة شهيرة (اقرأ أى نص بالعكس فربما كان هذا حقيقة النص)، إن إقامتك الجبرية الأخلاقية فى خندق حسن النية مرفوض فى زمن العولمة، وزمن التكنولوجيا، حين يدينك قلم حبر له خاصية التسجيل صوت وصورة، لست أطلب صمت الرماد ولكنى أطلب صمت المعرفة الخلاقة فى الحياة والعمل، لن تضطر للنفاق إنما لشىء من المجاملة وهى من أبجديات الحياة، لن تضطر لمصارحة الآخر برأيك فيه، إنما الاحتفاظ بهذا الرأى بين ضلوعك، حين تتمتع بوجه مقامر لن تغضب، فالغضب المعلن نقطة ضعف، وتسهل أخطاؤك ويسهل اصطيادك حتى لو كنت صاحب حق، وكان يوسف إدريس يردد (الأعمار بيد الله ولكن أصحاب القلوب الدائمة النبض يسرعون الخطى نحو القبر) ذلك أن من يعرف يحزن ومن لا يعرف يحزن أكثر.

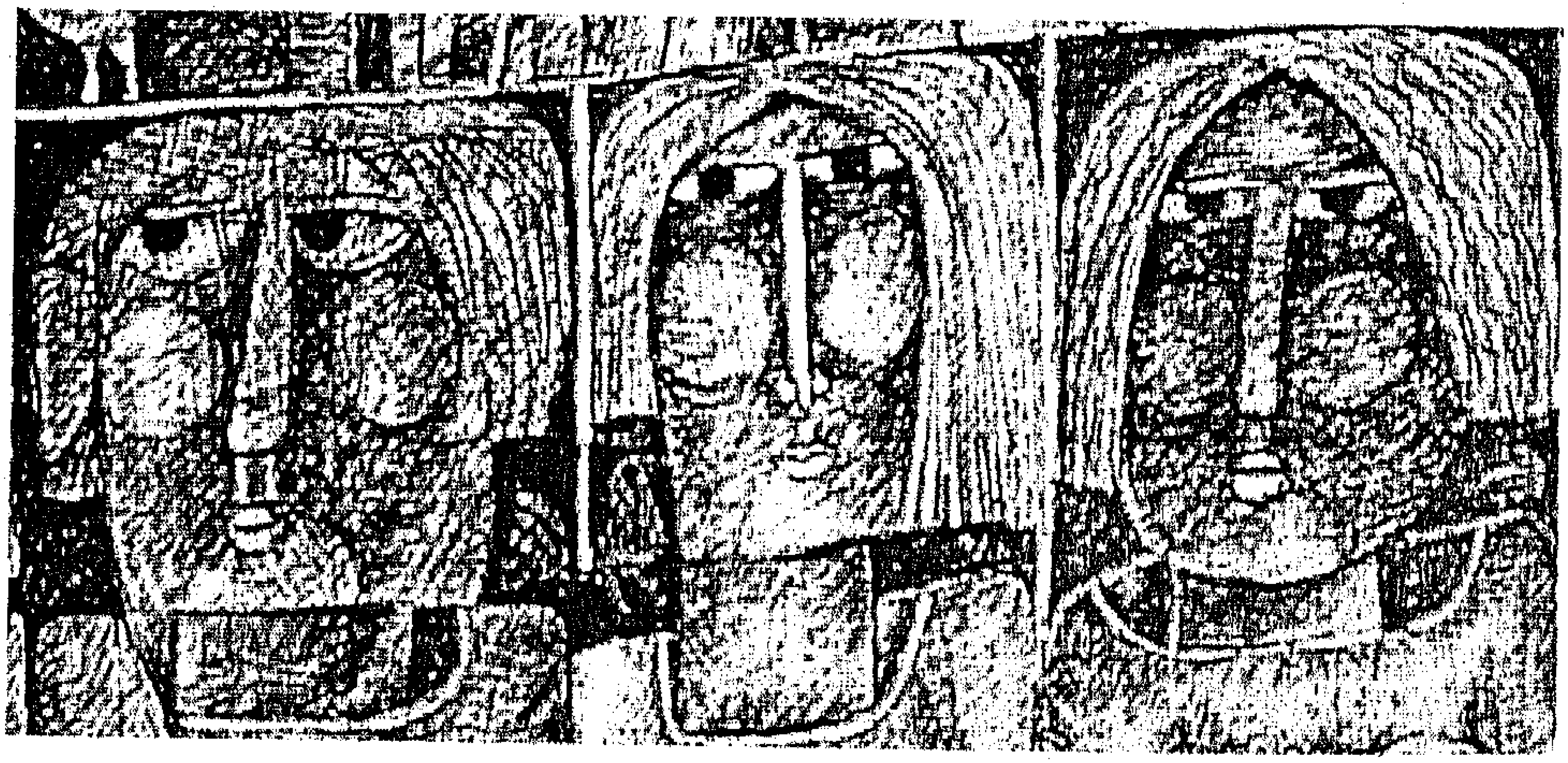

تحديق أكثر لحالة الملل!

من منا لم يعتره الملل يوما؟ لا أظن أن إنسانا ما قد نجا من هذه اللحظات الخانقة التى نطلق عليها الملل، وقد سمعت علماء فى علم الحيوان يجزمون أن القردة والببغاوات يصيبها الملل وتعبر عنه بالصياح، بينما الإنسان يشعر بضيق هذه الدنيا برغم اتساعها بعرض الأفق اللانهائى. الملل، لو حدقنا فيه أكثر كحالة هو (شبورة) نفسية، وربما (ضبابية) الروح، وفى حالة الملل تشعر بأنك أثقل من وزنك الفعلي، وتحس أن الأكسجين انسحب من الحياة، وتمر عليك الثوانى وكأنها دهور، وتفقد عروقك الحماس وتسقط أحيانا فى حفرة اكتئاب، والملل لا يعلن عن نفسه بمقدمات ولكنه يتسرب إلى النفس، ويعشش فى الفؤاد ويسكن المفاصل وينام على القصبة الهوائية وكأنه يمنعك من التنفس. إيقاع الحياة الرتيب يصنع حالة ملل، تكرار العادات اليومية ينسج الملل، روتينية ما تفعله مدخل طبيعى للملل، ولا أظن أن الطبيعة يصيبها الملل، لأنها تتبدل كل دقيقة، وما التغييرات المناخية فى العالم إلا إشارة لعدم السقوط فى الرتابة، وأتوقف عند كلمة (الرتابة) فهى واحدة من أهم مفردات الملل، وفى إبحارى الطويل فى قارة النفس البشرية اكتشفت أن الإنسان قادر على هزيمة الملل.

خذوا مثلا، الملل العاطفى، إنه من قسمات الحب، ذلك أن الشعور بالملل من المحبوب وارد وليس سوى رغبة عند طرف من الطرفين فى تغيير جلد الحب، إنه ملل إيجابى لصالح

العلاقة وليس ضدها، وكسر إطار الملل يحتاج إلى القليل من الذكاء والفطنة، فالسفر يذبح الملل، ولو كان مجرد انتقال فى المكان الواحد، وتغيير بعض العادات يقتل الملل لأنها تمتص هذا السأم، والمفاجآت الصغيرة تجدد شباب العلاقة ولو مضى بها قطار العمر زمنا، ولعل المرأة هي (مهندسة العلاقة الإنسانية) التى تملك أن تطارد شبح الملل إذا اقترب من العش، أما الملل الزوجى فهو واقع فوق أرض المحبة لا الحب وربما تهب رياح الملل الزوجى وتعصف بالزواج إذا لم تكن أوتاد العلاقة ثابتة، فالملل الزوجى يحول الزوجين إلى جهاز رقابى يأخذ بالشبهات! كل طرف يقف للآخر وقفة النائب الغول للنائبة ابتسام ميخائيل عندما عرضت مشروعها فى البرلمان، والملل الزوجى إذا استفحل صار اعتصاما كاعتصام أصحاب المقطورات القاتلة على الطرق، الملل الزوجى يصل بالأزواج والزوجات إلى إغلاق غرف النوم بطريقة إضراب الصيادلة. وأخطر ما أحذر منه هو كسر الملل الزوجى بالعلاقات الجانبية، أو الزواج العرفى غير الموثق، أو بتجارب محفوفة بالخطر على سبيل التغيير وضرب الملل فى مقتل.

هناك (الملل المهنى) يتعرض له الكاتب والطبيب والقاضى والضابط حيث تصيب العقل حالة أكسدة، وللخروج من هذه الأزمة، لا بد من أوقات للمرح والفرح، لا بد من (محو أمية العين) بتغيير الرؤية أو حتى بعض التعديلات البسيطة فى ديكور البيت.

لقد أتيح لى فى مطلع مشوارى العملى، حين كانت مهنة الصحافة بعافية وكان الحرف لوجه الله والإبداع، أن طرت إلى العاصمة الإيطالية روما برفقة الفنان الجميل الراحل صاحب الأصابع المبصرة جمال كامل، وهناك بمساعدة المستشار الإعلامى الناجح وقتئذ محمد إمام، قابلت أشهر كاتب عالمى إيطالى هو (ألبرتو مورافيا) وكنت قد قرأت له بعض ما ترجم من مؤلفاته، وفى إحداها يقول مورافيا ـ والترجمة لمحمد إمام ـ إن فى الحب الصادق يمضغ الحبيبان الملل! حين قابلت مورافيا فى بيته فوق ربوة جبل سألته عن معنى (مضغ الملل) قال أديب إيطاليا الشهير الراحل والترجمة لمحمد إمام:(حين يمضغ الحبيبان الملل، معناه أنهما يحتملان بعض السأم بنفس راضية بلا تربص من طرف لآخر)، وقال الكاتب العبقرى (إن الملل يختبر هشاشة العلاقة أو صلابتها، لأنه حيوان غير مرئى يتربى على التكرار الممل الثقيل)، فيما بعد فهمت من الموسيقار عبد الوهاب أنه لا ينظر خلفه لواحد من ألحانه حتى يدخل لحنا جديدا (وكأنه يختبر آذان السميعة لأول مرة) فيما بعد عرفت من فصيحة الكاتبات غادة السمان كيف (أن إنجابنا الأطفال يحفظ دستورية المؤسسات الزوجية ضد فيروس الملل). فيما بعد فهمت مغزى قصيدة نزار قبانى (أسألك

الرحيلا) وهى صرخة فى وجه الملل، فيما بعد فهمت كيف واجه أغنى الأغنياء العالم بيل جيتس الملل (بالنظر إلى الآخر دون الالتفاف فقط حول ذاتك)، فيما بعد فهمت من أرثر ميللر الكاتب الأمريكى من قصته (السقوط) أن (الاحتفاظ بالدهشة يحارب الملل.. مهما جاء كثيفا وخانقا)..

هناك أيضا (الملل السياسى) خطورة هذا الملل ليس فى مشاعرنا بقدر ما هى فى السياسيين أنفسهم، حيث بحكم تكرار التجارب والأيام الشبيهة لما قبلها، يسقطون فى فخ الملل. خطورة ملل السياسى أنه (مرتاح) لبقائه حتى يصل لسن المعاش أو يواجه (قضاه) أى الأجل للكرسى.. ولم يسقط سهوا منى عبارة للدكتور محمود فوزى أقدم وزير خارجية باستثناء د. محمد صلاح الدين فى حكومة الوفد إذ قال (إن العين الجديدة تنتصر على الملل) والمعنى جميل عندما يتركز فى العين أى الرؤية والتجدد أى ذلك (الانقلاب الأبيض فى الأشياء وكسر القوالب الجامدة والعادات التقليدية)، إن اختراع (الألم) قيمته معرفة طعم الشفاء، واختراع (الملل) قيمته إعادة الترتيب لفوضى النفس، واختراع (الكلام) قيمته تذوق لغة الصمت، إن الملل (حالة) شبيهة بسحابة صيف تمر فى سمائك وقد تمطر عينيك ويعود الصفاء، والسفر يهزم الملل واسألوا ضباط الجوازات فى المطارات، الملل من الحياة تهزمه بذاكرة لم تصدأ بعد.

الملل ليس معناه (الصدود) ولكنه عند الشاعر بودلير محطة سأم للوصول إلى شىء مضىء فى ذاتك، إذ لولا البحر لاختنقنا من الجفاف، ولولا طعم الشفاه لتصحرت نفوسنا، ولولا الفن لاعتصرنا الجمود، ولولا الملل لقصت أجنحتنا وعجزنا عن التحليق!

من لا يعرف .. لا يحزن!

أخاطب قارئا ذكيا يضع الكلمات فى أحذية المعانى كما يقول مثل إنجليزى، لا أتخابث ولا أتذاكى ولا أحب تفسير ما أقول على هوى القارئ غير اللبيب، لا أحب - فى الكتابة - التأويل أو الإسقاط ولم أصل ولن أصل لمرتبة ناقدنا الراحل د. لويس عوض فى استخدام الرموز والأقنعة.

أردت بهذه السطور أن أوضح قصدى حين أنزل إلى آبار النفس البشرية، وربما كان ما أقول بديهيا، ولم لا، وبعض البديهيات تحتاج إلى إيضاح كما يقول رجال علم المنطق، ولا بد لكى (تستقيم المعادلة) أن أؤكد بلا حدود أن المعرفة هى وقود الحياة وإكسيرها وبدونها نحن نسير فى ظلمة حالكة بلا بوصلة أو هداية.

لكنى قصدت شيئا آخر هو (الموت فضولا) أنا أعرف جيدا (الموت عشقا) وأعرف (الموت ثراء) ولكنى لم أفسر بعد الفضول القاتل فى النفس البشرية، فالفضول غريزة إنسانية، والإنسان ميال لإرضاء فضوله، ميال لمعرفة ما لا يعرف. وهذه الرغبة، عالية النبرة عند الصحفى والمحقق ورجل الأمن والباحث، ولا شىء يفوق فضول المرأة، إن نصف وزنها فضول، إنها تريد أن تعرف ما يهمها وما لا يهمها، المهم (إشباع الأذن) بأخبار الغير، أعرف نساء دفعن حياتهن ثمنا لفضولهن ذى الطابع الشرس، وأعتقد أن فضول الرجل فى الأغلب معتدل إلا قلة احترفت التسلق على سير الآخرين، أحيانا أسأل

نفسي: ما جدوى أن أعرف شيئا عن مستقبل الأيام فى ظل أزمات العالم وإفلاس البنوك وإغلاق المصانع وتشريد العمال، فهذا مؤشر لجوع قادم.. ما جدوى أن أعرف أن السل ـ كوباء ـ عاد يطل من جديد بعد أن تراجع وانزوى ولكنه عاد فى مناخ تدنى البيئة، ما جدوى أن أعرف أن عدد شباب الصعيد يتزايد بالزواج من الروسيات، ويتزايد عدد مرضى الإيدز حتى لو أنكرته الإحصاءات الرسمية، ما جدوى أن أعرف أن أنفلونزا الطيور لن تغادر بلادنا قبل ٨ سنوات (احنا واخدين المسألة باستخفاف)، ما جدوى أن أعرف أن نسبة الزواج العرفى وقضايا إثبات البنوة تبلغ ١٦٪ من مجموع شباب الجامعات من الجنسين، ما جدوى أن أعرف أن حكومة الحزب الوطنى قننت أوضاع العشوائيات لأسباب سياسية تتعلق بالانتخابات المقبلة، ما جدوى أن أعرف أن معامل كليات العلوم فى الجامعات قد شاخت ولا أمل فى بحث علمى بدون معامل، ما جدوى أن أعرف أن الملط (يعرى) أجهزة مصر ويكشف لنا (عورة) العبث بالمال العام، ما جدوى أن أعرف أن أعداد الأميين ليست فى تناقص وأن التسرب من المدارس يتزايد وأن جهود محو الأمية تتأرجح بين المسئولية والهزار، ما جدوى أن أعرف اللغة الجديدة لكسر أنف الحكومة بالإضرابات والاعتصامات، ما معنى أن أعرف أن صعيد مصر محروم من الأساسيات لأنه (بعيد عن العين وعن القلب)، ما معنى أن المدرسة المصرية من دواعى (تسطيح) أولادنا لأنها لم تدع للكتاب الورقى بمعلومات جذابة فهربوا إلى النت، ما معنى أن أعرف أن فى المنيا أطفالا دون الحادية عشرة يعانون من الربو لأنهم يعملون فى المحاجر ويستنشقون ذلك الغبار الأبيض ليكفلوا حياة أسر. ما جدوى أن أفهم أسرار فشل حزب أو مؤسسة صحفية أو إدارة مصنع، ما جدوى أن أعرف مغزى الاستعانة بأولاد وبنات المسئولين فى شركات ضخمة يديرها رجال أعمال تتراقص أمام أسمائهم علامات الاستفهام، ما جدوى أن أعرف أن بعض الأسماء فى مؤسسات مهمة جلسوا على هذه المقاعد لأسباب وجيهة وربما غير وجيهة بالمرة، ما جدوى أن أعرف الكذب الأنيق المغلف بالسلوفان الصادر عن أجهزة حكومية، ما جدوى أن أعرف رأى الكبار فى وزير أو محافظ تخاصم رؤيته النجاح وما زال فى موقعه يختال، ما جدوى أن أعرف أن أخبارا ما تفبرك فى معامل الصحافة الحديثة التى هبطت بالمهنة، وما جدوى أن أعرف أن مقالات بالجملة تصاغ بقصد الاستفزاز ولا مانع من الابتزاز، ما جدوى الكلام عن مسئول ما اشتهر بضعف أدائه والكل يعلم إلا هو، ما جدوى أن أعرف بعضا من الذين يمسكون العصا من نصفها كموقف مائع فى هذه الحياة، ما جدوى أن أعرف أن داخل البلد (بؤرا)

صغيرة وربما هواة تأتمر بأمر آخرين لإحداث مشهد حسيني اليوم وغدا في موقع آخر، ما جدوى أن أعرف أن الفضائيات تصنع (الرأى العام)، سواء كان مضللا (بكسر اللام) أو مضللا (بفتحة على اللام)، ما جدوى أن أعرف أن الناس (القيمة) فى المجتمع هبطت أسهمهم بجوار نجوم السينما والكورة، ما جدوى أن أعرف أن نصف بنات هذا المجتمع يتعلمن التمثيل خصوصا إذا تمتعن بالجمال والانحناءات بعدما صارت الممثلات يتقاضين أجورا خيالية تنقلهن من البدروم إلى البرج، ما جدوى أن أعرف ظاهرة النجاح في المجتمع بالإلحاح على الناس دون موهبة حقيقية أو خبرة، ما جدوى أن تعرف أن بواطن الناس وأطماعهم فيك ورغبتهم فى حلبك كالبقرة وأنت تكتفى بالابتسام، ما جدوى أن تعرف أن رأيك للكبت وليس للإعلان نهارا جهارا، فكل حرية لها سقف و.. ثمن، ما جدوى أن تعرف أنه ليس بالكفاءة وحدها تحقق هدفك، إنما بالصوت العالى وأسلوب قطاع الطرق، ما جدوى أن أعرف أن الموت هو تقديم الاستقالة للحياة ويصبح الجسد مجرد نعش يتحرك، ما جدوى أن أعرف أن (غزة) كانت وليمة (اللئام) المنتصر والمهزوم وقد احتضنت المحرقة أطفالها، ما جدوى أن أعرف أنه صديق جيد (يطعننى) فى وجهى لا فى.. ظهرى، ما جدوى أن أعرف (ندرة) قمح الصدق فى بستان الحياة، ما جدوى هذه (المعرفة)، إن من لا يعرف لا يحزن، وربما كان من يعرف يحزن أكثر، إن فى الحس الشعبى عبارة بليغة تقول (فلان شارى دماغه) أى إنه يحتفظ بفضوله فى ثلاجة العقل، وهناك (اتهام) لبعض الرجال بأنهم (عقلاء) أكثر من اللازم، فهل لأنهم يفضلون السير فى الميادين وليس فى الأزقة، فى هذه الغابة - الحياة - أيهما أفضل: أن تعرف فتحزن أم لا تعرف فلا تحزن؟.. هل فى حديثى دعوة لتلجيم حصان فضولك فلا يجرى فى برارى الحواديت التى تقطر غضبا، أى المواقف أذكى وأعقل؟ أى الصيغ تحفظ لك هدوء البال وشموخ النفس وراحة الضمير؟

إننا نكذب فى حياتنا، كما نتنفس تماما، إنه الكذب الذى يحافظ على التوازن فى المجتمع، ذلك أن مجتمع الصدق (يوتوبى) الحلم، إننا فى (خوف) دائم لا نعلنه من كثرة ما (نعرف)، لكنه خوف إيجابى يزف لنا بشرى أن بطن البلد (حامل) فى مولود قادم اسمه الأمل.

الذاكرة.. الشقاء والهناء!

ذاكرتي مثل ذاكرتك، تحتفظ، تختزن، تطرد، ولكن الأحداث والحوادث ترقد فيما اصطلح عليه بالعقل الباطن، صحيح، أنها تغفو طويلا ولكنها قد تستيقظ فجأة دون أسباب مفهومة، فأنا - مثلا - أستدعي وقائع بذاتها لمجرد أن أشم عطرا ما، وأنت ربما تتكاثر الذكريات فوق رأسك حين تسمع صوتا ما، وهي، قد تستدعي ذكريات ألم عندما تسللت إلى أذنها أغنية ما، صاحبت لحظة فراق أو انكسار حب، كلنا، يدير العقل الباطن حياتنا، شئنا أو لم نشأ، فهو قابع داخل نفوسنا كالمارد، توقظه لحظة أو ومضة أو رفة عين، والذكرى قد تطال أياما بعيدة كالطفولة وتتراكم آلام الطفولة ولا تذهب وقد تؤثر في مشوار العمر سلبا أو إيجابا، وليس ما أخطه الآن فوق الورق مجرد ثرثرة لحروف مطبعة أو فذلكة في كنه الذات، ولكنه (إبحار) متواضع في بحار النفس والدخول إلى صدفة الذكرى ومحارة النسيان، أنا أتصور أن المصالحة بين الإنسان ونفسه قيمة عالية إذا خاض فيها قلم، فالأيام لا تغطي جروحنا فمهما هرولت يظل الجرح أخضر، ومهما انطلقت الآلام تسابق الريح، تظل مرسومة كالوشم فوق الروح، وكلنا أمام حكايات الألم ننتظر عند مراسينا عودة قوارب الفرح، إنني أحرث في ذاكرتي بفأس الإرادة، أفتش في المخبوء وأعرضه لضوء الشمس، فلا يؤلمني أن غيوم ماض بعيد قد تتراكم في سمائك وتنتظر أن تنقشع ويصفو داخلك، والصديق الصديق كما تسميه د. سعاد الصباح هو طبيب نفسي لا

يتقاضى أجرا، وحين نلقى بهمومنا لأصدقائنا تمضى بعض الذكريات التى تقف كرمح مغروس فى رأسى ينزف ولا يتأوه أو يصدر صوتا.

أعرف جيدا أن معادلة الزمن هى الحياة والصراع توأمان، وأعرف جيدا أن الآخرين يحبون دس أنوفهم فى حياتك فهى رياضتهم الوحيدة، وأعرف أزمة هذا الزمان فى السلطة وهى الزن على الودان (الذى أمر من السحر)، وقد تشرنقت كثيرا لأهرب من عيون الآخرين التى وصفها دانتى بالجحيم، وتبينت مبدأ الحكيم الذى قال - من الإنجيل المقدس - فى مجلس المستهزئين.. لا تجلس. بعض الذكريات الراقدة فى عقلنا الباطن تأبى النسيان، ولكن الذاكرة مثلما تسبب لك الشقاء، تمنحك أيضا الهناء، على سبيل المثال، لقد شقيت بعقوق وجحود البعض فى شارع حياتى، وتذوقت طعم الهناء بامتنان آخرين يستحقون عطائى واهتمامى، مثلا، عشنا زمنا كانت الآهة تخترق المدى فى صمت وكانت الشهقة تسلخ الضمير وشقينا به وعشنا (الهناء) حين أصبح فى البلد إضرابات واحتجاجات واعتصامات تفوق الحجم وتزرع الفوضى - غير الخلاقة - فى حياتنا .

أستدعى من ذاكرتى شقاء الأقلام يوم كان الرقيب يجلس فى غرفة مجاورة يحصى أنفاسنا، وأعرف مذاق الهناء يوم أصبحت الأقلام تنطلق وتحلق إلى حد بهدلة الرموز، أتذكر مثلا - بألم بالغ - يوم فصلنى النظام الشمولى لأنى تجرأت ووقفت مع المدرس المصرى فى معركته مع وزارة لم تنصفه، وعرفت طعم (الهناء) يوم عينت رئيسا لتحرير نفس المجلة (صباح الخير).

تسيطر على موجة شقاء فى وحدتى بعد سفر آمال العمدة، الطويل، وكان (الهناء) فى وجه حفيدى الذى يقرأ ما أكتب ويرى صورتى على الشاشة، شقيت يوما برحيل عبد الحليم حافظ الذى ما زلت أسكن على ضفاف حنجرته وحين أنزلوه إلى القبر اصطحب معه الكلمة الحلوة واللحن الأخاذ والأداء العذب والأناقة فوق المسرح، وذقت (الهناء) يوم أصبح شباب هذا الجيل، شباب ادينى رنة يشترى سيديهات العندليب، شقيت بالتجاهل للقدرات يوما ما وتحفظ ذاكرتى مشاهد سيئة، ثم عرفت طعم (الهناء) يوم جاءنى التقدير والجوائز من رجل الشارع لا من لجان حكومية مجاملة أو لجان أهلية نتائجها معدة سلفا، كلنا ذاق المرارة وطعم الشقاء وشربنا من عصير الحسرة والأسى عشية الهزيمة (٦٧)، ثم تسكن ذاكرتنا الهناء يوم رفعنا العلم فوق بارليف الذى لا يقهر وكنا نشم عطر الشموخ والكبرياء، عشنا (الشقاء) فى الذاكرة يوم سطا الديك الشهير بصدام على الفرخة التى تبيض ذهبا (الكويت) وحذره مبارك رئيس مصر عشرات التحذيرات من مغبة فعلته،

فمضى كالثور يفتك بها، ولم نعش بعد - فى أيامنا - طعن الهناء، فقد تشرذم العالم العربى، عرفت القدم الأجنبية تراب المنطقة، وما زالت. إنى أكاد أسمع أصوات من أحببت وطواهم الموت وكانوا ونسا للعمر، فهل فى العقل الباطن ذاكرة صوتية تعطينى الهناء والشقاء، إننى أحيانا أستدعى من ذاكرتى التى لم تصدأ بعد مشاهد فرح طفولى، فترحل موجات الحزن والشقاء، أتذكر - مثلا - سياط الهجانة وأنا تلميذ بمدرسة الأمير فاروق الثانوية يوم خرجنا فى مظاهرة وتلفحت بالعلم المصرى الأخضر ذى الهلال والنجوم وحاولت مقابلة الرائد أحمد الحدأة كنت أريد أن أشرح موقفى، فطردنى الصول، ثم أتذكر - بهناء - أنى جلست أمام رئيس الجمهورية - محاورا له ٤ مرات - بعد أن قدمنى - للأمانة والوفاء - صفوت الشريف له.

علمتنى ذاكرتى مصدر الشقاء والهناء، أن الأيام تبدل النفوس وتغير القيم، وعلمتنى أن اختبار الإنسان - كما كان يقول أحمد بهاء الدين - بالمال والسلطة والمرأة، علمتنى الذاكرة - مصدر الشقاء والهناء - أن وميض عين الحب يبقى ويأبى النسيان، وأن اللهفة الصادقة تقفز فوق حواجز الزمن، وأن الغضب المعلن.. صحى.. وأن امرأة فى موسم الهرمونات لا تحاسب على تناقضاتها وثوراتها وحمقها.

ذاكرتى - مصدر الشقاء والهناء - هى معلمى الذى لقننى دروسا كنت جائعا لمعرفتها لتصبح هى خبز الحياة وعصا أتوكأ عليها، علمتنى استدعاء: لمسة أو نظرة أو رعشة أو فرحة أو مغامرة أو نشوة للمثول بين يدى العقل لتطارد - دون عناء - كتائب الإحباط والحزن والشقاء، علمتنى أن السعادة نسبية ولكنها ذوبان الفرد فى المجموع، علمتنى أن الاستغباء (درع واقية) من التدنى بالنفس إلى مراتب رخيصة، علمتنى أن أنظر خلفى وأقول بثقة (ذات جرح مضى)، وأنظر دوما أمامى أواجه الحياة برصيد تجارب وخبرات متراكمة ولا أسمح لذاكرة الشقاء أن تتحكم فى هنائى.

بطاقة رقم قومى مختلفة!

الاسم: مفيد فوزى سعد.

العمر: عمر تجربتى فى الحياة.

محل الميلاد: على ضفاف نيل مصر.

الحالة الاجتماعية: أرمل بعد سفر آمال العمدة.

الحالة العاطفية: ترميم اليتم.

الحالة الصحية: متعايش ومتكيف مع مرض السكر.

الحالة الاقتصادية: أدفع ضرائبى لأنجو من التهرب.

المهنة: مسحراتى بالحرف فى أرجاء وطن.

التربية: تربية (أم) أرضعتنى وليس تربية دادات.

درجة الذكاء: بحجم غباء الآخرين.

درجة المرونة: تكسر طوق العناد.

درجة الاستغناء: بقامة الكبرياء.

الهواية: التأمل فى واقع حزين.

مقياس السعادة: الاعتصام بجزيرة الحب.

مقياس الاحترام: احترام رأى مخالف لرأى القبيلة.

ماركة السيارة: ٤ عجلات تحميني من إشغال الرصيف.

ماركة القلم: جاف يملك خصوبة متواضعة.

نوع العطر: المسئولية.

نوع حجر الشيشة: لا أتعامل مع السموم.

نوع الرياضة: القفز بين الفضائيات بالريموت كنترول.

المصيف: العجمى قبل فتح بطنه بعملية صرف صحى.

العشاء: جبنة قريش وبرتقالة بصرة و.. منوم.

فريق الكرة: فريق أشبال نادى الصيد.

ألقاب تحملها: محاور على شاشة وجد لحفيدين يسبقهما مصرى.

عصر عشته: الملكية قبل الاثنى عشر ملكا.

محل السكن: شارع فى المدينة مطرز بـ ٤ صفوف سيارات على جانبيه.

اسم الجامعة: جامعة الحياة منحتنى علما أعمق.

حلم يراودنى: أن يتعلم أطفال مصر كيف يفكرون.

المذيع المفضل: المعلق محمد لطيف.

فصيلة الدم: يحددها قارئ أو مشاهد تليفزيون.

دواء بجوارك: أقراص الصبر.

البرنامج المفضل: وقائع مجلس الشعب.

مدينة أوروبية تفضلها: بيروت.

مدينة مصرية تفضلها: لندن.

معلم لا تنساه: علمنا فى الحديقة كما تمنى الشاعر الهندى طاغور.

شاشة تحلم بها: لا تذيع أو تبث العنف، كل صنوف العنف.

أمل لن يتحقق: أن يدمن القراءة ثلث مشجعى الكرة.

البريد الإلكترونى: ساحة الحق قليلا والباطل كثيرا.

أرض النفاق: أرض اختلت فيها المعايير.

التغييرات المناخية: أخلاق الناس.

ماركة الساعة: عقاربها تلقننى دروسا فى احترام الموعد.

سؤال وارد جدا: متى يستقيل الوزير قبل أن يقال؟

مقياسك للصداقة: لحظة المحنة فقط.

استقالة حكومة: فى حالة اختفاء حليب الأطفال.

وزارة فى المغارة: وزارة المتابعة.

الرقم القومى: واحد من ٨٠ مليون نسمة قبل دقيقة من الآن.

رقم البطاقة الضريبية: واحد ساهم فى ١٤١ مليار جنيه (الحصيلة).

يوم تتمناه: بعد يوم الأرض ويوم البيئة، يوم النفاق العالمى.

العدالة أم السلام؟: رعشة الحرية.

نوع نبات مفضل: نبات الظل والورد البلدى.

فاكهتك على مائدتك: التقدير.. إذا أحسنت.

ما لم يغادر صدرك: رعشة الدهشة.

مرض اجتماعى: العشم إذا تجاوز الحد.

تربية تنقصنا: تربية الضمائر.

فيروزك: تعتذر عن كل الأصوات القبيحة فى الحياة.

سياحة تحلم بها: فى عقول حكام العالم.

امرأة.. للحوار: شارون ستون.

امرأة.. للفضول: هيلارى كلينتون.

امرأة.. للإلهام: أكتم اسمها عمدا لتظل ملهمة.

وجع فى بطن مصر: العشوائيات والبطالة.

وجع فى بطن الفلسطينيين: حماس وفتح.

غيرتك ممن؟: من الشعوب الجادة المعنية بالعلم لا بالدجل.

كلمة تثير إحباطك: الشفافية.

سمة تحترمها فى المسئول: الإصغاء لشخص آخر غير نفسه.

حزب تنتمى إليه: الأغلبية الفاعلة بضمير.

آفة الصحافة: الابتزاز.. الابتزاز.

لغتك المفضلة: الصراحة.. حتى باب النائب العام.

حيوان تخشاه: ثعابين.. البشر

شعارك فى الحياة: أ ل س ت ر..!

شطار هذا الزمن!

زمان، كانت الشطارة.. مهارة، والمهارة، لو بحثنا عن أصلها اللغوى هى إجادة، وللإجادة مقاييس ومعايير ومواصفات شخصية، فالتلميذ الشاطر - فى جيلى - هو ذلك الذى استوعب الدروس وحظى باحترام زملائه ومدرسيه، والمحامى الشاطر هو ذلك الأمين على مصلحة موكله ولا يبيعه بذهب المعز، والدكتور الشاطر هو هذا الحكيم الأقرب إلى رهبان المهنة، والأم الشاطرة هى التى يحتل أولادها وزوجها المرتبة الأولى فى حياتها، ولاعب الكرة الشاطر هو الماهر فى الملعب والمتواضع فى المدرجات.

اختلف مفهوم الشطارة كثيرا بزاوية ١٨٠ درجة، اختفت الإجادة وحل محلها (الفهلوة) لم تعد الشطارة مهارة، بل أصبحت نصبا واحتيالا عينى عينك، ومنذ أن أتحفتنا الثورة بمفهوم (الولاء قبل الكفاءة) والدنيا تغيرت، صار النفاق للركب، أصبح من المهم أن تحدد (الهدف العالى) الذى تقترب منه وتتفنن فى إرضائه وانتزاع ابتسامته حتى لو جعلت من نفسك (مهرج سيرك) أو بهلوانا، المهم أن يرضى عنك (الهدف) فيمنحك جاها أو منصبا، ليس من الضرورى أن تكون كفئا، فكفاءتك على رأسى ولكن ولاءك أكثر أهمية وضرورة، ولاؤك بمعنى أن تنصر (الهدف) ظالما أو مظلوما، ولاؤك بمعنى أن تتحدث عن عدل (الهدف) وكأنه عمر بن الخطاب، ولاؤك بمعنى أن يمشى فوقك (الهدف) فتشعر بالسعادة لأنك ذقت نعاله، ولاؤك بمعنى أن تلغى مخك فإذا قال (الهدف) الشمس تشرق من المغرب،

قلت كم ضحكت علينا كتب الجغرافيا سعادتك؟ وإذا قال (الهدف) الفقر أكذوبة فى البلد، قلت مبادرا: ده افترا سعادتك؟ وإذا توجع (الهدف) نطقت بالآهة، وإذا قال (الهدف) نكتة مكررة، ضحكت حتى تسقط رأسك، أنت طول الوقت ممثل لا يمل الدور وكأنك الملك لير على المسرح القومي. وإذا كان (الهدف) امرأة، فالوصول إلى حماها بمعسول الكلام وبالهدايا فى المناسبات وبالمديح الدائم وبالانحياز الكامل المطلق. ولأننا بشر ولنا ضعفنا، فإن شطار هذا الزمن يلعبون على أوتار الضعف ويداعبون غدد النرجسية ويرفعون (الهدف) إلى مصاف (الأستاذة) و (المدرسة) و(الجامعة) وتراهم ينسحقون وينكفئون ويلعقون التراب، ويوم يسقط الهدف ـ لأسباب مختلفة ـ يتنكرون وينكرون الهدف قبل صياح الديك.

(الأهداف) تعرف أن مرءوسيهم منافقون وكذابون ولكنهم ـ وهذا هو المهم بل الأهم ـ يمنحونهم صكوكا من الولاء.

ربما لهذا يشعر كثير من الناس ـ ربما كنت أنت واحدا منهم ـ بالغربة فى المجتمع، فطبيعتك أن تجامل بعض الوقت وليس كل الوقت، وطبيعتك ترفض أن يكون معيار اقترابك من الهدف هو ولاؤك له قبل كفاءتك، طبيعتك ترفض (ازدراء) كفاءتك لحساب ولائك، سيصبح مجتمع (الموالين) الجهلة فى نهاية الأمر، وربما كانت صفاتك الشخصية غير مؤهلة لفن إرضاء (الأهداف) أينما كان موقعها.

شطار هذا الزمن (يعتقلون) آراءهم وقناعاتهم داخل ضلوعهم، لأنهم لو صارحوا (الهدف) بما فى صدورهم لقضوا نهائيا على أحلامهم، لهذا فالصمت إحدى آليات شطار زماننا، إنه صمت مفروض وإرادى، وأصحاب نظرية الصمت يتطلعون إلى المواقع المرموقة بعد ما أثبتت التجارب أن الصخب فى الصالون يأتى بعكس اتجاه الريح، وأصبح البعد عن النيون والضوء من مسوغات الترشيح للمواقع، من سمات شطار هذا الزمن (إمساك العصايا من النص) فأنت مع الحكومة وفى نفس الوقت مع المعارضة، أنت مهاجم للنظام ومدافع عن النظام فى نفس الوقت، إنها شطارة (لاعب الترابيز) فى السيرك الذى يمشى على السلك المشدود ويحفظ توازنه. ومن سمات شطار هذا الزمن الزعيق وهو من أدوات (الهتيفة) والهتيفة ببغاوات يرددون ما يقال بلا فهم أو وعى، وهؤلاء يوجودن فى حياتنا فى مناطق جغرافية كثيرة ويقبضون دائما الثمن، ربما كان ولاؤهم (للهدف) زائفا ولكن أصواتهم النحاسية العالية أهم ومطلوبة، فهم يشكلون ما يطلق عليه فى علم السياسة (ديكتاتورية الأغلبية). وفى جيلى كان الذكاء الاجتماعى محمودا ويعبر عن المرونة

الشخصية وعدم الانغلاق، أما ذكاء شطار هذا الزمن فهو (ذكاء استغبائى) أى مطلوب الغباء والطرش والخرس، فإذا حققت هذه المعادلة اجتزت الامتحان وصرت (منهم)، فى قاموس شطار هذا الزمن الرجل يستخدم فهلوته ويستثمر ولاءه، والمرأة تستخدم جمالها وتضاريس الجسد والتلويح بالأمانى، صحيح تقول أمثالنا العامية (ما يقع إلا الشاطر) والشاطر الذى يقع هو الذى يخالف دستور الشطارة، فيعترض على خطأ أو يصوب مسارا أو يكف عن النفاق أو ينسحب من طابور الهتيفة، ربما ثاب إلى رشده وأفاق من غفوته و(ارتد) إلى طبيعته فهذا المرتد له بئس المصير ولم يعد (منهم).

الذين يشعرون بالغربة ولا يملكون مهارات شطار هذا الزمن - وربما كنت أنت واحدا من هؤلاء - يهاجرون إلى مجتمعات تضع الكفاءة معيارا أساسيا وتعتبر كفاءتك قمة الولاء، وإذا لم يهاجروا وراء البحار هاجروا إلى (الداخل) وكثيرا ما (ينسحبون) من المشاركة ويشكلون أغلبية صامتة.

شطار هذا الزمن يمارسون أعمالاً (عصرية) منها (أبواق لفلان أو علان)، أو (هتيفة) تحت الطلب، أو (كتاب تقارير) أو (خدمات غير منظورة).

وما عاد الطالب المستوعب بل أصبح المسطح، وصار المنجد يغش القطن بمواد أخرى ربما كانت بقايا ملوثة من المستشفيات، وصار المحامى الشاطر من يتولى قضية موكله وخصمه، وأصبح الطبيب الشاطر من يكشف على ثلاثين مريضا فى نصف ساعة بالفراسة، وصار لاعب الكرة يبحث عن الاحتراف واللعب فى أندية تدفع باليورو، وصار كناس البلدية يتحرك فقط إذا ظهر حضرة الملاحظ.

هل هى الكثرة العددية للسكان وراء هذا (الهبوط)؟ إن الصين تكذب النظرية.

هل هو الفقر؟ إن الهند أفقر وتملك القنبلة الذرية.

هل هو المال فى غير موضعه؟ إن ماليزيا صارت من النمور السبعة.

ويا ليت ناقدنا الراحل العظيم الذى يحظى بالتعتيم عليه د. لويس عوض كان حيا، لكتب فصولا جديدة من كتاب الأقنعة حيث يرسم بالكلمة المعبرة صورا لشخصيات بيننا، دون أن يذكرها بالاسم، هذه الفصول عن شخصيات الفوريجى، الفهلوى، المغنواتى علينا، المهياص، الكليم، الترياس، المستعفى، المنشار، الهباش، الطبال، كداب الزفة.

إنها مفرمة الحياة!

لست أدرى لماذا كان يروق لى الجلوس إلى الكبار عمرا وعقلا منذ صباى، هل كان عطشا للمعرفة أم رغبة فى التزود بوقود تجارب الآخرين؟ لا أدرى تماما، لكنى لم أكن أحب مخالطة أبناء عمرى فهم يسحبون ولا يضيفون، ولو كنت أتأمل تركيبة وجدانى، فأنا مدين لكثيرين زرعوا طريقى بشجيرات التفكير وكبرت ولازمتنى سنين العمر.

الجلوس إلى العقول الكبيرة يجعلنى أشعر بظل شجرة وارفة باسطة بفروعها على الأرض ساعة العصارى، أحب ساعات النهار إلى نفسى، وقد تعلمت الإصغاء لأنه (حديث جيد) على حد قول مثل صينى، ورغم أنى أحببت رياضة الجد الذهنى منذ أن عرفت طريقى إلى الحرف والكلمة، فقد كنت أنصت بكل جوارحى أمام عقل يتكلم وكأنى (إناء فارغ)، وقد كسبت صداقة هؤلاء الكبار برغم حداثة العمر، فلما رحل بعضهم عن الحياة داهمنى حزن خاص ابتلعته الحياة فى ثوان وكأن إيقاعها اللاهث يقول لى (لا وقت للحزن)، لم يفقد الحزن جلاله، ولكنه فقد تلك المسحة الخريفية فيه.

وكان الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول لى (تعلم كيف تمضغ جيدا ما تأكل لسببين: الأول تذوق متعة الطعم والثانى مدى الاستفادة منه للجسم)، وكنت أرى عبد الوهاب حين يجلس إلى مائدته لا يفعل شيئا غير (المضغ الجيد) أتذكر هذا وأنا أتناول وجبتى بسرعة والموبايل على أذنى وبين أصابعى قلم أكتب به شيئا، وأفرغ من الأكل دون مضغ جيد أو تركيز أو تذوق.. إنها مفرمة الحياة!

كان يوسف السباعى يقول لى إنه يحلق ذقنه كل صباح على مهل ويكفى إيقاع الزمن السريع، أتذكر هذا وأنا أحلق ذقنى بسرعة مخيفة وكأن أحدا ورائى بكرباج، وقد أجرح نفسى لأنى أحلق وأفكر فى آن واحد، وتختلط الحلاقة بالتفكير دون تركيز فى أحدهما.. إنها مفرمة الحياة!

كان إحسان عبد القدوس يقول لى (اتبع اتجاهات بوصلة قلبك) لكن الدنيا تغيرت يا سان - كما كان يناديه أقرب أصدقائه - تغيرت وتعقدت وتشابكت العواطف بالمصالح، وصرت أحلل تصرفات النساء - فى زمان الموبايل - فأجدهن بوجوه خمسة، وأكتشف يا عزيزى إحسان أن الرومانسية اختنقت ومشاعر الحب تقلصت ورفعت المصالح رايتها وتوارى الحب إلا قليلا ولم تعد بوصلة قلبى كافية لأتبعها، لقد تجسدت أنانية النساء وصار نموذج المرأة التى تقول (ليتنى كنت زرار قميص لحبيبى) فولكلور مجهول الهوية، صارت نظرية نساء الموبايل هى (خد وهات).. إنها مفرمة الحياة!

كان سلامة موسى المفكر الراحل يقول لى (لن تستقيم معادلة حياتك وأنت تجرى، لا بد أن تتوقف برهة لتفكر أو تتأمل، فبدون التأمل يصبح الإنسان بهيما)، قال هذا فى الخمسينيات ولا أدرى أى (جريان) هذا بالقياس إلى الجرى فى هذا الزمن حيث ترمح الأيام وتغافلنا السنون، فلم تعد الحياة بسيطة بل صارت عبئا على القادرين قبل غير القادرين، أصبح سقف الطموحات شرها وصارت (القناعة كنز لا يفنى) أكذوبة، واختفت من المدن الكبيرة لمسات المجاملة والعشم وما عادت الخطابات المدونة بخط اليد لغة تواصل بل صارت رسائل الموبايل تؤدى الوظيفة فى أقصر وقت دون جهد. وسط هذا الزمن اللاهث أين وقت التأمل والوقوف برهة للتفكير، فالناس لا تجمعها إلا الأفراح أو سرادقات العزاء، تجدهم يتبادلون القبلات ثم ينفضون حتى صالة فرح أخرى فى فندق أو سرادق عزاء فى مسجد، اختفت الحياة الاجتماعية وزيارات الأهل.. إنها مفرمة الحياة!

كان مصطفى أمين يقول لى (انجح بالتقسيط) وكان يقول (العتمة هى تجاهل ما تفعل)، وعندما أتذكر كلام مصطفى أمين أدرك كم كان محقا وهو يقول إن النجاح المدوى مردوده سيئ، ولكن نصيحته فى زمن يأتى فيه النجاح بصعوبة وبجهد مكثف وبإتقان، وما عادت هذا السمات لازمة - الآن - فى زماننا يا مصطفى بك، صحيح سمعتها منك وأنا أنحت فى الصخر، ولكن النجاح الآن صار بالإلحاح والصوت العالى وقليل من الجهد، وكثير من الولاء، صرت أحافظ على قيمة احترام الجهد ولو كنت أخاطب مائة إنسان، صرت أمتنع عن التهريج مهما يكن ثمنه، صرت أدافع عن وجهة نظرى مهما كان رأى

القطيع، صرت أواجه لا أوارب، صرت مخلصا لقيم تعلمتها من موسى صبرى وجلال الحمامصى وأحمد بهاء الدين، زمان ربيع الصحافة الذى نحيا على ذكراه، ففى يوم من الأيام طالنى الغضب الشمولى لإيمانى بموقف وعدالة قضية المدرسين وطالنى الغضب الكلثومى يوم قلت إن فيروز هى البهجة والجمال، صرت الآن، يدهشهم منطقى فى الأشياء ويدهشهم التزامى بالموعد، وربما ظنوا أنى مريض، صرت أواجه - بعقل - الهوجائية والتكالب للظهور فى الصورة، وفى سبيل ذلك أدفع من صحتى وهنائى الكثير.. إنها مفرمة الحياة!

نسيت أن أعاتب صديقا على تبدل نفسيته بزاوية ١٨٠ درجة بعد أن جلس على كرسى سلطة، فاتنى عزاء أحد رفقاء رحلة العمل بسبب الاستعداد وقتئذ للسفر، اعتذرت عن عدم حضور حفل زفاف ابنة صديق عمر لانشغالى فى التصوير لبرنامج تليفزيونى اقترب موعد عرضه، ولم أقابل ابنتى خلال فترة إعداد أوراق ومستندات الضرائب لتقديم الإقرار السنوى، أجلت زيارتى لطبيبى ٥ مرات لأسباب تافهة، قررت المشى يوميا نصف ساعة والقرار من عام ولم أنفذه.. إنها مفرمة الحياة!

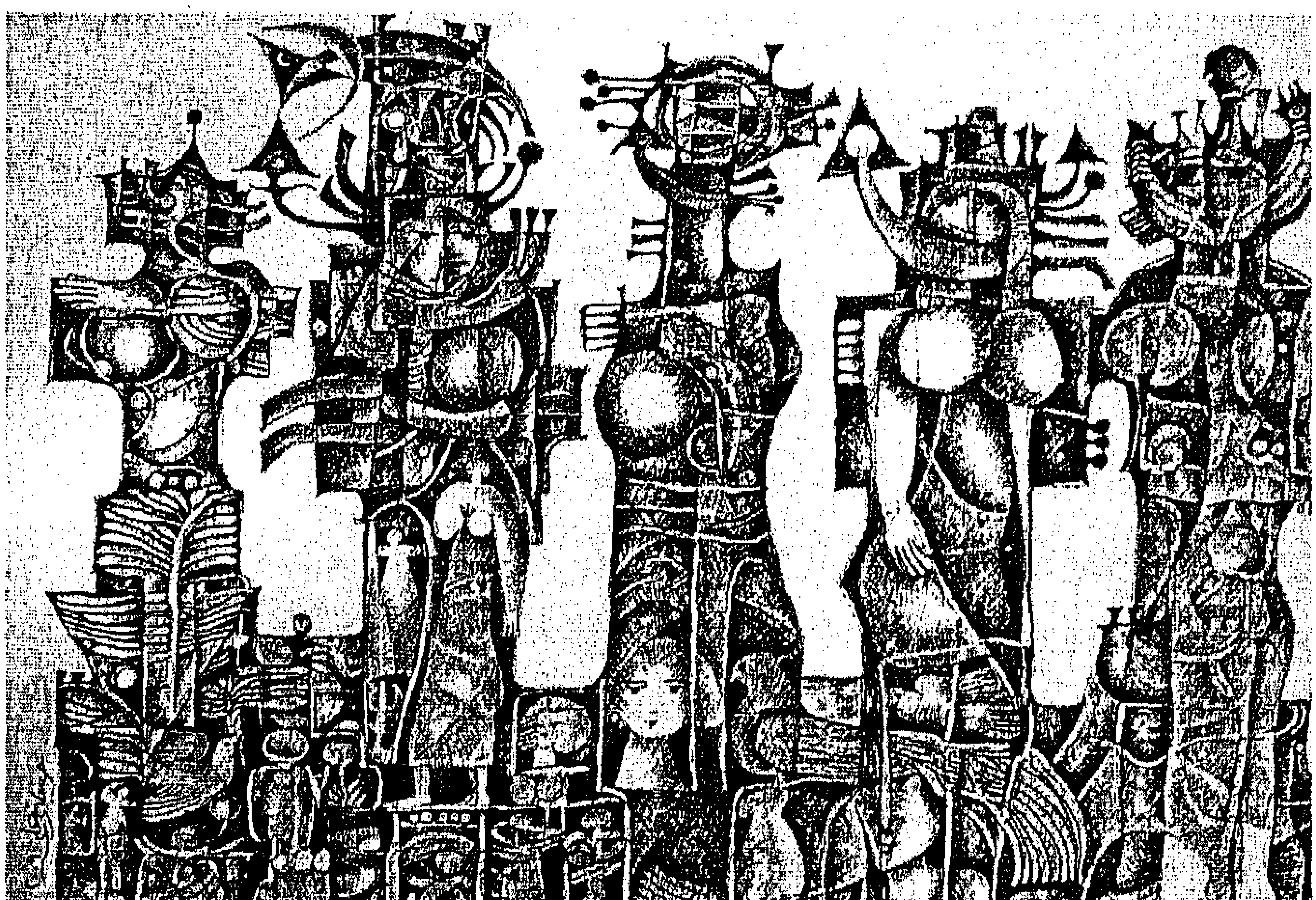

هل هو اليأس أم التحديق أكثر؟

عزيزى القارئ اللبيب الذى كتب يقول لى (بين سطورك يسكن شيء من الأسى وربما كانت كلماتك مبتلة باليأس)، وأقر وأعترف أنك شرحت حالتى أكثر منى وجعلتنى أقف لأرى نفسى فى مرايا الذات، حيث نهرب منها لفرط صدقها وكلنا بلا استثناء - حتى أنت - نكره الصدق الصادم، نحن جميعا ممثلون على مسرح الحياة بلا نصوص، تختلف أدوارنا ونؤديها ببراعة حتى لو تقاطعت مصالحنا مع مصالح الآخر، وفى الرحلة سقطت القيم وتقلصت الشهامة وتحجرت الدموع فى المآقى، ونبتت شجيرات اليأس، أهو اليأس أم الواقع بلحمه وترابه؟ أهو اليأس (مساءلة الذات) كما قال لى الصديق د. فوزى فهمى؟ أهو اليأس أم (مرثية الزمن الجميل) كما كتب شاعرنا عبد المعطى حجازى؟ أهو اليأس أم تفاؤل من رحم التشاؤم كما كان يردد صلاح عبد الصبور؟ أهو اليأس أم سقوط الأقنعة كما يرى آرثر ميللر الأمريكى؟ أهو اليأس أم تلك الصدمة الحضارية؟

نعم، أنا أصرخ صراخى فى الصدق، لا لأنى مثالى النزعة أو حارس للقيم، ولكن لأنى أرى البشر عراة فلا جدوى من الملابس والعطر وأبهة المنصب ومظاهر الثراء، والقبح يقطر من أصابعهم، يلونون الحقيقة بألوان الطيف ويزيفون الواقع بالصوت العالى. نعم أنا أدق على طبلتى ليلا ونهارا كالمسحراتى ولكن دقات الطبلة تذوب فى رنات الموبايل، كثيرا ما أحتمى ببيتى - قلعتى - من رياح النفاق ورخيص الكلام وأسطوانات الكلمات المعادة

والمشروخة، وليست هذه دعوة للاعتزال، أو موجة غربة، داهمتني بقدر ما هي تأمل للواقع المعيش، هل أخطأت حين توقفت قليلا ألتقط أنفاسي في زمن لا يسمح لك بالتنفس؟ هل أخطأت حين وقفت في وجه القطيع أصرخ هذا بهتان، هذا تزوير للحقيقة، هذا خوف من مصائر مجهولة؟ وليست كلماتي مبتلة باليأس يا عزيزي القارئ اللبيب، ولا يسكن الأسى بين سطوري، بل هو (تحديق) أكثر مما ينبغي، والتحديق في الواقع أمر غير مرغوب.

تماما مثلما أدعوك للتحديق والتأمل في مزرعة خنازير، ستفوح روائح كريهة تسد أنف الشمس، سترتع القمامة أمام العيون حتى نعتذر للقمر أن ضوءه يغمر هذا المكان، سترى الخنازير تهرول إلى بقايا الإنسان تلتهمه فتكره هذا اللحم، ستدرك مدى التوازن البيئي الذي يربط بين الخنازير التي تأكل الفئران، فإذا اختفت الخنازير تكاثرت الفئران، ستدرك أن للقبح وظيفة، سترى أن التكنولوجيا أهدتنا الإيقاع اللاهث وشغلتنا عن تمحور الفيروسات بألف شكل وشكل، ستكتشف تلك الحرب الخفية بين الفيروسات ومناعتك، ستدرك أن مزرعة الخنازير ليست بعيدة تماما عن الكتل السكانية، بل هناك (مزارع خنازير) داخل الكتل السكانية حيث تمحور بعض البشر وأخذ شكل الخنازير، بكل قبحها وكونها وسيطا عائلا لكل الفيروسات.

عزيزي القارئ اللبيب: صف لي دموع هذا الزمن، إنها كريستالية الشكل، لكنها تدمع بالريموت كنترول! لكني عشت وما زلت، الدمعة التي تغافلني على خدي، والدمعة التي ذاب جفنها كما وصفها كامل الشناوي، والدمعة التي - من فرط الكبرياء - تلمع في العيون ولا تسقط! صف لي امرأة هذا الزمن، إنها محددة الأهداف بلا قلب، من أول نظرة للإيقاع بك إلى اختيار اسم ابنك منها! إنها ديكتاتورية في ثياب ديمقراطية فضفاضة! إنها سيدة قرارها حتي ولو طلبت صوتك! إن لها (بورصة شاعر) تتوقف علي سعر الدقيقة العاطفية والطلب والعرض! إن لها مؤسسة خاصة بأجندة خاصة لا تراها ولا تسمح أن تدلف إليها مهما كانت مكانتك! ولو وقفت على بابها تصيح، خرجت تقول بدلال: هل تعادي طموحي؟ صف لي كبرياء هذا الزمن؟ إنه يتمدد وينكمش حسب الحاجة العصرية! صف لي قيم هذا الزمن؟ صف لي العفة في هذا الزمن؟ ليس من بينها عفة العقل! صف لي المال في هذا الزمن؟ إنه النفوذ والسلطة! صف لي الخوف في هذا الزمن؟ إنه الخوف من الغد! صف لي الإرادة في هذا الزمن؟ إنها قوة بيد غيرك برغم أنها أفضل الفضائل كما ذهب يحيى حقي! صف لي (المناصب) في هذا الزمن؟ إنها لعبة الكراسي الموسيقية! صف لي (دكان عطارة) هذا الزمن؟ إنه يبيع الصبر أكثر! صف لي (جامعة) هذا الزمن؟ إنها (جائعة

للبحث والعلم)! صف لى نائب (برلمان) هذا الزمن؟ إن حصنه حصانته! صف لى الجهاز الحكومى هذا الزمن؟ إنه فندق بلا أبواب!

عزيزى القارئ اللبيب، ستقول لى أراك متشائما؟ سأقول لك إنه تحديق أكثر فى الحياة! ستقول لى أطفأت الأمل؟ سأقول لك: بل أشعلت نور الحقيقة! ستقول لى (لا تتعامل مع التفاؤل)، سأقول لك: لا أمد يدى لأصافح الوهم! ستقول لى (هناك نقط بيضاء)، سأقول لك: أظهرتها بوضوح البقع السوداء! ستقول لى: (نظارتك سوداء) وسأقول لك: ترى السواد أوضح! ستقول لى (ألم يكن فى زمانكم قبح ما)؟ سأقول: كان المشهد جميلا مع بعض الظلال!

ربما تسألنى (هل تقلصت الصفوة) كما يقول هيكل؟ سأجيب: تقلصت لتنمو الطفيليات! ربما تسألنى (هل من أمل يلوح فى الأفق)؟ سأجيب: انتظر الفجر! ربما تسألنى (هل تفتقد أصدقاء)؟ سأجيب: أفتقد الصداقة.

عزيزى القارئ اللبيب: إذا كان الأسى يسكن سطورى ـ كما استشعرت ـ وكلماتى مبتلة باليأس ـ كما أحسست ـ فلعله القلق على مستقبل الأحفاد، لعلها إرهاصات قلم له بصيرة، لعلها رعشة الخوف على جيل سيعتلى الكراسى، لعلها هزة للإفاقة من الغفوة، لعلها سفينة نوح للهرب من الطوفان، لعلها ترتيلة أن الآتى أفضل.

نجوم الكرة.. وعلماء مصر!

صحيح أن الكتابة مهنة شاقة ـ باستثناء صيد التماسيح ـ كما قال مفكر، لا أذكر اسمه، وصحيح أن الكتابة مغامرة فوق الورق، وصحيح أن الكتابة (حمل عسير) لا يخرج من أحشاء الكاتب ابن ٧ أشهر، وصحيح أن الأفكار هى ومضات شاردة أظل أطاردها بمهارة صياد الغزلان حتى تقع واحدة منها فى شباك قلمى.

أردت أن أصحبكم معى فى رحلة تتكرر كلما جلست أكتب وهى: ورق أبيض يستفز قلما للبوح، ولكن قبل الإبحار فى الفكرة لا بد من إيضاح مهم وهو أننى أنطوى على احترام لكرة القدم تلك الساحرة التى لحست عقول الشعوب، لا بد من إيضاح أنى أتابع ـ فضولا ـ مباريات مصر، وأفرح للانتصار وأحزن للهزيمة، لكنى لا ألطم ولا أكتئب ولا أعتزل الناس ولا أهاجر إلى داخل نفسى! ومثلما كنت معجبا بنجومية صالح سليم وبعده شدتنى مهارة الخطيب وفتنت بثعلب الملاعب فاروق جعفر، احتل أبو تريكة آمر الكرة على مشط قدمه، مساحة فى قلبى! ولست أهلاويا ولا زملكاويا ولا إنبيا ـ نسبة إلى فريق إنبى ـ ولكنى ـ مثل بقية الناس ـ أتابع أحزاب الكرة ـ فى غياب أحزاب السياسة ـ فالوطن يلعب لوحده!.

ولأن الكرة هى دراما الحياة، أصبح البحث عن فرحة (الأجوان) ضرورة نفسية وأفراحنا شحيحة، البلد كله صار مستطيلا أخضر وأصبحت الكرة اهتمام كل الأعمار،

وأصبحت صيحة الجماهير عند اهتزاز الشبكة هدفا ساميا يفوق أى شىء حتى لقمة العيش، لقد سادت ثقافة الكرة فى حياتنا، ولست أريد أن أحصى عدد الفضائيات الكروية ولا عدد البرامج الكروية ولا عدد مقدمى البرامج الكروية ولا عدد الصفحات الكروية فى الصحف ولا عدد معلقى المباريات الكروية ولا حجم الخلافات بين الأندية الكروية، ولا أريد أن أتوقف عند مبالغ شراء الأندية للنجوم الكرويين، إن حجم الكرة فى مصر أكبر من أى اهتمام آخر، وأصبح (اللعيب) هو نموذج النجاح أمام الأطفال والصبية وتراجع موقع الطبيب والمهندس! صار لبعض الأندية قنوات فضائية ودخل عالم الكرة البزنيس، قبل المباراة وبعدها لا يتحدث الناس فى المقاهى والقطارات إلا عن فلان (الشويط) وعلان (صانع الأهداف)، صار نجوم الكرة فى مصر هم نجوم المجتمع وظهرت صحف كروية ترصد أخبارهم وتحركاتهم، صارت الكرة اهتماما طاغيا فى حياة الناس بينما تسطحت عقول الشباب فى زمن الموبايل.

ليس ذنب أبو تريكة أن يأتى الاهتمام بعلماء مصر فى ذيل الاهتمامات، وفى جيلى كان الراحل الكاتب صلاح جلال يزرع فى مدارس مصر بطول الوادى وعرضه (نوادى العلوم)، كان جلال يحلم بإشاعة ثقافة العلم، كان الهدف البعيد وجود حالة اهتمام بالعلم، وماتت أندية العلوم فى مطلع الألفية الثالثة وحلت الكرة، وانحسرت الثقافة وصارت صفحاتها القليلة تطل على القراء باستحياء.

إن ذاكرتنا (مثقوبة) وضعيفة أمام نجوم صامتين أعطوا يوما لأننا عشاق الصوت العالى، وقد لا يتذكر صلاح جلال إلا أولاده الذين زرع فيهم حب العلم وشبوا على احترامه، بينما الآن سادت حالة تسطيح عام بين الشباب يثير الأسى، وتقلصت أعداد الطلبة الراغبين فى الكليات العلمية حتى كلية الهندسة، حيث يدرس البعض فى قسم الجيولوجيا وعيونهم على شركات البترول التى تدفع مرتبات عالية كما اعترفوا لى! وصار خريجو كلية العلوم يتامى بلا عمل أو أمل بل أصبحت كليات العلوم فقيرة الإمكانات والتجارب وأصبح من الطبيعى أن يعمل خريج طب أو هندسة أو علوم فى الفنادق والسياحة، لأنها تدفع أضعاف مرتبه من الدولة، وتقلصت الدوريات والبحوث والندوات العلمية، فقد تنامت ثقافة جديدة أن الأمور العلمية ثقيلة ودمها ثقيل، ونظرة على شاشات التليفزيون وفضائياته سترى أى نجم ولو ٣ نجوم (يلعلع) ويأخذ مساحة من البث لا يحلم بها عالم يعمل فى صمت ولم تسلط عليه الأضواء بعد، سترى أى نجمة مفعوصة بنت يومين تتكلم وهى مجعوصة على الكرسى ما قد لا يتاح لأستاذة هندسة كيمياء، وستعلم يا

ولدى أن اهتمامنا بالعلم أو العلوم أو العلماء هو وهم دخان.

لدينا (يفط) علمية وليس لدنيا (جدية) ليعود لعلماء مصر الاعتبار والاحترام.

إن زويل وفاروق الباز ومصطفى السيد ومجدى يعقوب، أوسمة على صدر مصر نتباهى بها لا أكثر، وكل جهود هؤلاء فردية نابعة من قلوب مصرية، وإذا كان أوباما رئيس أمريكا قد اختار زويل ليكون واحدا من مجموعة هدفها (صيانة أمريكا) فالخبر دلالته أننا لا نحسن (صيانة) علمائنا، إن مصر لن تنهض إلا على أكتاف ثورة علمية، إن التقدير لقدم أبو تريكة كبير ولكن التقدير لأى عالم مصرى خلف أنابيب الاختبار أكبر، والمجتمع يمنح أبو تريكة اهتمامه ونفس المجتمع لا يحفل بعلماء مصر المظاليم، إن البحث العلمى جزء من اهتمام وزير التعليم العالى، وميزانية البحث العلمى فى إسرائيل تخرج لسانها لميزانية البحث العلمى فى مصر.

المجتمع - اليوم - يجرى ويلهث وراء الموضة والصراعات فى كل الاتجاهات وما عاد أحد يتوقف عند بحث علمى يحتاج وقتا حتى تنضج نتائجه.

من هنا دق الإحباط على باب علماء مصر، وهم يرون الضوء والمال يذهب لنجوم الكرة ثم نجوم الفن مرورا بنجوم الغناء والرقص الشرقى.

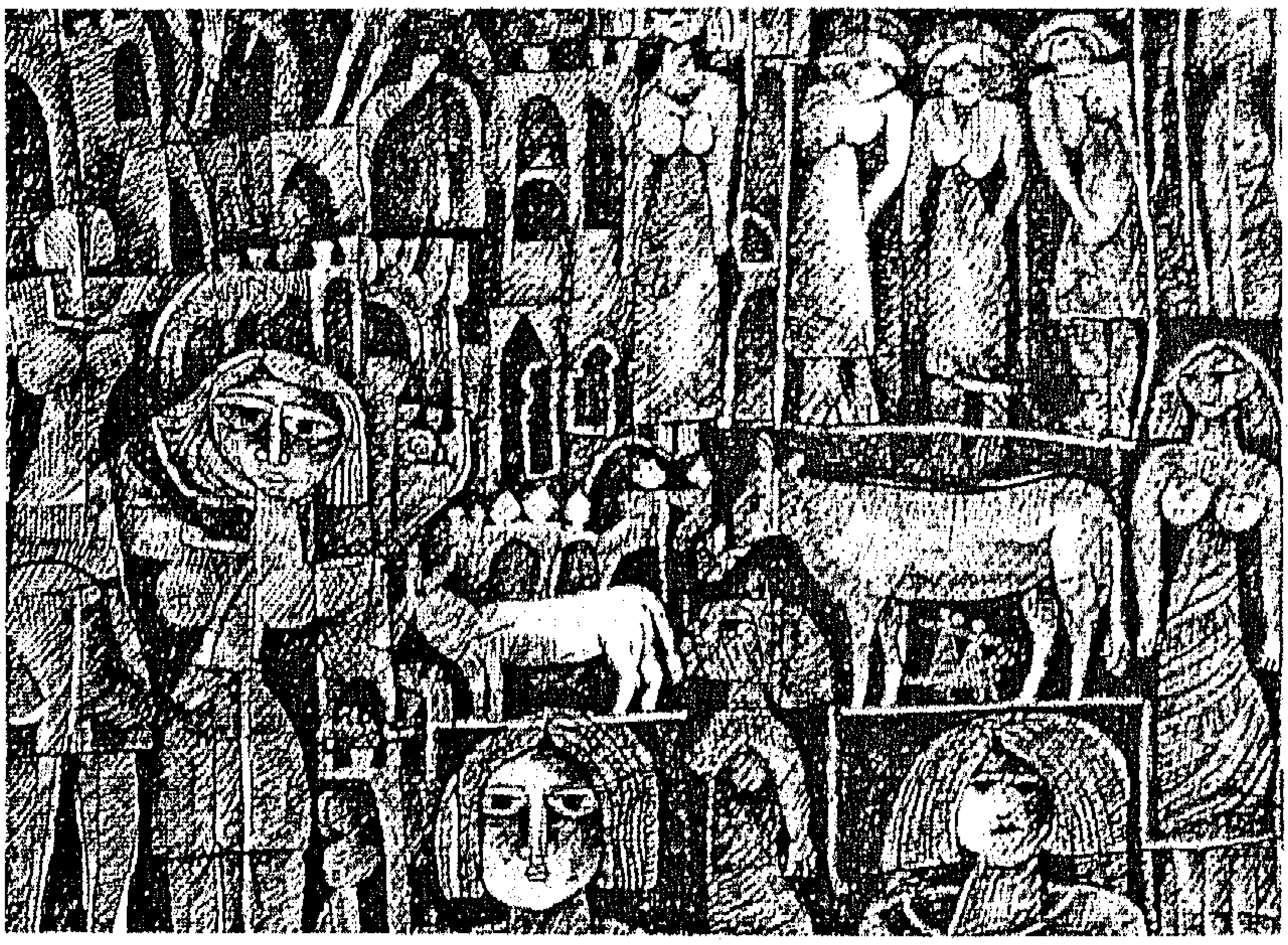

السيارة ٢٨٥ إسعاف!

ليست (السيارة ٢٨٥ إسعاف) فيلما لخالد يوسف.. يهوى بمطرقته فوق رأس السلطة وإن تمنيت فى قرارة نفسى أن يشارك بالصورة - لغة المخاطبة الأكثر تأثيرا - فى نشر ثقافة الرحمة التى أدعو لها، وحتى لا يتبادر إلى الأذهان أننى أدعو بالرحمة للمحكوم عليهم بالإعدام، فأنا أمتثل لحكم محكمة لها التوقير والهيبة، بعد أن نقلنا قاعات المحاكم إلى الشارع واستديوهات الفضائيات واحترف بعض المحامين تفجير (القنابل) فى وجه المشاهدين، ولا أطالب بثقافة الرحمة لأصحاب مزارع الخنازير التى سيقت إلى الإعدام، فهناك من يدير الأزمة حفاظا على صحة جموع الناس وليس لمصلحة حفنة تملك مزارع خنازير فى الوادى، فالمجتمع - فى غياب مشاركة سياسية أو مجتمعية أو مدنية - أصبحت ثرثرته عالية النبرة بين التشكيك والتحريض وإطفاء الكلوبات، لقد افترس الناس اهتمامات، ليست الاهتمامات التى تبنى مجتمعا.

وكنت أركب سيارتى عصر الأحد، حيث المجتمع كله مشحون للترقب لمباراة الأهلى والإسماعيلى، والسيارات على كوبرى أكتوبر متستفة وتتحرك ببطء والبعض يقود سيارته بطريقة بهلوانية، ليلحق الماتش فى بيته، ومن بعيد، يجىء صوت سرينة شرطة أو إسعاف، الصوت مزعج للغاية ولكن السائق يدوس على السرينة ربما كان بداخل سيارة الإسعاف من ينزف أو أنبوبة الأوكسجين فى أنفه، المهم أن سيارة الإسعاف تحاول أن تفلت من

الحصار ولا فائدة، انفطر قلب أحد أقارب المصاب وصاح (الرحمة يا ناس) كان الملهوف يريد طريقا لسيارة الإسعاف ٢٨٥ ولكن كل الطرق مسدودة، سمعت سائق تاكسي يصرخ عايزين نلحق الماتش يا جدعان) واختلطت بلغة السينما العبارات: الراجل دمه بيتصفى، ربنا يقويك يا أهلى، سكة للإسعاف يا استاذ، ينفخ فى صورتك يا إسماعيلى، يا ناس ساعدوا الإسعاف يروح أقرب مستشفى، ممكن أوى تبقى لعبة من سواق الإسعاف علشان يلحق الماتش. توقفت عند بعض الكلام الذى اختلط ببعضه وخصوصا ذلك الذى شكك فى أن سيارة الإسعاف تحمل أحدا داخلها! وتذكرت أننى حققت تليفزيونيا موضوع البلاغات الكاذبة لمرفق الإسعاف، وكيف تمارس سلبيات بدون تفكير فربما - من فرط البلاغات الكاذبة - لا يلتفت لبلاغ جدى بالفعل، وبنفس المعيار كان بعض سائقى سيارات الإسعاف يستخدم السرينة ليفسح لنفسه طريقا وسط الزحمة وسيارات الإسعاف لا تحمل مصابين، وآلمنى التشكيك فى مهمة سيارة تنقذ روحا، لكن المشكلة فينا وفى عدم الجدية التى نأخذ بها الأشياء.

ما زالت سيارة الإسعاف تجاهد بالسرينة المزعجة والصياح والدق على صاج العربيات، ولا تزال أسراب السيارات الأخرى تجاهد لتلحق الماتش، ولا أتوقف عند الشغف الكروى فهى ظاهرة أفرزتها الأحزاب الورقية، وكل شعوب العالم - بلا استثناء - تعشق كرة القدم ولكنها شعوب جادة لا تصنع من نجوم الكرة (صفوة عقول) حيث يجلس النجم الفلانى وأمامه مائة ميكروفون لمائة قناة فضائية ليعلن إن كان يعود للاعب مصر أو يبقى محترفا فى إنجلترا، ولا أظن أن مجدى يعقوب أو فاروق الباز أو مصطفى السيد أو أى عالم رياضيات أو جيولوجيا قد جلس وأمامه عدسات مائة قناة فضائية أو محلية، إنه زمان الكرة، والتركيبة النفسية للشعب المصرى بكل فئاته العمرية مغروس فى الكورة وسنينها.

فمن أين تأتى الرحمة بسيارة إسعاف تحمل مصابا ملهوفا للعلاج؟ تذكرت بعض التصريحات التى أسمعها وأقرأها منذ زمن وهى (الإسعاف الطائر) فهل الإسعاف الطائر حقيقة أو وهم؟ وإذا كان حقيقة، فهل هو للناس الغلابا أما للبشر السوبر؟

فى العالم المتقدم (حارة فى الطرق العامة) أى طريق، مخصص للشرطة والإسعاف والمطافئ.. وتنفذ بالتزام شديد وإذا سولت نفس أحدهم لاختراق القواعد والمرور فى هذه الحارة، سحبوا الرخصة ودفع الأفندى غرامة كبيرة، ليس هذا اختراعا، فتخصيص حارة فى الطرق العامة سلوك متحضر يعطى فرصة لسيارات الطوارئ بالمرور دون توقف، هذه الحارة دائما خالية مهما كانت هناك أعظم المباريات العالمية، كيف الوصول لهذه الخطوة؟ باتفاق بين

وزراء ثلاثة: وزير الداخلية ووزير النقل ووزير الصحة، وسوف تحدث اختراقات ومخالفات عند تنفيذ (حارة الطوارئ) لا بأس فإن الغرامات والأحكام سترغم على احترام القانون، تماما مثلما حدث للسيارات التى تسير عكس الطريق ويتعرض قائدها لقضية وحبس.

نحن شعب يخاف من الأحكام ومن الغرامة، أما كيف نزرع ثقافة الرحمة فى الناس؟ إنها مهمة خطاب دينى متسامح لا يلجأ للوعيد والتهديد، ولست أدرى السبب فى التلكؤ لتخصيص حارة الطوارئ فى طرقنا العامة وفوق الكبارى، إنه مجتمع قاس لا يرحم المعاقين لا فى الطرق أو فى وسائل المواصلات. نعم، إننا نملك الآن فى مصر سيارات إسعاف متقدمة جدا ومجهزة جدا، وبمسعفين متدربين جدا، أما الطرق والشوارع والكبارى فهى غير مجهزة ولا مؤهلة ولا صالحة لمرور سيارات الطوارئ من نجدة إلى إسعاف إلى مطافئ، ومن باب ثقافة الرحمة أقول إذا كان الأهلى - فى ليلة المباراة - قد كسب الإسماعيلى بهدف وخسر الإسماعيلى، فلست أتمنى أن يكون المصاب المنقول فى سيارة الإسعاف ٢٨٥ قد خسر حياته، فالوقت له ثمن، إذا كانت لدينا هذه القناعة.

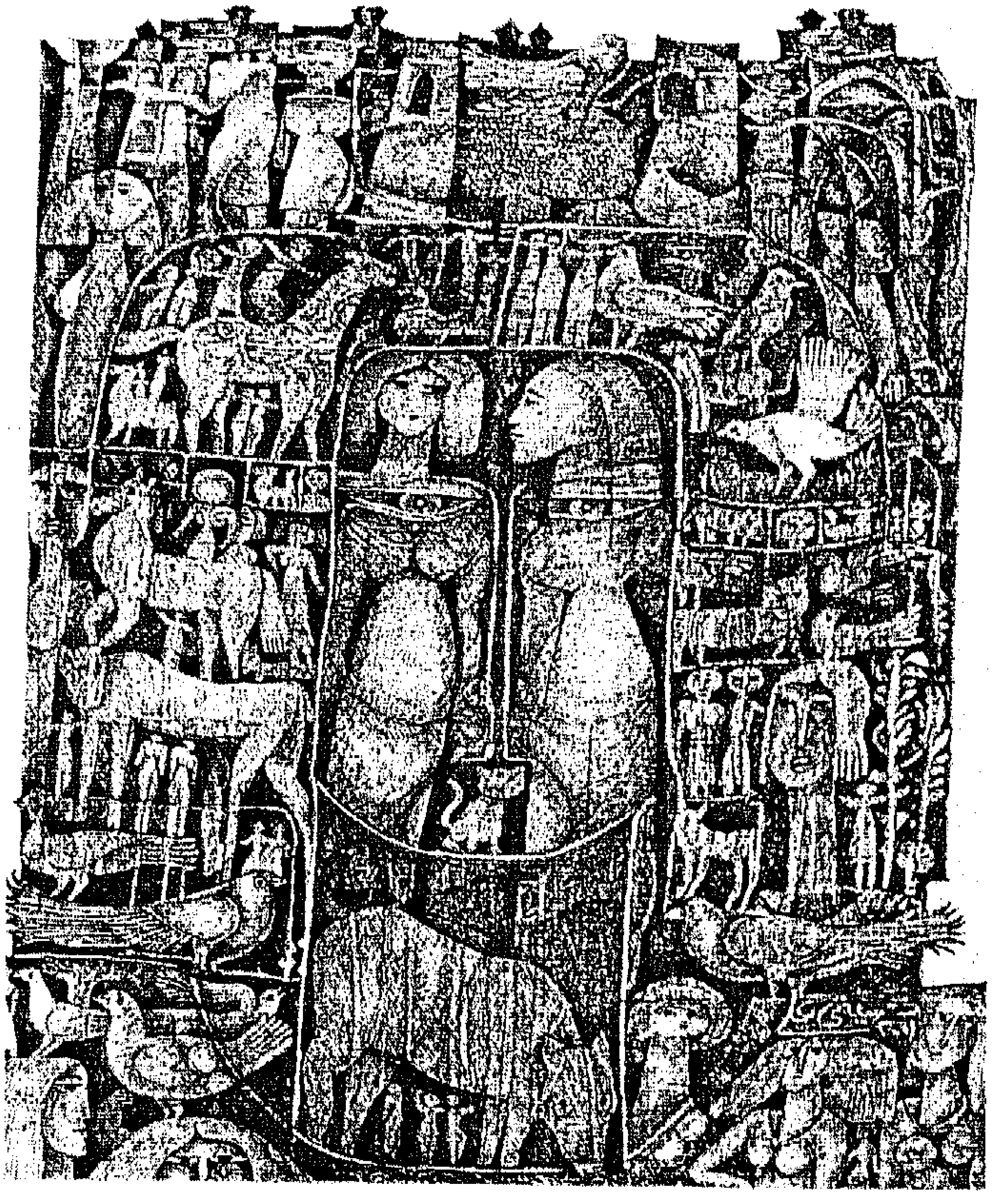

هل جفت ينابيع مشاعرنا؟

النساء يشكين من جفاف معاملة الرجال وكأن ينابيع المشاعر قد جفت، والرجال يفتقدون رقة النساء بعد أن أصبح للحب عندهن مسميات أخرى، ولم يكن مسلسل مهند التركى.. عبقريا، فهو حدوتة عادية لكنها مبتلة بالأحاسيس، ومطرزة بالمشاعر وتهز أغصان الهوى الذى اختنق فينا، ولم تكن قصة lovestory التى بيعت منها ملايين النسخ ولما صارت فيلما شاهده مليار إنسان عبر العالم، بعمل أدبى أثار جدل النقاد، بقدر ما كانت حفنة مشاعر تذرف الدمع الحنون، ولم تكن تيتانيك الفيلم سوى عمل إخراجى عبقرى لغرق سفينة، ولكنه كان أبعد من ذلك، كان (سفينة حب) رست فى ميناء الشوق واللهفة، وهزنا ذلك التشبث الضارى بالمحبوب، وعندما عرض فى مصر الفيلم الفرنسى لكلود ليلوش man and women شاهدته عشرات المرات فقد كان الحوار فى الفيلم قليلا والصورة هى الباقية فى رأسى، همسات العيون وعناق الأكف ولهفة الأصابع وشوق الأنفاس والخوف الدامى من الفراق، وحين جاءت لحظة فراق هى إحدى مفردات قاموس العشق، غافلتنى دمعة انسابت فى سكون فوق خدى، دمعة، أفتقدها اليوم بعد أن داهمتنا سينما القتل والسفك والتمثيل بالجثث.. التى سرقت مشاعرنا وذبحت أحاسيسنا من الوريد إلى الوريد.. وإذا كان الحرف والنغمة والخط (شهود العصر) على الأزمنة، فكتابات هذا الزمن وأغانيه ولوحاته العبثية تشهد أنه عصر يعانى من أنيميا الرومانسية،

الرومانسية التى أسستها فى أفئدتنا أم كلثوم وزرعتها فى شرايين قلوبنا فيروز وشاركنا كل قصة حب عشناها عبد الحليم حافظ، وتنزهنا فى بساتينها مع إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى، فقد بكى نساء مصر يوما عندما مات (ممدوح) فى قصة لا تطفئ الشمس، وذرف الرجال الدموع عندما احترق كوخ الحب فى (إنى راحلة) ليوسف السباعى.

كان جيلى يهتز شوقا عندما تغنى ليلى مراد (يا حبيب الروح فين أيامك) أو تشدو هدى سلطان (إن كنت ناسى أفكرك). والظاهرة اللافتة للنظر الآن هى تلك الردة لزمن الأحاسيس والبحث فى الشاشات والإذاعات عن الأغانى القديمة وأفلام المشاعر والضحك من القلب، إن أدوات العصر تسهم فى صنع وجداننا، ومنذ أن ظهر الموبايل فى أفق حياتنا، صرنا أكثر عمليين وبدأ الموبايل فى تجريف مشاعرنا، لم نعد نكتب رسائل للحبيب بحبر القلب واكتفينا برسائل الموبايل (SMS)، سرق الزحام وصعوبات الحياة زياراتنا للأحباء فى بيوتهم، صرنا (نهاتفهم) بموبايلات تنقل لنا صورهم بعدسات مثبتة فى الموبايل واتسعت الهوة بيننا وبين أحبائنا، وازدادت الجفوة وصارت الرومانسية فى بعض الصور الحياتية رومانسية مشاعرنا التى استهلكت حبر المطابع فى ورق الصحف عن زيارة أوباما لمصر ظننا منا أنه (حياخد إسرائيل قلمين) ويروح (يهد المستوطنات) ويزيد (معونة بلاده لمصر الضعف!!).

وإذا كانت الصحافة هى صوت الزمن، فإنه بنظرة واحدة للجرايد الصادرة فى أيامنا هذه، يلاحظ مدى استخدام كلمات مثل القتل والخنق والذبح ويلاحظ بشاعة جرائم الأرحام، حيث يقتل رب البيت زوجته وأولاده وهم نائمون من باب (الحب) والخوف عليهم من المستقبل المظلم! وكانت قمة المأساة فى تحور الحب، و جريمة قتل سوزان تميم.. حبا وانتقاما!

فى جيلى، كانت النظرة تترجم معانى كثيرة، وكانت (كلمة) تقلب تاريخ امرأة، وكانت الرغبة أو الصد برمش العين لا أكثر، وكان الهوى (غلاب).

هل انتحرت الرومانسية فى ظروف غامضة ولم يعثر على جثتها وقيدت ضد مجهول؟ هل أصبحت الدموع تعصى أوامر القلوب؟ هل أودعنا اللهفة والأشواق مخازن الغرام؟ هل صار الحب سهلا مثل خلع الضرس بدون ألم؟ هل أصبحت لوعة الحب مثل الفولكلور بلا مؤلف؟ هل كان كامل الشناوى يهذى عندما كتب (بعضى يمزق بعضى)؟ هل (انخلعت) قلوبنا من أماكنها؟ هل كان (عبد الوهاب) يدندن لنفسه وهو يغنى (جفنه علم الغزل)؟

أبدا، كل هذا كان إرهاصات زمن زراعى اعترف بمشاعر الحب ولوعته وكبريائه، كل هذا كان إبحارا فى القناة الدمعية لناس ذلك الزمن، تحرك دموعهم، وبدلا من أن تتجمد فى المآقى وتتسرب فى الجفون! كل هذا كان يؤكد آدمية الإنسان قبل أن يصل لمرتبة الحيوانية والهمجية فى السلوك والتصرف، فى زمان - ما قبل الموبايل - كان انتظار الحبيب لصوت وليفته متعة ولهفة، كان للعتاب حلاوته، وللصفا بعد الجفا، جماله وارتعاشته، وكان للجنس احترامه.

هل يعود للحب دقات القلب ورعشة الإحساس ودغدغة المشاعر؟

أنا أظن ذلك، فالناس يصيبها السأم من الجفاف والنجاح بلا طعم.

ففى داخل الناس حنين يهفو للشجن العذب الرقراق، وراقبهم عندما يشاهدون فيلما قديما، تئن صدور الناس (لهفة) للثم الشفاه أو سرقة قبلة على الخد، أو سرحة أصابع بين كف محب، وأجزم أن دواوين نزار وقصائد سعاد الصباح ما زال لها قارئ من هذا الجيل يتعرف على فهرس قلبه من خلال أشعارهما، لكن (خنقة) الحياة، وأزمتها الاقتصادية الطاحنة، تخنق الحب أيضا وتطحنه بتروسها الفتاكة.

إن (نقلة نوعية) فيما نقرأه أو نسمعه أو نراه سيصالحنا على أنفسنا بعد طول خصام، النقلة النوعية ليست بقرار، إنما تعبير عن احتياج إنسانى بردة للزمن الذى منح قلوبنا شهادة صلاحية، النقلة النوعية تجىء بانصراف الناس عن صحف تمجد العنف، وأغان تغتال الإحساس وأفلام طاخ طوخ، سارقة المشاعر العفيفة.

لقد حرضنى على كتابة هذا المقال، ذلك (الحزن العام الدامع) لناس مصر بكل فئاتهم الاجتماعية والعمرية، يوم رحل (حفيد الرئيس) محمد علاء مبارك، إنه بعض من أدب الافتقاد الذى لم نفتقده كشعب بعد.

في يوم ميلادي!

في يوم ميلادى، لا أدرى لماذا تقفز إلى ذهنى شطرة من بيت لقصيدة كامل الشناوى (عدت يا أيها الشقى)؟ أنا أقول إنه يوم ميلادى وليس عيد ميلادى، إذ كيف يعتبر الإنسان مرور عام من عمره عيدا؟ وعندما يجىء يوم ميلادى تهب على نسمة شجن لا أعرف مصدرها، ولكنها تهز أوراق شجرة العمر، وأنا من أسرة لم تعرف أعياد الميلاد الفاخرة، فقد كان أبى يقول لى يوم ميلادى (اعقل لأنك كبرت) وأجزم بأنى كنت طفلا جادا وعاقلا، لكن آباء جيلى كانوا إذا أرادوا التهنئة بعيد الميلاد.. جاءت بروح التأنيب! وعندما تزوجت آمال العمدة أصرت على الاحتفال الصاخب، وكنت أستعجل نهاية السهرة ولم أكن أفرح بالهدايا التقليدية فى هذه المناسبة. بعض الناس يعدون ترتيبات أعياد الميلاد قبل وقت طويل، أما أنا فأنتظر قدومه على رصيف الحياة، وعندما يصل أعانقه لا أكثر! أحيانا تصلنى دعوات لأعياد ميلاد أصدقاء، فألبى بعضها حسب عمق العلاقة وأحرص على الذهاب ومعى هدية رمزية، وقد تعودت يومميلادي علي أن أستقبلهدايا من أقلام فاخرة كفيلة بأن تكون جزءا من مكتبة مع أنى أكتب عادة بالقلم الفلوماستر، وهو قلم رخيص لا يزيد ثمنه على سبعة قروش! فالمهم ما يسطره القلم لا نوعه، هناك باقات ورد تصلنى والتهنئة مكتوبة بقلم العامل فى محل الورد.. خط ركيك والكلام أكثر ركاكة! فعندما أرسل باقة ورد لصديق فى يوم ميلاده أحرص على الكتابة بخط يدى وأختار كلمات مملوءة

بالأمل ولا أعرف لغة sms على الموبايل لأنى فشلت فى استيعاب خطوات كتابة الرسالة بحروف صغيرة تحتاج لنظارة طبية.

فى يوم ميلادى، أتذكر أنى عبرت نهر حياتى بكثير من الصعاب، فلم يكن فى قاربى مجدافا الصبر والإصرار، لكننى عبرت! أتذكر أياما كثيرة صعبة لكنها منحتنى الصلابة، وأتذكر أياما قليلة مفعمة بالسعادة، وكثيرا ما أجترها وحدى، ربما لأن أغنية عبد الوهاب ترن فى خاطرى دائما (طول عمرى عايش لوحدى) وعندما تتسلل إلى أذنى تغافلنى دمعة، بعض صعاب نهر العمر أو أغلبها كانت فى فهم الناس من حولى، فاختلاف الثقافات والبيئات يصنع صداما مع الآخرين، وقد لقننى الزمن درسا مهما هو: التكيف مع واقعى مهما كانت مرارته، طلب منى الزمن أن أكون طبيب نفسى وأعالج جروحى باللجوء إليه بعد الإيمان بسيناريوهات السماء.

فى يوم ميلادى، أقلب صفحات كتاب العمر وأتنقل من صفحة لأخرى حيث كتبت بحبر سرى اكتشافاتى وهى ليست الجدار النهائى لأفكارى، فالحياة لوحة نرسمها بالألوان والظلال، من اكتشافاتى، أن أخص صدرى فقط بأسرارى وأن أضع نسبة ما لغدر البشر، أقرب البشر! من اكتشافاتى أن نساء زماننا يلتقى فيهن الطهر والعهر، وأبدا لا أعطى امرأة مهمة ربان سفينتى لأنها قد تقودنى إلى خليج المخاطر!

من اكتشافاتى أن التأمل يحجب كثيرا متع الحياة، لأنى أعيش المتعة مفتوح العينين! من اكتشافاتى أن المال يذل أعناق الرجال وأن لكل إنسان فى الوجود (أجندته) الخاصة يعلنها أو يكتمها، لكنه يسعى ليحققها ولو اصطدمت مع القيم، اكتشفت أيضا أن صداقة السلطة باطلة لأنها مرهونة بالكرسى، حين أبحرت فى حياتى - كصفة بشرية - أدركت أن ما حققته فى سنوات العمر كان جهدا وسيرا فوق الأشواك، كان حنان أمى يضىء لى عتمة الطرق الوعرة وحين رحلت تسلحت بصلابة زرعها أبى فى كيانى، عرفت قسوة المرض وصادقت طوال السنين مرض السكر، وكانت قمة الحنان، تتجسد فى حنان - ابنتى الوحيدة - التى كانت تقوم من نومها وتتجه لغرفة نومى تدخلها على أطراف أصابعها لتسمع دقات قلبى وتطمئن أننى ما زلت حيا. بعد آمال العمدة، عرفت الوحدة ولم أعد أحفل كثيرا بيوم ميلادى ربما لأنى دربت نفسى على دروبها، صار التصاقى بالبيت أكثر لأنه (قلعتى) حيث أصبح الشارع وحشا ضاريا بدءا من سلوكيات الناس إلى الأرصفة العالية المرهقة لكبار السن.

فى يوم ميلادى أتذكر أنى عبرت محطة (السبعين) ولا تزال - بنعمة الخالق - لم تصدأ

ذاكرتى ولا أشكو من هشاشة عظامى، ذلك أنى ما زلت (مهموما) مرتين، مرة بهموم بلادى ومرة بهموم روحية، حين تنشغل الذاكرة تقف متحدية صدأ الزمن، وحين ينخرط الإنسان فى مجتمعه فاعلا، يبدو أقل عمرا مهما مضى قطار العمر.

فى يوم ميلادى، أعتز بتجاعيد الزمن فوق وجهى ولا أخجل منها ولا أذهب للشد أو المد برغم أنى أظهر على الشاشة حيث لم تظهر التجاعيد فوق روحى! وكل قيمتى فى تجربتى، فهى محبرة قلمى أو عدستى، عندى قناعة أن يوما عاديا أبدو فيه بلا متاعب صحية هو يوم ميلاد جديد، وعندى قناعة أن كلمة أكتبها مؤثرة أو لقطة على شاشة مؤثرة هى عيد ميلاد لى حقا.

فى يوم ميلادى أتساءل: بم يحسب العمر؟ بالسنين أم باللحظات النادرة من النجاح أم بالحب الآسر أم بأيام البال الخالى أم بماذا؟ وقد أجبت عن السؤال بأن العمر يحسب بالعطاء وبقدر إسعاد الآخرين وليس بعدد السنين!

حين أعرف صديقا بلغ الثمانين، يروق لى أن أرسل مع باقة الورد الأبيض عبارة (أنت عشت الأربعين مرتين)! إن لكل عمر سحره وجماله ونضجه الذهنى والعاطفى، حتى تساميه وزهده.

فى عيد ميلادى لا أطفئ الشموع بل أشعل شموع الأمل والرجاء والستر.

لم يبق لنا غير الساحرة المستديرة!

قلم وأوراق تنتظر المطر، ومطر الكلمات له طعم مختلف، والكلمة مدينة فيها طرقات وشوارع وأزقة، والكلمة أحيانا وطن تموج فيها صور الواقع، بكل همومه وأثقاله، ينتظر الكاتب كثيرا سقوط مطر الكلمات فوق سفوح الأوراق.. يطارد أفكارا شاردة هائمة على وجهها في انتظار صياد الغزلان، يخشى القلم أن يجد نفسه فجأة في صحراء مجدبة، وقدر الصحارى أن تبقى بلا شجر وبلا مطر وبلا شعراء! أعانى من عذاب الاحتشاد لفكرة، فالكتابة تفتيش مستمر في الذات وخارج الذات والكتابة سفر في الزمان وفي المكان، وأنا أرى وأسمع بكل حواسي، أحب الكلمات المحددة الصياغة وإن كان قاموسنا العربى قد احتار في تحديد اسم هزيمتنا.. هموم البلد كثيرة ومعقدة ومشوارها طويل في الإصلاح، لأن النيات ليست جادة، من المهموم بقضية الوعى الذى يطير من الرءوس كالدخان؟ من المهموم بقضية السكان الذين يتزايدون كل ثانية لأن لهم (ربا يرزقهم)؟ أنا لا أتكلم عن إعلام يحاول أن يكون مؤثرا ولا أتكلم عن فضائيات شتامة تجد في الشتائم نجاحا ورواجا.. أنا أتكلم في الواقع عن (حالة) تسود المجتمع، حالة يتجمع حولها اهتمام الناس مثل (المشروع القومى)، حالة تستنفر كل طاقة المجتمع مثل السد العالى يوما أو مثل جلاء الإنجليز عن أراضينا، حالة، تسكن الأفئدة وتضخ الدماء في عروق المجتمع

فيصبح خلية نشطة، هذه الخلايا النشطة فى كيان أمة تصنع النماء والخير والتقدم.

أين عثرت على (الحالة) التى تسود المجتمع وتسكن الأفئدة وتنشط الخلايا؟ عثرت عليها فى الساحرة المستديرة، الكرة المصرية، وللحق أقول إن (الكرة) صارت (أفيون الشعوب) وصار نجومها البارزون فى العالم أهم من السياسة ونجوم السياسة، ولكن العالم المتحضر يعطى الكرة حقها ولهمومه حقها أيضا ولا يسمح أن تتجاوز الحد المسموح بالاهتمام، هل لو كانت لنا فى مصر (أحزاب) قوية وليست مجرد صحف، هل كانت الساحرة المستديرة ستأخذ منا هذا الاهتمام الأسطورى؟ هل لو تبنينا قضية كالأمية أو السكان وكلتيهما تؤثر فى الأخرى، هل كان المجتمع يتقدم و.. يتحضر؟ ثم تعالوا نناقش (الانتماء) الذى بات مرتبطا بالفريق القومى، هل هو انتماء باق فى القلب والعقل، انتماء صلب لا يتزعزع؟ ذلك أن الانتماء لبلد هو محرك للعطاء فيه وليس حال تلوين وجوه البنات والأولاد بألوان العلم، الانتماء ليس الفرح إلى حد اللوثة ولا الحزن إلى حد الانعزال عن مشكلات البلد بسبب مباراة، الانتماء كقيمة أكبر وأعمق.

البلد - يا سادة - تسوده حالة إعصار كروية، مساحات البث التليفزيونى الكروى عشرة أضعاف البث الثقافى أو الفكرى، ستوديوهات (التحليل) الكروى عشرون ضعف تحليل قضايا الداخل - باستثناء قضية فلسطين وتوابعها! - المحللون الكرويون أضعاف محللى السياسة، صفحات الكرة فى الصحف، قومية ومعارضة ومستقلة أضعاف أضعاف صفحات الأدب والسينما والمسرح، تربيطات الأندية وشراء نجوم الكرة بالملايين يسيل له لعاب أى مفكر أو مؤلف أو صاحب نظرية فلسفية، وربما ترشح أحد نجوم الكرة على ظهر الأرض لجائزة نوبل، من يدرى؟ أطفال هذا الزمن لا يحلمون أن يكون الواحد منهم (دكتورا أو مهندسا) مثلما كانت أحلام جيل مضى، صار الحلم الآن عند أى صبى صغير أن يكون كريستيانو رونالدو أو كاكا نجم البرازيل أو واين رونى نجم إنجلترا أو ديفيد بيكام، أو يلتحق بنادى مانشستر يونايتد (هذه المعلومات من حفيدى)!

المجتمع صار محبسا بسبب الكرة، الناس تحولت إلى محاكم تفتيش إذا خذلتها فرق الكورة حتى ولو كانت محلية، الناس انقسمت فى الرأى إزاء أى خيبة، الناس تردد أن الكورة مكسب وخسارة ولكنها ترفض الهزيمة! فى حالة الفرح يخرج الأمن ليحرس البهجة الشعبية الجارفة، وفى حالة الهزيمة يخرج الأمن ليحرس الفريق من غضب الجماهير، لأن (كوارثنا) كثيرة، صار بصيص من الفرح أملا، فإذا فرحنا أصابنا مس من الجنون، وكأننا - يا ولدى - نعب الفرح عبا، صارت ملاعب الوطن هى ملاعب الكرة وصارت نتائج

المباريات أهم أحداث بلد نام من البلاد النامية، أصبح اختيار مدرب أجنبى قضية القضايا، وأصبح هروب لاعب إلى ناد أجنبى غدرا وعارا وخيانة، وأصبحت انتخابات ناد كروى أهم من انتخابات مجلس الشعب وأكثرها سخونة.

لم يبق لنا غير الساحرة المستديرة، نهيم عشقا بها إلى حد الجنون، نمرض إذا مرضت، نتزوج ونطلق بسببها، نراهن عليها كمقامرى مونت كارلو، نتحول إلى جنرالات تحليل لمعاركها، ننشغل بعالم البيزنيس الذى يقدر بالملايين، نحلم لأولادنا مصيرا ومستقبلا يحققونه بأقدامهم قبل رءوسهم، نعيش فوق المستطيل الأخضر على صفارة الحكم أو الكارت الأصفر أو إصابة مفاجئة، نصرخ من أعلى المدرجات غضبا، ونصفق كالبلهاء، إنها حالة يتجسد فيها (شيطان الكرة) وحولها (طقوس الزار) وتغيب العقول، و.. تنهض دول أخرى من رقدتها.

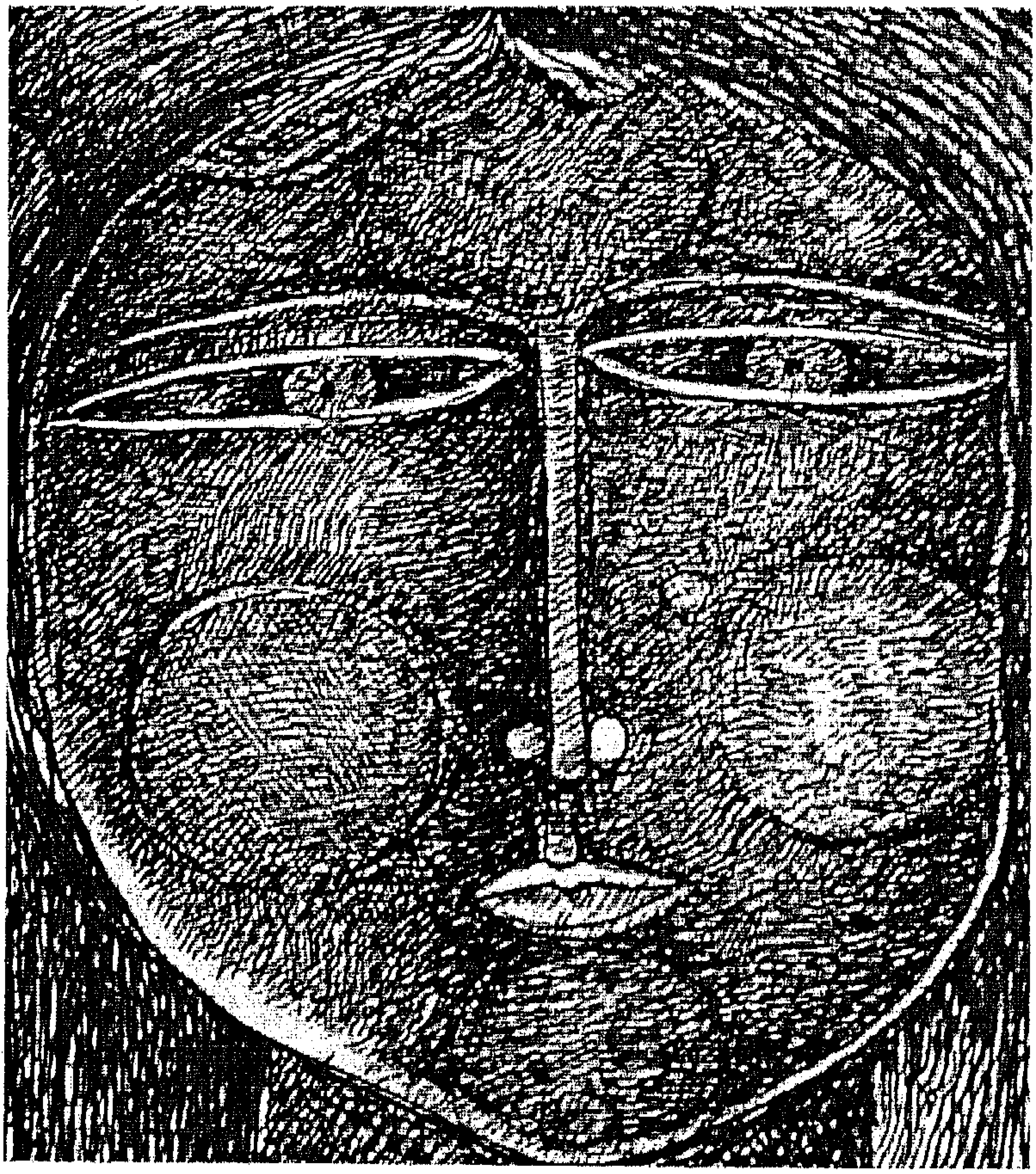

خطاب غرام ينقصه الغرام!

أنا من جيل المنفلوطى ونزار قبانى وكروان حيران وجفنه علم الغزل، وعزة جمالك فين..

أنا من جيل جدول الضرب والخطابات الزرقاء بالقلم الشيفرز الأزرق، أبث الورق لوعتى واشتياقى وحنينى. أنا من الجيل الذى غنت له أسمهان: إنما أهل الغزل.. كلما خافوا الملل.. أنعشوه بالقبل.

أنا من الجيل الذى يردد مع أم كلثوم (كرامتى فوق قلبى)، لا أحب التوجع وإظهار السقم والنحول والسهر لأستميل حبك مثلما كان يفعل الشاعر بدر شاكر السياب، نصف وزنى كبرياء.. وأدوس على قلبى لو نزف من جرح فى هذا الكبرياء! لا أعرف لغة sms لأنى لا أملك براعة اختزال مشاعرى فى كلمات أبوح فيها لآلة، أذنك وحدها خلقت لتتلقف همسى الحنون وشوقى المتوهج ورعشة لهفتى.

وأنا يا زهرة حياتى، لم أجلس فى مقاعد المتفرجين بعد، ولن أجلس فى قهوة النشاط حيث ثرثرة روادها من العجائز وأرباب المعاشات، ما زلت ـ مهما مضى قطار العمر ـ أعبر بالقلم والعدسة عن بلدى التى أعطتنى وهما ذقت منها المرارة والألم فأنا أنتمى لها كانتمائى العضوى لأمى، ولا أقف فى مدينة (نعم) ولست من هواة تستيف الأوراق وهز الرءوس بلا اقتناع، ومن (يفهم) لا يحزن!

يحملنى الشوق على جناحه لك وأفكر فى نفس الوقت بالطاعون المتربص بنا، والجراد

المتأهب لاختراق حدودنا.. تماما مثل جراد آخر لو فتحنا معابرنا!

يختنق شوقى إليك وأفيق من أحلامى العذبة على كوارث تهبط على الوطن، تعذبت حبيبتى عندما قلت لى (أنت لست زعيما فاشترى دماغك).

أنا لست بزعيم، وبينى وبين الزعامة - سيدتى - فراسخ من الأميال، ولكنى أفهم (الوطن) فهما متواضعا، إنه الأهل والأصدقاء والبيوت والبرارى ولحظات نثر البذور وموعد الحصاد، الأطفال والصبايا والعجائز والمعمل والمصنع وإمام المسجد وكاهن الكنيسة والمثقف والأمى ورجل السياسة والقيادة، هذا الوطن، عندما يتعرض للأخطار، ننسى كل شىء، إلا هو، وكيف أشترى دماغى وفى الفيوم قرى لا تشرب حتى مية الحنفية، وتشرب من ماء الترع؟! هل أجلس فوق كرسى هزاز مجعوصا وأهز أكتافى بلا مبالاة؟ إن العاطفة (كل) لا يتجزأ، وما دام قلبى ينشطر نصفين لو تم بيننا فراق، فإن نفس القلب يتعذب لمجاعة فى دارفور، أو فيضان اجتاح قرية فى الهند.

تنتشلنى الحوادث والأحداث من لهفة تسكن قلبى وعقلى وتنشط سيناريوهات مخك أن فى الأمر (امرأة) أخرى خطفت اهتمامى، لا امرأة أخرى ولا اهتمام آخر، ولكن تأملات تصيبنى لعنتها وتحجب عنى لذات الحياة، تأملات تعترض طريقى وتجعلنى أرى الأشواك الدامية ولا أرى الورود، نتقابل وتحكين لى كيف نمت أمس و(دموعك على مخدتك).. دموع؟ هل ما زالت لهذه الكلمة وجود فى القاموس؟ هل ما زالت مخدتك ترتوى بنبع حبك؟ أخجل من سرد تأملاتى وقد تتهمين حبى بالقصور وتكرهين البلد ومشكلات البلد التى أدخلتنى (الحجر العاطفى) فى ميناء حياتك بحثا عن فيروس (العام) الذى التهم (الخاص)، أنت على حق فى إبلاغك عنى سلطات الميناء، فالعام يلتهم الخاص! أنا ما زلت سيدتى مسكونا بحبك وأشاركك حتى الملل وما زلت مهموما بقضاياك الصغيرة، اهتمامى بك بنفس طويل يتعدى مرحلة الإعجاب ويدخل مرحلة المسئولية عنك ولكن لا تظنى أن العام يأخذنى منك، أنا لم أرث عن أبى مالا، يدار بآخرين وعندى فسحة من الوقت والفراغ، أنت تكرهين الرجل العاطل مهما كانت ثروته، صحيح أن المرأة تحب (الثروة) ولكن هناك ثروة غير هدمية لا تموت.. تسكن العقول، أنا أحافظ - سيدتى - على مشوار العمر، أحميه من الاندثار فى بلد يؤمن بالصوت العالى والصراخ والإلحاح، تقولين (لم تعد تغار) وأقول أنا لا أغار من رجل آخر، إن لقلبك الفصيح بوصلة ترشدك، أنا أغار من أفكارك حتى أحلام يقظتك، أنا أحمل ربابة وأتغنى بحبك وعطائك تحت شباك بيتك! التقينا على موجة فهم واحدة، ومطلوب منك - كامرأة واعية - الإدراك أن العام عندى هو الخاص

والخاص عندى هو العام، لى عينان تريان وأذنان تسمعان، لست معزولا عن الحياة ولا نعيش فى صحراء، عيون الآخرين وآذانهم هى الجحيم، الشحاتين يدعون لك فى سيارتك (ربنا يخليلك البيه) فإذا تجاهلت الأمر (دعوا على البيه)، الشارع مفترس والناس أكثر افتراسا، الهمسات تصاب بسكتة دماغية وكلمات الحب تسقط فى صخب الزحام، ما عاد زمن الروقان يسمح لنا بالدفء والحلم وعناق الأصابع إلا قليلا، فى غفلة من العيون، لحظات مسروقة!

حبيبتى: أنا لم أعتزل الغرام، ولست ضالعا حزبيا يستهلكنى الحزب! أنا فقط معنى ببلدى وبلدك أيضا، ساعدينى على الشفاء من تأملاتى!

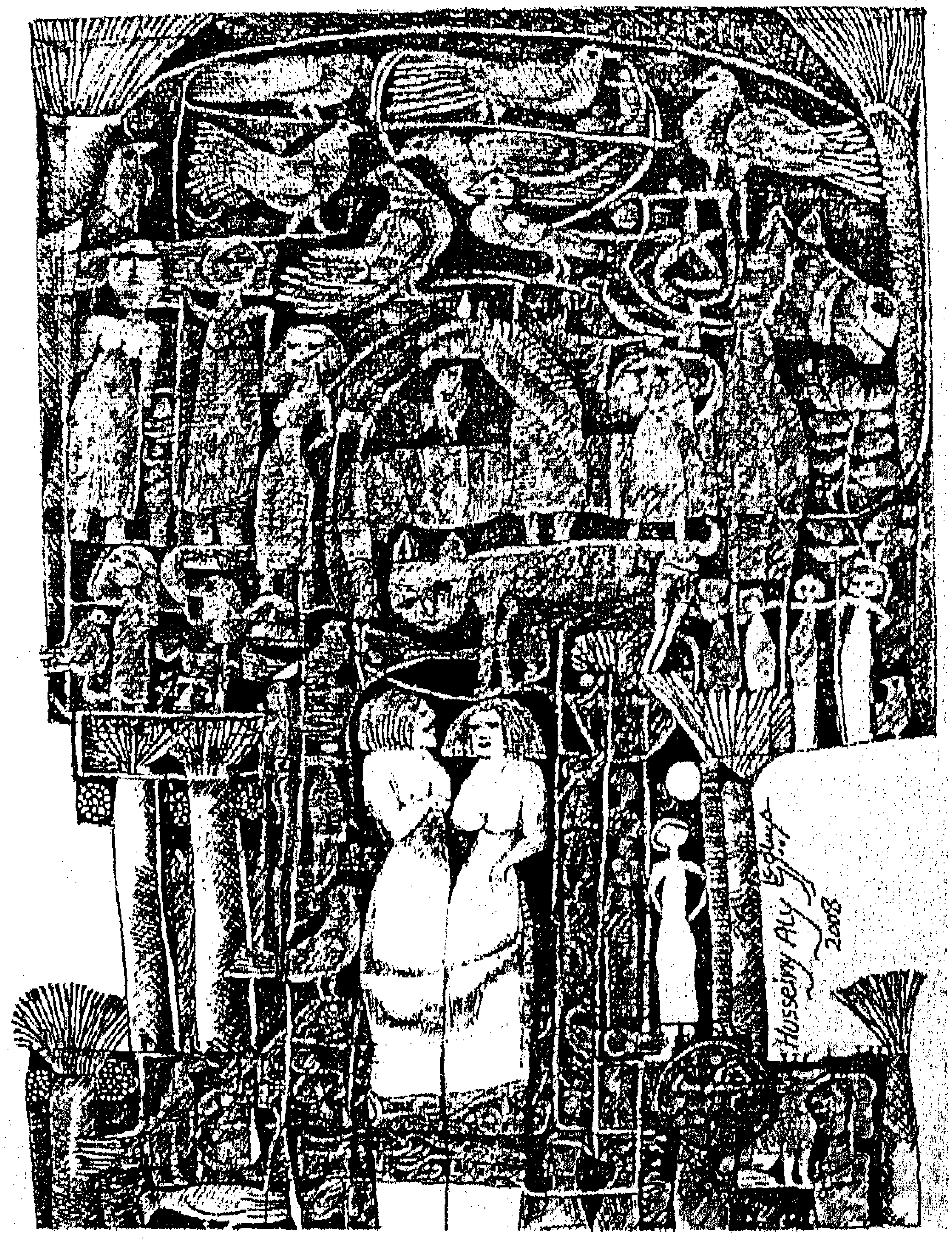

ألمانى واحد قاتل وليست ألمانيا!

ما أحوجنا إلى الحكمة وليس إلى (الزعامة)، ما أحوجنا إلى تفعيل (العقل) لا العاطفة الهوجاء، مشكلتنا الحقيقية فى مصر أننا ننفعل إلى حد الاشتعال، وأزمتنا فى قصور نظرتنا للأشياء، ومن هنا تأتى أحكامنا سريعة متسرعة، وفى حمى الانفعال (نعمم) الخطأ الفردى المحدود، ولا أحد يقلل أو يشكك فى حزن الناس على رحيل الصيدلانية المصرية فى ألمانيا مروة الشربينى، وقد خرجت الإسكندرية - مسقط رأسها - تشيعها فى جنازة مهيبة. غير أن الإعلام يدمن تلوين الحقائق ويلذ له إضفاء الدراما عليها ولا مانع أن تنتقد صحف المعارضة الحكومة على الماشى وتصفها بالتخاذل، ولا مانع أيضا ظهور أقارب لمروة الشربينى على الشاشات فى سباق محموم واللعب على أوتار الحزن وتعبئة الناس.. وهذا خطأ الإعلام فى الافتقار للمنطق، ولست أستثنى نفسى ممن حزنوا على ضياع أم مصرية فى الغربة تركت وراءها أسرة مكلومة بسبب فاجعة لم تكن مطلقا فى الحسبان.

هذه البلاد، ألمانيا، هى بلاد الجدية، والعمل المضنى وقيم أخرى كثيرة، قفزت بها إلى مصاف دول العالم الأول، هذه البلاد، ألمانيا، انتصرت على التقسيم التاريخى لألمانيتين واستطاعت بجهد توحيد ألمانيا إلى دولة واحدة ثم اتحاد أوروبى يضرب به المثل.. هذه البلاد، ألمانيا، تحتضن جنسيات كثيرة عربية وآسيوية وإفريقية، وقد دخل هؤلاء نسيج

المجتمع الألمانى، والمصريون يقصدون ألمانيا للعلاج والدراسة والعمل فى شتى النشاط الألمانى. وأضع أمامكم نقاطا مهمة بالعقل:

أولا: الحجاب مسموح به فى ألمانيا وليس صحيحا أن مروة (شهيدة الحجاب) كما نشر.

ثانيا: فى ألمانيا ٤،٦ مليون مسلم من بينهم٦٠٠ ألف ألمانى يمارسون الشعائر الدينية الإسلامية.

ثالثا: مسرح الحادث محكمة فى المدينة الألمانية درسدن وكانت تقع فى ألمانيا الشرقية قبل الاتحاد، وهذه المدن درسدن وروستوك اشتهرت بأنها كانت تضم النازيين الجدد، وكل الجرائم التى حدثت للأتراك فى ألمانيا، كان أبطالها (ألمانا من الشرقية) رافضين للأجنبى وقاتل مروة ألمانى من أصول روسية وهو عاطل.

رابعا: الخلاف كله الذى وصل إلى المحكمة، تافه فهو خلاف على مرجيحة الأطفال فى المجمع السكنى، من يمرجح ابنه أكثر؟

خامسا: حينما تعدى الألمانى من أصول روسية قولا على الصيدلانية المصرية، فالألمان الذين حضروا الواقعة هم الذين أوصوا مروة بتحرير محضر لهذا الشاب.

سادسا: حكمت محكمة درسدن الابتدائية الألمانية لصالح مروة الشربينى، والحكم يقضى بأن يعتذر لها المعتدى عليها رسميا وإما أن يدفع لها ١٨٠٠ يورو أو السجن ٦٠ يوما مع الشغل.

سابعا: طعن المعتدى على مروة فى الحكم وفى أول الجلسة طعنها علنا ١٨ طعْنة، وذهل الرأى العام الألمانى من دخول مجرم بسكين جلسة محكمة والمفروض طبقا للقوانين (يخضع للتفتيش)، وضرب الأمن زوجها طلقة نارية فى قدمه.

ثامنا: استهجن المجتمع الألمانى المتحضر هذا الحادث الفريد من نوعه، فهذه ليست (أخلاق الألمان) ولا طباعهم العنيفة التى تعكس ضغينة مبيتة بسبب (المرجيحة)! لا بد أن يكون القصاص بحجم الجرم الذى وقع.

تاسعا: إن لوزير الخارجية الألمانية شتاين ماير تفسيرا لحالة (الغضب المصرى) عقب حادث مروة الشربينى، يرى ماير (أن التشدد فى منح تأشيرة الشنجل للمصريين فى السفارة الألمانية، أظهر الضجر المكتوم لديهم وكأن أحدا صب النار على الزيت).

عاشرا: لو كانت مروة الشربينى غير محجبة، لحدث ما حدث، إذ لا شأن للحجاب فوق رأسها من عدمه، لأن صورة الحجاب أمر سائد فى ألمانيا.

أريد أن أقول إن مصر - عبر القنوات الدبلوماسية - لن تمرر الحادث ببساطة ولكن بدون هرطقة أو تأويلات خاطئة، والنائب العام المصرى طلب - كضمير المجتمع - الاطلاع على تفاصيل تحقيقات الحادث، فهو يخص سيدة مصرية ذهبت فى رفقة زوجها دارس الماجستير فواجهت هذا المصير.

وأقول: إن القاتل الألمانى هو (فرد) واحد متهم وسيقف أمام محكمة ألمانية، ألمانى متهم وليست ألمانيا (الشعب والدولة)، فحين تنشر الصحف عندنا بأن الغضب ضد ألمانيا، فهذه (تعبئة) مغلوطة فيها انفعال غير مسئول، إنه تربطنا بألمانيا مصالح كثيرة والدول تتعامل بالمصالح لا بالعواطف، وهناك قوانين تحكم أخطاء البشر فى كل مكان.

لنترك السلطات المسئولة فى مصر وألمانيا تحقق فى ملابسات ما جرى، ولا نغذى الرأى العام المصرى المتعطش للثأر والانتقام بأية معلومات غير صحيحة، نعم ثأر وانتقام من الألمانى القاتل وليس من ألمانيا.

إننى - بوعى تام - أدرك قسوة ما جرى وأتفهم الغضب الممزوج بحزن، فقط أردت أن أقول إن الجانى (ألمانى) وليس (ألمانيا).

أعطنى أذنيك يا قداسة البابا..

أعتذر لك لأنى يوما ما طالبتك بأن تقنن ظهورك الإعلامى وكنت أطالبك بنهج البابا كيرلس الروحى، يبدو - يا سيدنا - أن هذا الزمان ليس زمان البابا كيرلس، زمان السماحة الساكنة القلوب وليس زمان من ضربك على خدك الأيسر، فأدر له الأيمن، كان وجودك على الساحة ضرورة مهما بلغت عامك السابع والثمانين، فأنت قوة معنوية روحية، مد الله فى عمرك، ليتذكرك الشعب القبطى بما أنجزت وما لم تستطع إنجازه، وربما كنت فى صمتك (مرغما)!

هناك يا قداسة البابا شنودة، مشكلة لا يحلها عناق المشايخ والقساوسة أمام عدسات التصوير، ولا تحلها الكلمات الطيبة فى المحافل الرسمية وعبر مآدب الوحدة الوطنية فى شهر رمضان الكريم، هناك مشكلة تطفو من حين لآخر على السطح وتعكر الصفو، لعلها الهاجس للكتابة لك بحبر المحبة، فمصريتى قبل ديانتى، وانتمائى لوطنى قبل انتمائى لدينى، وأظن أنك على علم- وأعرف إلمامك بكل الأمور أن الإذاعة البريطانية سألت مستمعيها فى العالم العربى ومصر على الأخص عن انتمائهم للوطن أو الدين فجاءت النتيجة ٧٨٪ انتماء للدين قبل الوطن، ولا بد أن سمعت التعليق القائل (التعاطف مع ماليزى أكثر واقعية)، وأعرف أنك تتألم ولكن فى صمت من كلمات غير مسئولة تتطاير مع أن معظم الحرائق من مستصغر الشرر، وأنا أتفهم موقفك من (الحرائق الصغيرة) التى

تنشب هنا أو هناك ،وأتفهم افتقادك لأرضية فكرية فيها ثقافة (قبول الآخر) تطفئ هذه الحرائق قبل أن تصبح (لبنان) أخرى، ولن نكون ما دمنا ننزل إلى الجذور.

إن شباب الأقباط لجأوا إلى مدونات النت مثل شباب آخر وأعطاهم النت كشاشة حرية التعبير أكثر من القنوات الطبيعية إعلاما وصحفا وشاشات، وكنت أتمنى (وجودا) إعلاميا منتظما مصريا لقساوسة هم مصريون قبل أن يكونوا أقباطا، فالشاشة المصرية لكل المصريين، حتى الشيخ الجندى المتنور، هذه قناعته.

وأعرف - يا قداسة البابا شنودة - تفهمك البعيد النظر لمصر كدولة مدنية وليست دينية، ومن هنا أدرك مدى الألم حين تعطيني حقوق المواطنة الحق فى الصلاة فى شقة ثم يقال (إنه غير مرخص) لها، ومنذ متى صار للصلاة لرب الكون ترخيص رسمي؟

وفى برنامجى حديث المدينة حرية أشيد بها، سمح بها نظام مبارك الذى فتح النوافذ والأبواب، وقد سألت فى البرنامج شخصيتين مرموقتين، هما فضيلة المفتى ووزير الأوقاف عن تعداد الأقباط فى مصر وكانت الإجابات ليس لدى أرقام لأكون دقيقا، هل جهاز الإحصاء الرسمى عاجز عن الأرقام الدقيقة؟ هل هو من أسرار الدولة العليا؟ لا أظن!

أذكرك يا قداسة البابا بحدوتة مصرية صغيرة وتحفظ قداستك تفاصيلها، كنت قد سمعتها من السفير السياسى الراحل أشرف غربال حين رافقك؛ لمقابلة بروتوكولية مع الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، قال أشرف غربال (عام ٧٩)، إن قداسة البابا يمثل ٣ ملايين قبطى فى مصر وقمت أنت بتصحيح المعلومة للرئيس الأمريكى قائلا: بل (١١ مليونا يا سيدى الرئيس)، تتذكر قداستك توابع هذا التصحيح وما عانيته قداستك فى زمان آخر، مبارك طراز آخر لحاكم لا يفرق بين قبطى ومسلم.

وإذا كانت المشاحنات تناولت دير أبوفانا، فالحلول الجذرية لا السطحية تنهدا تماما، وإذا كان دير أبو حنس قد عاد إليه اسمه الحقيقى القديم قبل تغييره إلى الياسمين، فهذا وعى سليم أنت تمجده وتؤيده وتدعو - فى صلواتك - لعدم النيل من مصر عبر (أزقة ضيقة) هى الجهل والقصور فى الفهم والتشدد القادم بروموت كنترول، هذه القضايا محفوظة فى ذهنك المتوقد يا سيدنا قبل أن تكون ملفات بلا حراك حتى تأتى حريقة جديدة.

ويبقى (أقباط المهجر) ولعلك تتفق مع بطرس غالى حين قال إنهم (مهاجرون مصريون) لهم قوة اقتصادية وعلمية وحضارية تسهم فى إنجاز مصر.. الألم، ووجب حذف اسم (أقباط المهجر) باستثناء قلة حاقدة فرضت عليهم حوادث معينة موقفهم، إن حنانك وأبوتك

ضرورة قومية لإزالة أى التباس عليهم ويعيدهم لأحضاننا بعد غيبة جغرافية.

يا قداسة البابا اغفر لهم حيم يكتبون (الكتاب المكدس) بدلا من الكتاب المقدس، اغفر لهم حين يؤجلون القضايا بطعم الأعناق الكاذبة والقبلات. أعرف أن صمتك هو صمت الحكماء وأنت رئيس شرعى للكنيسة الأرثوذكسية فى العالم مثل بابا الفاتيكان والكاثوليك، أنت غير قابل للتحجيم أو التعتيم، ومحصن ضد الانعزال لأنك مسئول عن الرعاية الروحية للشعب القبطى وهو ليس بملايين قليلة، أما عن (عدالة) المناصب فى الدولة وإسنادها لمصريين أقباط، فهذا دور القيادة السياسية الواعية لمخاطر تجاهل النسبة والتناسب ويصل أذنيك همس الأقباط.

قداسة البابا شنودة الثالث، أنشر خطابى لقداستك علنا بحرية فى (الأهرام) حاضن كل التيارات الفكرية القلقة على مصر من اندلاع نيران فتنة تأكل الأخضر واليابس ما لم يكن يقينا أن الأقباط (مشاركون) ولا يخضعون لمنطق الأقليات، فالمسيحية فى أرض مصر بالجغرافيا والتاريخ.

هل أنت تعس أم تعس جدا؟!

حر أغسطس من النوع الذى يضطهدك فى حياتك ويعتقلك داخل زنزانة الرطوبة ويذلك من أجل نسمة هواء أو لفحة تكييف! حر أغسطس لا يسمح للعقل أن يفكر فى قضية تسويق الحكومة لأى شيء فعلته من أجل الناس أو فى جدل حول عودة محمد إبراهيم سليمان للأضواء مرة بعد التعتيم. حر أغسطس لا يعطيك بارقة أمل فى توحيد الصف الفلسطينى لتشعب تفاصيل الجفوة والخلاف.

الناس تهرب إلى الشواطئ هربا من حر أغسطس وصداع الاعتصامات والخوف من الوبائيات، وتلوذ بمياه البحر لتمنحها بعضا من السعادة.. السعادة نسبية، ما يسعدنى قد لا يسعد جارى، والشقاء نسبى أيضا، فشقاء إنسان ما ربما كان رفاهية معنوية عند آخر، لا أحد فوق ظهر كوكب الأرض سعيد، كل مخلوق يحمل بين ضلوعه أسباب تعاسته، وقد كنت أظن أن الحيوانات أسعد الكائنات لأنه ليست لها مطالب ثم اكتشفت أن الببغاوات تكتئب، والخيل تمرض حزنا، والكلاب تضرب عن الطعام من سوء المعاملة، والقطط تموء بصوت عال احتجاجا، وقد اكتشفت أن الجماد إذا فارقه صاحبه يصاب بالصدأ حتى ولو كان بعيدا عن البحر! ولعل الإنسان فى هذه الدنيا يشقى بجسده، فأجسادنا سر شقائنا، هناك من يشقى بعقله، هناك من يشقى بماله وممتلكاته.

ولا تزال الأديبة فصيحة القلم غادة السمان تعتبر السعادة (تعاسة.. أقل)، وكانت ليلى

عسيران الروائية اللبنانية تقول لى فى حواراتها معى: (الإنسان،. إما أنه تعس.. أو تعس جدا) وتضيف: لم يخطئ الحس الشعبى القائل (المجانين فى نعيم) أما عن المثل القائل (جاور السعيد تسعد) فإنه قصد أن السعادة عدوى، كالضحك والحزن والفرح، طموحات الإنسان تشقيه لأن صعوبة تحقيقها.. تدميه الغيرة من الآخر، تشقيه لأنه يقارن نفسه بالغير دائما.

الانكسار الداخلى يشقيه لأنه يجعل صاحبه مهزوما.. جريحا، التطلع للمواقع يشقى الإنسان، حيث يقضى مرة باحثا عن موقع. جنون الثروة يشقى مالكها لأنه يريد مزيدا من الثروة، والحق يقال إن الطموح - وليس الطمع - صفة محمودة فى البشر، فالإنسان بغير طموح، كمنفضة سجاير فقدت وظيفتها، ولكن التعاسة تكمن فى (من راغب فى ازدياد) مال أو شهرة أو سلطة أو جنس.

إن مريض السكر يقضى بقية حياته محروما من أشياء كثيرة مثل بقية الناس ولكنه (يتكيف) مع واقعه، إن الذى يعمل عملا لا يحبه، يشعر بالتعاسة ولكنه حين (يتكيف) مع واقعه يغدو أقل تعاسة، ولن أقول أكثر سعادة، لأننا اتفقنا على أن إنسان هذا العصر، تعس أو أقل تعاسة أو تعس جدا.

إن فى أمريكا - الآن - (مصحات) من نوع جديد تستقبل مرضى السرطان الذين قال لهم الأطباء (قمنا بكل الجهد المكن وننتظر أمر الله)، هؤلاء يتألون ويقضون خريفا مرهقا للغاية وربما تحولوا وصاروا عبئا على الأهل، إن دور أطباء وأخصائيى هذه المصحات إشاعة الأمل ولو كان اختراعا، إنه (التكيف مع النهايات).

أنا أثق فيما أطلق عليه (سيناريوهات إلهية) لأنى ألقى بأحمالى لخالق الكون خاشعا ولا أكف عن الدعاء والشكر، ماذا أقصد من الرضوخ لهذه السيناريوهات؟

أقصد أنها رسالة من السماء (أن الرزق ليس بأيدينا) حتى الحس الشعبى يقول (تجرى جرى الوحوش غير رزقك ما تحوش) وما أبلغه من فلسفة! إننا ندنو للسعادة وربما نتجرع كؤوس الشقاء، هناك من يستحقون ما هم فيه، وهناك من لا يستحقون هذه النعمة، إنها معادلات السماء وإن كنت أثق أيضا فى.. الحظ، يقول ولاد البلد، فلان ده محظوظ وفلان ده متعوس، وفى اعتقادى أن الفرق فى المخ وإدارة الحياة. إن صاحب فكرة (فتاة صينية) بالعربية تخاطب العرب، عقل مبتكر، أدرك أن اقتصاد الصين يكبر فى الأرض العربية وينبغى التحاور معها، إن الابتكار الذهنى نعمة تمنح صاحبها نجاحا يسبب له (تعاسة أقل) وتبقى المشكلة فى مجتمعاتنا وهى (الفرصة).

فى أمريكا الفرص سانحة بدون عقد، وإمكانية النجاح الساحق من فكرة وارد، وفى مجتمعاتنا الفرصة مشروطة وربما مشبوهة، ويقال للبنت الجميلة الموهوبة (أنت وشطارتك) وشطارتها فى حماية نفسها من الدخلاء، ويقال للولد الموهوب (علشان ما تعلى لازم تطاطى)، ومفهوم المعنى!

ومن المؤكد أن النجاح فى العمل قد يعوض بعض الفشل فى الحياة الخاصة ويمنح (تعاسة أقل)، ومن المؤكد أن النجاح فى الحياة الخاصة يعوض ضياع فرص النجاح فى العمل ويمنح (تعاسة أقل)، إنه شىء أشبه بالتوازن البيئى فلا أحد يحصل على كل شىء ويحصد كل الأرباح بلا خسائر.

خلاصة تجربتى الحياتية: أن تنبع سعادتى من داخلى، من داخل عقلى وقلبى، وألا تتوقف هذه (التعاسة أقل) على كلمة ينطق بها آخر أو موقف يتخذه آخر أو رأى يقوله آخر، من المهم استقبال وجهة النظر الأخرى بحجمها الطبيعى دون زيادة أو نقصان، فالحياة ثنائيات: الليل والنهار، والأبيض والأسود، والسعادة والشقاء، وبالتضاد تتبين الأشياء!

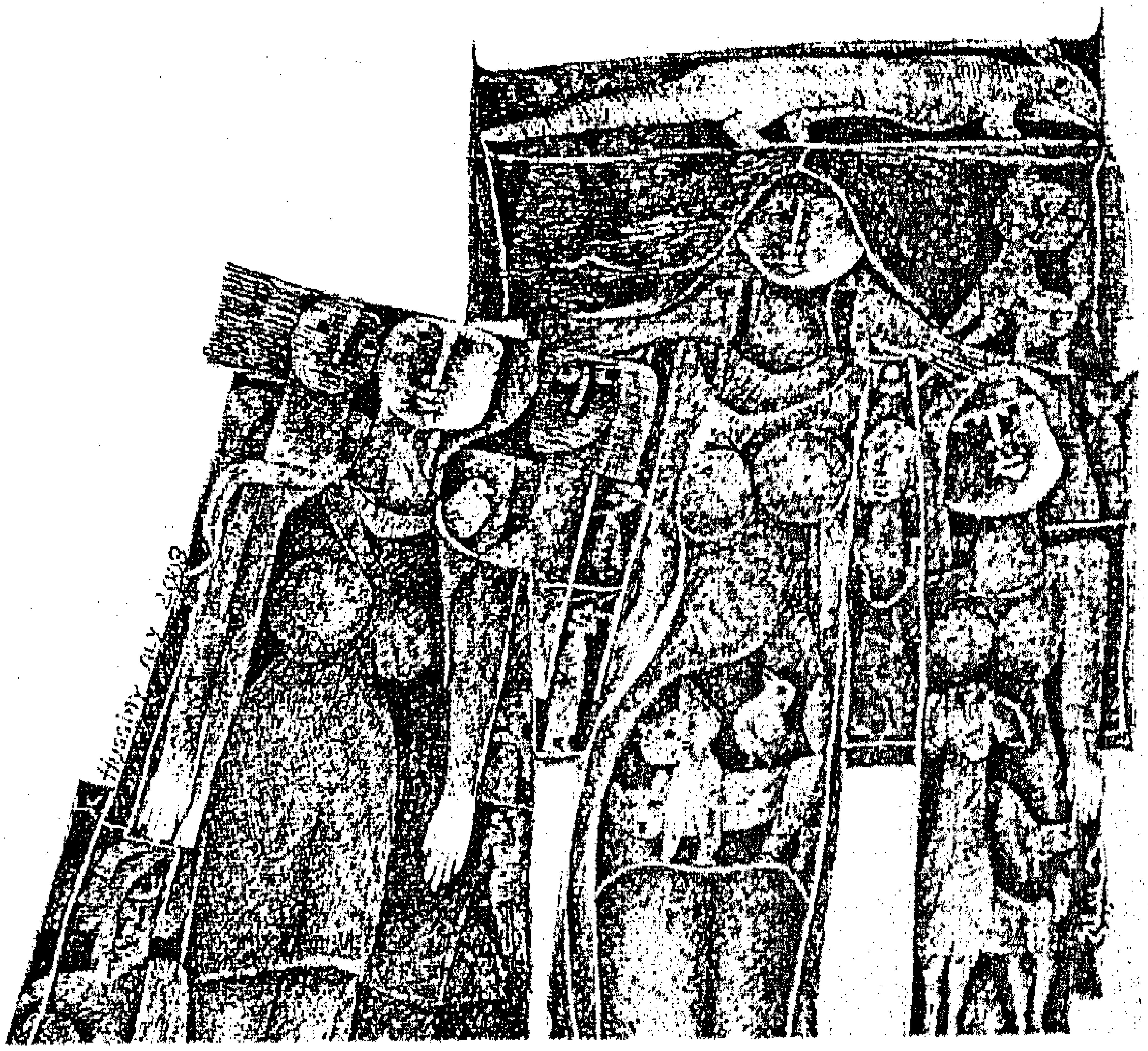

الخسيس والنفيس!

أستأذن السفير اللبنانى المثقف عاشق التاريخ والفلسفة خالد زيادة فى استعارة أحد عناوين كتبه وهو (الخسيس والنفيس)، فسفير لبنان فى مصر خالد زيادة يهرب من هموم الدبلوماسية إلى فضاء الفكر الرحب، وكتابه (الخسيس والنفيس) محاولة لإعادة النظر فى مسائل السلطة والمجتمع فى المدينة الإسلامية القديمة، التى - على حد تعبيره - ما زالت ظلالها تتردد فى حاضرنا.

الخسيس والنفيس، أنماط فى مجتمعنا المعاصر، يتدثر الأول - الخسيس - بمعاطف ناعمة وقفازات حريرية ويتطلب اكتشافه وقتا وصبرا وجهدا، وعلى الثانى - النفيس - غبار يحتاج لإزالته ليظهر معدنه.. والخسيس ذكى يتظاهر بالغباء، والنفيس ذكى، مغمور الذكاء، والخسيس صوته أعلى من مئذنة، والنفيس.. صرخته ما لها شفاه!

الخسيس، فى هذا الزمان، يصدر لنا الطهر وهو عاهر، والشرف وهو فاسق، والأمانة وهو لص، له من حلاوة اللسان الكثير، مجامل، منافق ولكل إنسان عنده ثمن، يخسر بإرادته فى الجولة الأولى، ليكسب فى الجولة الأخيرة!

النفيس، يعمل بأمانة لا يتشدق بها وبجدية لا يهم الإعلان عنها، قليل التعامل مع رؤسائه ولا يعرف عيد ميلاد أحد منهم، ليست المواربة كلمة فى قاموسه ولا المواءمة (أحد مصطلحات السياسة العصرية) ولهذا تقفز فوقه الترقيات والعلاوات والمكافآت! وفى البلاد

المتحضرة يلتفت لهذا النموذج بعين التقدير دونما (شغل بولتيكا).

الخسيس، قزم يطلع على أكتاف الغير ليبدو عملاقا وينسى - غالبا - أن الناس رأوه وهو يتسلق على الكتف، وحين يصل لشرفة التطلعات يتذكر الكتف التى صعد عليها وربما (يزغدها) بقدمه. هذا النوع من الناس منتشر فى الأوساط السياسية وفى جزر النخب والمثقفين، هذا النوع من الناس فطمته أمه بلبن العقوق وتربى فى مزرعة الجحود والخنازير، وأحيانا يصاب بأنفلونزا الكراسي ومن أعراضها التعالى والعجرفة، ولا شفاء منها إلا بالإقالة أو الاستقالة.. سيان!

النفيس، هادئ الطباع قليل الكلام، بل مقصر فى التعبير عن نفسه، عاشق لتراب الأرض رغم أنه لا يمتلك قيراطا واحدا، يخاف على البلد خوفه على أولاده.

الخسيس، سمسار هجرة غير مشروعة، وأحيانا موظف أموال ناس طماعين أو مسطولين، وأحيانا تاجر تأشيرات مضروبة، وأحيانا خلاط أسمنت مغشوش، وأحيانا تاجر إكسسوار تحت السلم، وأحيانا صيدلى أدوية مضروبة، وفاقدة الصلاحية، وأحيانا طبيب تخدير مهمل، أو دكتور تربح بما فيه الكفاية ويرى الورم غير الحميد مجرد بواسير! وأحيانا مهندس حى يوافق على بناء آيل للسقوط، وأحيانا نصاب يستغل جهل الناس ليوقعوا ويبصموا على شيكات على بياض، وأحيانا محامى يبيع موكله لخصمه بأجر، وأحيانا يتنقل بين الأحزاب بخفة ومهارة الحاوى.

وأحيانا دون جوان يضحك على النساء ويستولى على مصاغهن وحسابهن فى البنوك، وأحيانا مافيا أراض بقوة السلاح أو النفوذ وأحيانا مستغل لثغرات القوانين.

النفيس، أزمته فى غياب (أدوات) عصرية، فهو لا يجيد فن المداهنة ولا يعرف دهان الهوا دوكو، يعتمد على الله بغير تكاسل أو تواكل، يصلى ولا يّخدع، قريب من الخالق أكثر كثيرا من قربه للمخلوقات، حظه أحيانا هباب ولكنه يبتسم، ينتشر هذا النوع من الناس فى الجامعات ومراكز البحث وأجهزة الدولة، هؤلاء لا تعرفهم عدسات التليفزيون، وإذا كان الواحد منهم كفئا وصارت له سمعة حاصرته رياح الحقد.

الخسيس، لا يطيق أن تراه وهو يحبو فى فجر حياته خصوصا إذا كان متواضع النشأة قبل أن ينتقل من مرحلة (المش أبو دود إلى السيمون فيميه)، لا يطيق أن تقدم له معروفا أو إحسانا ما تحت أى مسمى لأنه من الطبيعى أن تتقى شر من أحسنت إليه، وعند الاقتراب من عتبات المسئولين، لا يطيق أن يراك تتقدم عليه ويتفنن فى (زومبة) عند الكبير لإيقاعك فى حفرة.. و إبعادك..

النفيس، ما أندره فى المجتمع مع أنه به وبغيره تترقى الأمم، فهو ليس متعصبا ولا باحثا عن مكاسب رخيصة وليس دمويا ولا معقدا، يقول نعم حيث يجب أن تقال، ويقول لا، فى توقيتها الصحيح، لا يزايد بالمواقف ولا يفقد بوصلة إحساسه، ينطبق عليه وصف طه حسين (المعذبون فى الأرض)، لا يسعى لمحمصة السياسة ولا يتكالب ليظهر فى الصورة، ومستعد للحساب الأرضى والسمائى، لا يلوث النيل ولا يلوث سمعة الآخرين.

قال الخسيس للنفيس: هذا هو (الحلال) جعلك جائعا فوق صخرة الحياة!

وقال النفيس للخسيس: هذا هو (الحرام) جعلك متورطا على شفا الهاوية!

رد الخسيس للنفيس: لغو وأخلاقيات وفقر؟

رد النفيس: فقر لا تترصده أجهزة الدولة الرقابية!

صيفية على شاطئ الحيرة!

كلما أعددت حقيبتى وهممت بالسفر، اكتشفت أننى أحمل معى همومى حيثما ذهبت، على شاطئ الجونة أو شاطئ كابرى أو مصيف جمصة، وليس معقولا أن أترك قلبى فى القاهرة وأتحرر من عقلى لأبدو خفيفا رشيقا، الواقع أننا مهما ارتحلنا.. تسافر معنا همومنا على نفس ذات الطائرة وتقيم فى نفس ذات الفندق وتنام وتصحو معنا...

ويتبلور فى الذهن معنى (الإجازة)، إنه مجرد تغيير فى الوجوه وكسر لنمط التعود على عادات بعينها، ترى العين صورا أخرى وتسمع الأذن أصواتا أخرى ويستنشق الإنسان هواء آخر، لكن ذلك لا يمنع إقامة الهموم فى فندق الذاكرة، حيث تعرض لى شاشة الذات صورا ومشاهد بعيدة وكنت أظن أنها سقطت من ذاكرتى لكنها باقية ويدهشنى استدعاؤها، أنا من ذلك النوع من البشر الذى لا يكف عن (المنولوج) مع نفسى و(الديالوج) مع الآخرين، هناك تراكمات ألم تنغص علىّ متعة السفر كأن أتذكر حالات غدر أو حالات تحول وهنا أطفئ هذا الحريق بالعقل.. مدركا أن لوحة الحياة لا تخلو من خطوط عبثية بريشة النفس البشرية، أنهمك مع الأصدقاء والصديقات رفقاء السفر ولكن ذلك لم يمنع الجدل الذهنى بينى وبين عقلى، لقد كان الإيطالى مورافيا يقول (الرحيل يلهينى ويحررنى).. فهل الرحيل يلهى ويحرر أم أنه يلقى بى على شاطئ الحيرة؟

شاطئ ليس له عنوان وليس له بحر ورمل ترسو عليه قوارب ويخوت، شاطئ الحيرة

ممتد بسعة الأفق وربما ضيق كثقب إبرة، ومن خصائص شاطئ الحيرة أن السباحة فيه مع التيار أو ضده، هاجت الأمواج أو كانت خافتة، لا راية سوداء في هذا الشاطئ تحذر من العوم، أتمدد على شاطئ الحيرة في هذه الصيفية وأقيم حوارا جدليا ذهنيا، فربما كان الجدل الذهني من شروط المعرفة، ولكن هل هذا الجدل.. فيه متعة؟ إن لذة (المقامر) أكثر متعة، ولذة (السباحة) أكثر متعة: ولكنني أجد المتعة في الفرجة على أحواض السمك وكأنني أشاهد لوحة الحياة لهذه الكائنات، أجد المتعة في مشاهدة فيلم بوليسي يسمرني في مقعدي ويشركني في الاحتمالات، ساعتها يكف ذهني عن الجدل، غريبة، ألا نعرف في حياتنا ألف باء ثقافة الفرح..؟ هل صار الضحك شحيحا في الأسواق؟ وإذا تحررت قليلا من همومي الخاصة الساكنة القلب والعقل، فلا أستطيع التحرر من الهموم (العامة) لوطن أسكنه ولا أملك أن (أشترى دماغي) وأجلس في مقاعد المتفرجين، أو أنسحب.

أتمدد على شاطئ الحيرة وقت الأصيل، أجمل ساعات النهار عندي، وأتساءل في جدل ذهني، عند نقاشنا، ماذا يجري في المجتمع؟ هل نتمسك بوثنية الماضي؟ هل يأتينا البصر حادا بينما نفقد البصيرة أمام الجديد والحديث؟

أسمع أصواتا - عبر الجدل الذهني - تقول : عندما يئن الجهاز الهضمي من الجوع، فلا مجال لعقل أن يفكر ولا مجال لمخاطبة جائع بقيمة الانتماء والمشاركة، إن الضغوط تحاصر إنسان هذا العصر، فأنا لا أستطيع (أن أنام مطرح ما يجيني النوم) وليس صحيحا (محلاها عيشة الفلاحة) ولا عادت الحبيبة تقول (يا مسافر وحدك وفايتني لمين؟) فالنوم أمل لمعظم الناس في زمن الأرق، وعيشة الفلاحة هباب بعد أن دخل الدش وهاجرت للبندر، والحبيب أينما سافر يدركه الموبايل الذي ذبح الأشواق.

أتمدد على شاطئ الحيرة وأفكر: هل بالفعل للحرية مساوئ أقل بكثير من كبحها؟ وهل نهوى تفريغ أحزاننا في الآخرين وتمزيق ثيابهم لنستريح؟

أتمدد على شاطئ الحيرة وأفكر في المرأة.. رهينة مزاجها، فبعد قليل هي امرأة أخرى، وبعد كل قيد تكسره هي امرأة ثالثة، وفي أعقاب أي جرح هي امرأة رابعة، ولكن من هي بالتحديد؟ هل كل هؤلاء النساء في واحدة؟ هل هناك مسميات أخرى في التعامل معها؟ الإجابة: نعم، نحن الرجال نقول علينا باحتوائها والصحيح هو علينا بترويضها.

أتمدد في الصيفية على شاطئ الحيرة، وأفكر في (أحوال) البلد، أفسر (الصخب) المتعالي هنا وهناك، سبب الصخب عندي أننا - كعرب - ظواهر صوتية، أتساءل: هل نحن قادرون على (الهمس) حين نفسر أنفسنا؟ الإجابة: لا، لأن الهمس لغة للمنطق، وليس

المنطق فى قاموس حياتنا، وأتساءل: هل المغامرات الفكرية والأدبية التى تتعرض للثوابت الدينية الوجدانية.. تحسب للإبداع أم تنتقص من رصيد الثوابت؟ وهل (القبلية) جزء من نمط أفكارنا أم هى من أخلاق العصر الزراعى؟ ولماذا نحن (مفتونون) بحضارة الماضى وآثار الماضى وتاريخ الماضى وفن الماضى، أليس لنا (حاضر) يفتننا؟ وماذا بعد الفتنة؟ هكذا تساءلت وأنا وحدى بعيدا عن أرض الوطن، الشهرة والمجد والثروة والسلطة، نتطاحن من أجلها، ولا ندرى أنها (تطحننا) ولا يبقى منا سوى هياكل آدمية.

أتمدد على شاطئ الحيرة، أسبح بعقلى فى بحار الفهم، أنزل أعماقا ولا أغرق وأنا الذى لم أتعلم السباحة، وتصادفنى أسماك القرش من البنى آدمين، أرتمى - بإيمان بلا حدود - بين يدى الخالق أطلب منه الصفح والصلح والتصالح مع النفس.. لأتصالح مع العالم!

تلك الليلة التى زارنى فيها.. الأرق!

أحفظ عن ظهر قلب عبارة جاءت على لسان أحد أبطال مسرحية شكسبير تقول (السعادة.. نوم عميق)، ولا أظن أنى تذوقت طعم هذه السعادة كثيرا، الأرق، ضيف شرف فى نومى، ومن هنا لجأت إلى المنومات المصنوعة من أعشاب، ويبدو أن الجهاز العصبى من فرط تعوده على منوم بعينه لم يعد يؤثر فيه.. وأصبح النوم عصيا. الأرق زائر ليلى يجلس على حافة سريرى.. ولا أجد بجوارى سوى الروموت كنترول المنقذ، فى هذه اللحظات أتجول به فى صندوق الدنيا.. تلك الشاشة العريضة بعرض الحياة، تلك الليلة لم أكن نصف نائم، بل كنت يقظا و.. أرصد! بضغطة خفيفة على الروموت، ملأت الشاشة أم كلثوم تغنى (من أجل عينيك) قصيدة لشاعر سودانى، الموسيقيون خلف كوكب الشرق بزى أسود وبابيون أبيض، الاحترام يسود العلاقة بين أم كلثوم وجمهورها والجمهور فى أبهى ما عنده، وتسريحات النساء أكاليل ورد فوق الرءوس.. والرجال يصفقون ويستحسنون ولكن عطر الاحترام يفوح من صالة وبناوير تعرف آداب الاستماع، أسمع أم كلثوم تشدو القصيدة وهى تسقى حروفها إحساسا كلثوميا. نعم، إن قصائد أم كلثوم التى غنتها روجت للفصحى. ضغطة أخرى على الروموت أخذتنى إلى قصيدة لنزار قبانى يشدو بها عندليب الغناء عبد الحليم حافظ، يقف حليم على المسرح كأنه عريس، البدلة الداكنة والقميص الأبيض وربطة العنق الأنيقة التى يغازلها منديل الجيب، يقف ليغنى لا يرقص أو

يتنطط ويسكب فى آذاننا وأرواحنا حلو الأداء وعذب الشجن، نراه وقد التحم بالمعانى واشتبك بالكلمات وذاب فى اللحن، فكانت الحصيلة ثمرات من الطرب، شياكة فى كل شىء، فهو - وفريد الأطرش ومحمد فوزى وهانى شاكر - يغنون وهم يرتدون ملابس كاملة، ولا أحد يغنى بالفانلة إحدى مفردات الملابس الداخلية ولا بالجينز الممزق فوق الركبة ولا يرسم وشما على ذراعه ولا يلبس زيا كالبلياتشو ويقال إنه مطرب شعبى (بأمارة إيه؟). بضغطة أخرى على الريموت، جاءت بمذيعات ممثلات أو قل ممثلات مذيعات أو اختصر الأمر، فهن ممثيعات فهن قد ظهرن فى مسلسل من قبل وأخريات فى بلاتوهات تصوير مسلسلات، زيطة! نجوى إبراهيم التى كانت تقدم برامج أطفال قامت الدنيا ولم تقعد حين اختيرت لفيلم الأرض أو فيلم دينى شاركها المذيع عبد الرحمن على، كان المذيع مذيعا وكانت الممثلة ممثلة، لم يقدم شكرى سرحان برنامجا فى التليفزيون لأنه كان مخلصا لفن السينما، الآن الدنيا (خلطبيطة) ومضى زمان الأشياء فى مكانها الصحيح، وصارت الشاشة الصغيرة القادرة على تغيير عادات المجتمع ومواريثه الخاطئة ومخلفات التخلف، صارت (ملطشة)..!

صار يستطيع أى شاب وسيم ولو كان صوته صوت ضفدعة مقدما لبرامج على الشاشة، وصار بعض أصحاب الفضائيات يحاورون (بفلوسهم)، وصارت المخرجة مذيعة والممثلة مذيعة ومهندسة الديكور مذيعة، ناهيك عن جيش جرار من الصحفيين صاروا مذيعين دون سابق إعداد أو لهم (طلة) بأن الأمر وكأن الشاشات أفران لا تتوقف! وبسبب هذه الخلطبيطة، فإن كليات الإعلام وأكاديمياته أصبحت فى مأزق، فأين يذهب الخريجون والخريجات بعد أن ذابت الحدود الفاصلة بين المذيعة والممثلة، وما قيمة الدراسة والبحث ما دامت أى (شابة، أجاد الله توزيع ٦٠ كيلو وزنها) قادرة على الجلوس فى مقعد المذيعة؟ جلست أفكر والليل من حولى ساكن والدقائق تمضى بطيئة والأرق لا يرحل. وبضغطة فوق الريموت جاءت بشخصية تتكلم على الشاشة، وردد مديحا لمسئول أربع مرات خلال ٥ دقائق وأزعجنى هذا النفاق، وتساءلت ما هدف النفاق.. مال..؟ منصب؟ محافظة على الكرسى؟ إنها أشياء زائلة لا تساوى أن يخسر الإنسان نفسه ويظهر ضعفه وعورته أمام الملأ، إنه - بلغة الحس الشعبى - (مسح جوخ) رخيص يندرج تحت الفهلوة المصرية أو غياب المعايير الصحيحة.

حين كانت تأتى أمامى مسلسلات (موائد الرحمن الدرامية) كنت أهرب من الإعلانات التى لا تسعد إلا جابى هذه الإعلانات، إنما الناس العاديون مثلى، فالإعلانات بحجمها

المهول تقطع التواصل مع أحداث المسلسل أو سياق البرنامج، ولا يهم صاحب القناة أن يرتفع ضغطك وربما لا يعلم أنك تنصرف عن المشاهدة.

يكاد يقترب الفجر ولم يداعبنى النعاس، قمت من سريرى إلى باب الشقة ربما أجد صحيفة معلقة فى أكرة الباب، ووجدتها وتصفحت عيناى المثقلة بقلة النوم السطور وأنهار الكلمات المحشوة بها الأعمدة، لاحظت (المبالغات) فى الأوصاف، فمن يكتب أن فلانة (مخ) وهى محدودة! ومن يكتب أن أحد المحافظين (عنده الحلول لكل مشكلاتنا)! ومن يكتب أن وزيرا ما خسرته مصر، وربما فى نفس الصفحة أن الوزير أساء إلى مصر! السالب والموجب بنفس الحرارة!

شأشأ الفجر، وبدأت أفكر: هل نحن نتقدم أم نتأخر؟ هل نحن نتطور أم نتخلف؟ هل مظاهر الحراك الاجتماعى قفزة أم ورطة؟ ومنذ متى كان التحديث مرمطة للقيم والمعايير؟، وهل نحن بلد فقير أم يدعى الفقر؟ هل تقلصت الصفوة؟ هل نكذب ونردد أكاذيبنا فنصدقها؟ هل من فرط الصخب فى المجتمع صرنا لا نسمع سوى أنفسنا؟ هل تسربت جرائم الأرحام - التى طفت على سطح المجتمع - إلى أقلام وحناجر البعض فصاروا يؤلمون أمنا.. مصر؟

طلع النهار، ولم أستطع النوم، واكتشفت أن ذلك الأرق الذى يزورنى ليالى كثيرة هو فى حقيقة الأمر.. أرق عام.

عفوا أنا إنسان سعيد!

أجزم بأن العنوان سيشد انتباهكم، لأن لا أحد يجرؤ على الاعتراف بأنه إنسان سعيد.. خصوصا فى زماننا حيث يتربص الحاسدون والحاقدون.. للسعداء! وفى العالم المتقدم يعترف البشر بأنهم سعداء، وعندنا يدعى المليونير الفقر وتشكو الجميلة من حظها الهباب.. المهم أن تبتعد عين الحاسد أو الحاقد عن المياه الإقليمية للإنسان السعيد.

ألسنا الشعب الذى يقول (اللهم اجعله خيرا) إذا ضحك بسعادة؟ مأساتنا أن عيوننا على الآخرين ترصد تحركاتهم، تفتش فى دفاترهم، تنبش فى ملابسهم. مأساتنا أننا (مشغولون) بغيرنا، تقتلنا المقارنة ويعذبنا تفوقهم علينا وتسعدنا هزائمهم، ورغم أن السعادة نسبية، فإن الطبيعى والمألوف أن يكون العنوان (أن الإنسان تعس) فالتعاسة هى إحدى مفردات حياتنا، وأظن أننا نتحمل جزءا كبيرا من أسباب تعاستنا، إن الشراهة فى السلطة أو الجنس أو المال تسبب تشردا نفسيا وتشرذما، والشراهة سلوك بشرى فيه الرغبة أو الطموح ولكن بإسراف، من منا لا يطمح للسعادة؟

وبقدر ما أسعدتنا التكنولوجيا فى حياتنا، بقدر ما سلبت منا السعادة البسيطة الضاربة فى عمق الإنسان والمؤثرة فى حياته، فقد أتعستنا وذبحت عفويتنا وسلمتنا للحزن ولو لم نعلنه جهارا نهارا، لكننا ـ والحق يقال ـ نعانى كبيرا وصغيرا غنيا وفقيرا من (أنيميا الفرح)، وربما نعيش لحظات خاطفة تمر كالبرق من الرضا عن النفس، ولكننا نعود

لحالة الضجر التى تسكننا دائما وحالة القلق التى نتنفسها. هناك بشر لا تهمه السعادة كما نرسم صورتها ولكن يهمه (الأمان)، هذا النوع من الناس خائف دائما من شىء ما، إن الخوف يعطله، يشل تفكيره، يمنع تسرب ضوء النهار إلى عتمة روحه. كان أحمد زكى فنانا ناجحا بكل المقاييس ولكنه كان خائفا.

من يملك أن يقول بالفم المليان (أنا إنسان سعيد)؟ لا أحد، فكل إنسان على ظهر الدنيا له تراكمات ألم فى مرحلة ما من حياته تنغص هناءه، لو هربنا من المدن والصحارى إلى أعالى البحار وجبال الجليد، لن نهرب من أنفسنا، فالناس هم المرايا ويذكروننا بالوجه القبيح ولذلك لا يحب رجال السلطة وهم فى القمة من رأوهم فى السفح ويروق لهم التخلص منهم. وأصحاب الملايين لا يصادقون أصدقاء مرحلة الصعلكة، إن النجاح محسود، والمال محسود والسمعة الطيبة محسودة.

السعادة، هل هى شاطئ بعيد؟ لا! أن تجد نفسك فى اهتمام ما يفتح مسامك على الدنيا وأن تعطى - دون انتظار المقابل - يمنحك إحساس الرضا وهو سعادة، أن تعمل ما تريد، درب من دروب السعادة لأن القهر عملا هو تعاسة التعاسة. أن تنام بلا أرق يحرمك من النعاس الكامل غير المنقوص هو سعادة تمنحك التوازن بالنهار. أن تتمتع بالاحترام فى المجتمع، سعادة وهى سعادة محسودة، لأن من يفتقد الاحترام يعانى من ذل تحقيره بين ناسه.

كم رأينا بشرا على قمة سلطة وهوى، كما رأينا بشرا على قمة الشهرة وسقطوا فى الظل، كم رأينا بشرا يجلسون على تلال المال ثم أفسلوا.

فهل سعادة الإنسان السعيد.. مؤقتة؟ هل الحياة مراحل وطبقات كالتورتة؟ تصعد الجبل، ثم تهبط. وهل السعادة هى سراب كاذب تحسبها ماء ثم تكتشف أنها صحارى؟! بالمناسبة، لقد اقتربت يوما من البدو - فى الصحراء - وكان في رأسى سؤال: هل هم سعداء؟ واكتشفت أنهم سعداء فى مجتمعهم المحلى المحدود، فإذا خرجوا للمدن، نشبت أظافر المدينة فى أعناقهم حتى أدمتها. يبدو أن للمدن أمراضها الخاصة مثل المظاهر والتنافس والحروب الخفية والضرب تحت الحزام، لهذا يهرب بعض الناس للقرى، للأصول، للبساطة، وأحيانا للبدائية! فى بعض واحات مصر.. حيث لا مظهر من مظاهر المدنية أو التحضر.. لا تليفزيون ولا ثلاجة ولا راديو ولا مياه معدنية ولا كهرباء! السياح يرونها (سعادة) والمصريون يعتبرونها (تغييرا) إنها تمنح سعادة مؤقتة لبضعة أيام مهما طالت.

هل (المجانين فى نعيم؟) كما يقال.. ربما! إنه يخلق من خياله المريض وهما يحيا فى

جلبابه، فهو نابليون مرة، وصلاح الدين الأيوبى مرة أخرى، وأدهم الشرقاوى مرة ثالثة، إنه يعيش فى مملكة من وحى عقله الغائب، يتمرغ فيها كما يشاء!

أنا إنسان سعيد، أشقى بعقلى، أتعذب من ذاكرتى، أقفز كالعصفور لكلمة حلوة تجعل الحياة رغدة، أكافح وأضل وأهزم اليأس وأطارد الاكتئاب الذى يقفز على بابى، أحب الحياة وأكره التشاؤم وأعيش لحظات شجن، عندما تهب على نسمة ذكريات أستدعيها من مرقدها لتطيح بانقلاب مزاجى. أنا مؤمن. أعتمد على الله فى مشاوير عمرى، أتعثر فى أحجار طريق من البشر. أنا متوازن، فقد أعطانى الله أكثر مما توقعت أو حلمت وعندما تنبت أعشاب الجحود على جدار عمرى، أقصها بالصبر والفهم، أدرك جيدا أن الحياة مسرحية عبثية، فإذا أخذناها بجدية حاصرتنا الصدمات وثقب الحزن أرواحنا، أتعطش للصدق لتكتمل فرحتى، ولكن الصدق مر وصادم، لهذا نعيش ونكذب كثيرا على أنفسنا وعلى الآخرين، ذلك أن (الحياة أكذوبة) تعاش وحذار من التأمل أو الإبحار فى محيطها اللانهائى!!

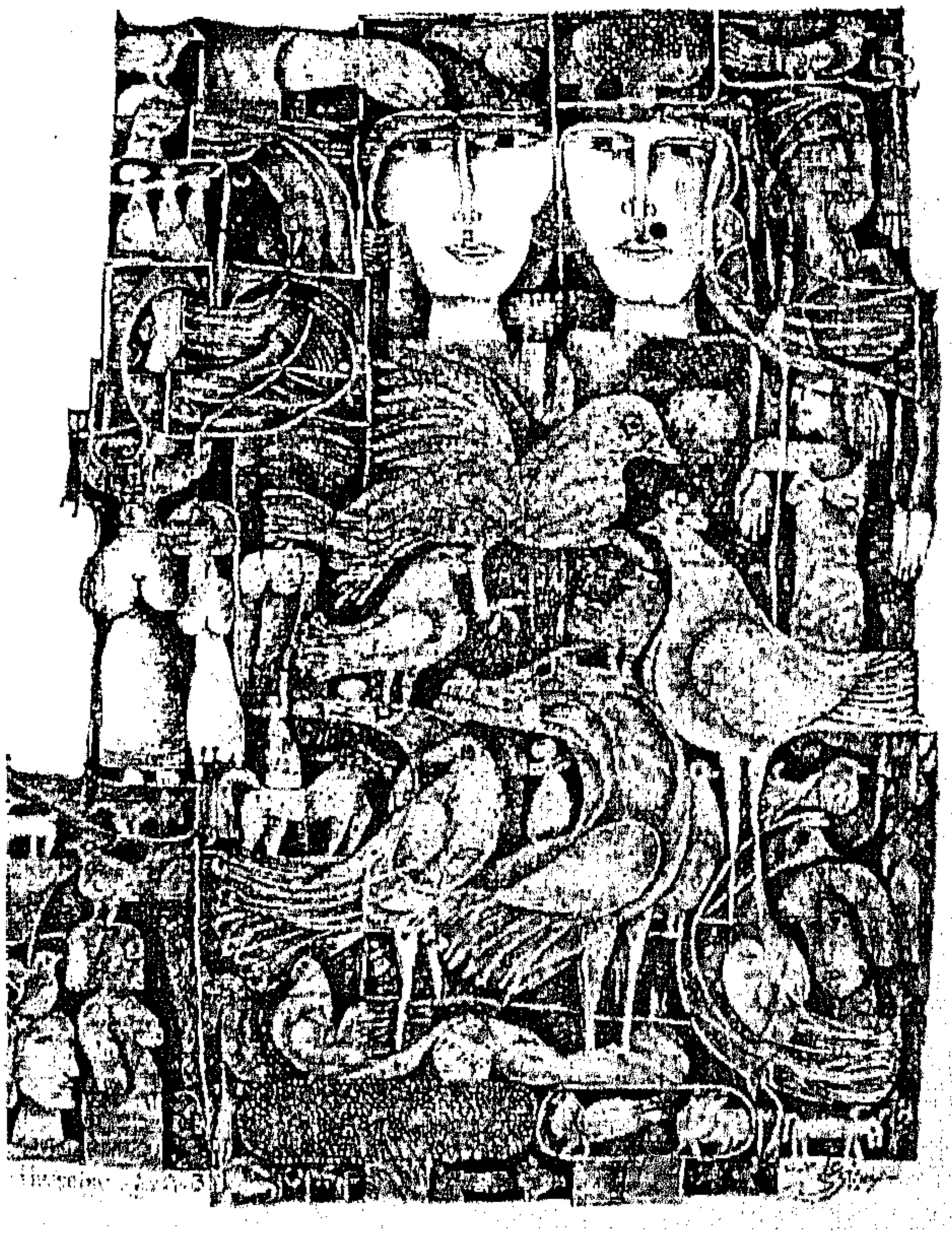

إن كنت طبيبى فساعدنى!

بحثت وفتشت ونقبت طويلا عن حب بطعم صدر الأم.. يمنح ولا يأخذ، فلم أعثر، اشتقت لكلمة تشعل الحب فى قلبى، فجاءتنى كلمة أشعلت الغضب فى صدرى.. كانت الكلمة - التى أتلهف عليها - طلقة رصاص.. نفذت إلى جدار القلب وهتكت شرايين الإحساس، تمنيت أن أنام كعصفور على راحة كفها، لكنى واصلت التحليق فلم أعثر على عش.. حلمت بحب يأخذنى من تروس الحياة التى تطحننا وتهشم عظامنا.. حب يعطى ولا يكف عن العطاء، حب بنفس طويل لا أنفاس متقطعة.

حب لا يطلب المقابل فلا يهبط إلى مستوى الصفقة، حب هامس دامع، ذلك الدمع الحنون، ولا يتقلص إلى رسالة صماء على الموبايل.

لكنى اكتشفت أننى أقيم صنما من الوهم وأبنى بيتا فوق رمال، وأنى أواجه أطياف خيال.

إن كنت طبيبى فساعدنى كى أعثر على هذا الحب، فأنا لا أريد أن أبحث عنه فى السوبر ماركت حيث المعروض منه متنوع، حب بحبة البركة، حب بزيت الزيتون، حب بطعم الرنجة، إنه حب له تاريخ ابتداء وله تاريخ انتهاء صلاحية.

بحثت وفتشت ونقبت طويلا عن اختراع اسمه الرقى.. لا يباع فى الصيدليات ولا فى محال العطارة ولا يستورد من دول بعينها، كان (الصنف) موجودا فى حياتنا أيام الزمن

الزراعى للأشياء، أيام (.. وأنام مطرح ما يجينى النوم)، رقى فى المشاعر ورقى فى الأحاسيس، رقى فى التعامل وفى السماحة، رقى فى الشارع ورقى فى المدرسة، رقى فى الأخلاق.

حين كانت المعاملات المالية، كلمة، حين كان الجار يسأل عن الجار. حين كانت الزوجة تغسل قدمى الزوج بعد طول إرهاق. حين كان الناس يجمعون مخلفاتهم أمام بيوتهم وتلتقطها عربية البلدية ثم ترش الشوارع صباحا ومساء. حين كان الصغير يحترم الكبير ويترك الراكب مقعده فى الترام لامرأة حامل. حين كان الأقباط يصومون أياما فى رمضان، وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم وأفراحهم.

لكن الزمن تغير، وتوحشت الناس، وقد زاد التعداد فظلت الرقعة الزراعية الضيقة فى الوادى كما هى، لحظتها تصارع الناس بالأكتاف على الرزق.. وصار الود بالأجر وسقط (الرقى) تحت عجلات القطار، فمزقه إربا.

إن كنت طبيبى، فساعدنى كى نستعيد بعضا من الرقى وليس كله، إذ بدون هذا (البعض) من الرقى سنصير غابة وحوش يأكل الناس بعضهم.

إذ بدون هذا(البعض) من الرقى ستظللنا سحابات الكراهية التى تمطر أحقادا.

إذ بدون هذا (البعض) من الرقى سيصبح كل شىء معروضا بأبخس الأثمان فى الأسواق، ونقول (ماشى) لمن أسدى لنا خدمة بدلا من (كتر خيرك).

بحثت ونقبت كثيرا عن ثقافة هى آخر ما يتبقى فى أذهاننا بعد التعليم، فلم أعثر على شىء أزهو به مثلما كانت هناك أسماء ترصع سماءنا الأدبية، وكان الفكر كفيضان النيل وقصيدة الشعر تنشر فى الصفحة الأولى من الجرائد.

وكانت المعارك الفكرية تخلو من الركاكة والفجاجة ولغة الحوارى وشتائم الصبية، كانت فى حد ذاتها إضافة للفكر، أيام عرفت الكتب طريقها للعيون وبرغم دعوة (الجميع) للقراءة، تعثرت الكتب حيث سقطت فى معركتها مع الشاشات المضاءة على الدوام لا تترك فرصة لكتاب تتصفحه عين قارئ مشتاق.

بحثت عن ثقافة تتحول إلى سلوك متحضر يحكم حياتنا المضطربة، فلم أعثر إلا على همجية وتطاول على الأعراف، انتحيت جانبا وربما انتحبت بكاء على حال استعصى على الحل وصار من المحال.

التحضر، كم هو جميل ككلمة وقيمة ومعنى، التحضر يعبر حواجز التخلف والعقم فى التفكير، التحضر يدعونا لفهم قيم ديننا والأديان الأخرى فى رحابة بعرض الأفق.

التحضر يقلم أظافر العنف والعيون المتحرشة بالنساء. التحضر يعلمنى كيف أستقبل رأيك المعارض وأرد بفهم وهدوء، وليس بلون شرشحة النساء لبعضهن فى العشوائيات. التحضر يفرض على الصوت المنخفض وقلة الضوضاء والصلاة بدون ميكروفونات، فالعلاقة بين الإنسان والله علاقة خاصة ليس فيها قهر ولا إزعاج. التحضر يفتح مسام العقل لاستقبال العالم على شاشة الفهم، فلا أرفض الجديد لمجرد أنه جديد، ولا أعادى ما أجهله، والشعوب التى سبقتنا عرفت جيدا أجهزة (الوعى) المثبتة فى عقول ناسها قبل أجهزة الموبايل والكمبيوتر والآى فون.

إن كنت طبيبى، فساعدنى على الأمل للعثور على تذكرة فى قطار التحضر المسافر للغد وزيارات لناس بلدى لبساتين التحضر، ومناهج لأطفال بلدى تحض على التحضر.

بحثت وفتشت طويلا عن (جدية) تنتشلنا من واقعنا المتردى.

جدية تجمع الجادين فى بلدى وهم كثر يشقون نهرا وتيارا فى كل ناحية وقرية.

جدية تحارب التسيب والتساهل والتراخى، جدية تضع البشر الصحيح فى المواقع الصحيحة ولا مجال للصدفة ولا للأقارب والأنساب.

جدية مهمة، العمل فيها بلا صوت عال وبلا ذنب وبلا خواطر ولا حسابات.

جدية تقطع الألسنة، فإذا نجحت امرأة، قالوا وراءها رجل تمنحه عطرها، وإذا نجح رجل، حاربوه حتى يقصوه.

إن كنت طبيبى، فساعدنى على طريقة مثلى نتعلم فيها ألف باء الجدية.

فما أحوجنا لقراءة تاريخنا المؤهل فى القدم الذى سطعت شمسه يوما على الغربة، ولن أتسلح بتفاؤل كاذب أو أجمل من قلب قبيح.

إن كنت طبيبى فأنقذنى من هذا الهم، فهو هم عام والخاص منه تأثر بالعام.

مبارك هذا البلد برجاله فهم ثروته التى لا تنضب.

مفهوم الجرأة فى البرامج الحوارية..

أحمل على ظهرى تجارب السنين لأكثر من ثلاثين عاما فى إعداد البرامج التليفزيونية وتقديمها كمحاور، دلفت إلى مبنى مسبيرو العتيد كصحفى، ولعلى كنت أول صحفى يجلس أمام العدسات تسبقنى سنوات عشر من الإعداد ولم أهبط على الشاشة بالبراشوت.

أحمل على ظهرى تجارب السنين الطويلة فى بلاتوهات التليفزيون، خلف العدسات وأمامها، تؤهلنى للكتابة فى موضوع اختلفت فيه الآراء وتفرعت وتشعبت، وليس المقال موجها للإعلاميين فقط، لأن هذا أمر يخصهم ولكنه يهم أيضا المشاهدين على اختلاف ثقافاتهم، وهم ما اصطلح العلم على تسميتهم بالمستقبلين، فالبث التليفزيونى المسجل أو على الهواء هو (الإرسال) والمشاهد هو (الاستقبال) والأزمة ليست فى (البث) وحده، إنما فى (المستقبل).. بكسر الباء، فالتدنى - أحيانا - فى ذوقه، أوجد بالضرورة تدنيا فى البث لإرضائه واللعب على أوتاره، وصار الرداح والشتام وصاحب أو صاحبة الصوت العالى يدغدغ مشاعر فئة من المشاهدين، أزعم أنها كبيرة، فالمشاهد - دون أن يدرى - صنع نمطا من البث الفج، سؤالا أو تعليقا، وظهر فى الأفق السؤال الجرىء والسؤال الفخ والسؤال الشرشوح. إن ناس جيلى يتذكرون أسئلتى الجريئة التى لم يسبقنى إليها أحد فى الإذاعة، كان السؤال الجرىء .. يستخرج من الضيف رأيا شجاعا، ففى برنامج (أوافق أمتنع)

الإذاعى، كانت الفكرة لآمال فهمى والأسئلة لى والتقديم لسناء منصور، كان هناك سؤال ليوسف إدريس: هل تمتنع عن التدخين فى حفلات أم كلثوم؟ وسؤال لأحمد سعيد: هل تستريح لمقدمات جلال معوض لحفلات كوكب الشرق؟ وسؤال لجمال الليثى: علل سبب فشل سعد وهبة فى إدارة إنتاج شركة الدولة فى السينما؟

هذه الأسئلة التى تبدو الآن عادية، كانت فى زمانها قنابل، فقد منعت أم كلثوم أغانيها من إذاعة الشرق الأوسط (عقابا على تطاولنا على الأعتاب الكلثومية)، وقرر على خشبة وكيل وزارة الإعلام وقتئذ وقف برنامجى التليفزيونى (الغرفة المضيفة) بحجة استنفاد أغراضه(!) ووصل الأمر إلى مسامع السيد على صبرى أحد الأسماء المخيفة فى الزمان الشمولى بعد شكوى سعد وهبة، فكلف واحدا من معاونيه باستدعائى لمكتبه فى الاتحاد الاشتراكى وقال لى كلمة واحدة هى (اهمد)، بل وصل الأمر إلى المحاكم بعد سؤال لعبد الحليم حافظ من أثقل ظل ممثل فى مصر؟ فكانت إجابته السريعة: صلاح نظمى، ورفع صلاح نظمى قضية على الإذاعة وذهبت إلى المحكمة باعتبارى المعد والكاتب وسناء منصور كمذيعة ويسبقنا عبد الحليم حافظ وكان المحامى هو الأستاذ لبيب معوض وحكمت المحكمة ببراءتنا.

ثم جاء التليفزيون وبدأت برامجى - كمحاور - أعطته الصحافة فضل الضيافة وتوجيه السؤال، ولأن برامج التليفزيون كانت تعتبر الجرأة خطيئة، أطلقوا على (المستفز) وأعترف أنه كان استفزازا نبيلا لمصلحة المشاهد، أتذكر أنى حاورت كرسى رئيس حى طلب أجازة عقب وفاة طفلين فى بلاعة مفتوحة، وبالطبع لم يرد الكرسى عندما سألته: كيف سمحت للجالس عليك بإجازة وما زال صراخ الأم وشهقات الحزن مدوية؟ وسألت المحافظ عمر عبد الآخر: متى يقدم المسئول فى مصر استقالته؟

الجرأة، اختراق فى عقل وقلب وصدر ضيف يجلس أمامى وللدقة (أستضيفه)، والحوار معه هو دقات ناعمة على باب عقله وليس شومة أو كف ثقيل، هناك علم اسمه صياغة السؤال استخدمه جيدا فى السؤال الجرىء، وهذه نماذج للأسئة الجريئة وقد أذيعت على الشاشة، لأحمد نظيف: هل نجحت فى تسويق نفسك وإنجازات حكومتك؟ لوزير البيئة: كيف تقرأ الاعتداء على النيل من هيئات حكومية نهارا جهارا؟ لوزير الداخلية: هل يبتلع أمن الدولة ميزانية الداخلية ولهذا توحشت الجريمة؟ لفضيلة المفتى: من يعرف يا مولانا عدد أقباط مصر، هو سر حربى مقصود التعتيم عليه؟ لفتحى سرور: هل تسلل ٨٨ عضو إخوان من ثقوب الحزب الوطنى مثلما تسلل حزب الله من ضعف الحكومة اللبنانية؟

الجرأة (استنفار فكرى) ومحاولة ذكية بمفاتيح معقولة لفتح الصناديق المغلقة فى البشر.. الجرأة ليست (الإبحار المتدنى فى الجنس) ولا (الإبحار الفج فى الدين) ولا (الابحار الهمجى فى السياسة على طريقة قذف المسئول بحذاء)، الجرأة (ليست تبنى أفكار الخصوم وأعداء النجاح)، ولا (الكلام المنشور فى الصحف) ولا (التصريحات المتفبركة) عن الضيف، الجرأة هى (تجاوز المألوف التقليدى) و (كسر أصنام فكر متعفن) وهزيمة (التخلف)، الجرأة ليست (خلع ملابس الضيف) أمام المشاهدين ولا (احتقاره بين ذويه) ولا (هز الثوابت فى الاحترام) ونجاح المحاور يعتمد على (مصداقيته) عند مشاهديه فلا (ينافقهم بادعاءات كاذبة أنه مثلهم وغلبان) ولا (يتعالى عليهم من برج)، الجرأة مذاكرة جيدة لضيفى فكريا وذهنيا وإنسانيا وعلى قدر هذا الفهم تكون أسئلتى المدببة.

فالجرأة فى الحوار التليفزيونى هى قصة مراوغة ذكية كمباراة شطرنج بين اثنين، والانتصار فى الحوار بقدر ما أضاف المحاور - عبر حواره - للمشاهد من معلومة وإحاطة وإضاءة وإضافة، فليس - بين المحاور والضيف - (مصارعة حرة) وكسر أنف أو عظام، وليس باسم الجرأة يتحول الأمر إلى (صراع ديكة) وإن كان الجمهور المسطح يفضل ذلك، وهذا أمر أعرف أسبابه (!). زمان، كان أنيس منصور يعد للمذيعة ليلى رستم برنامج نجمك المفضل مع د. طه حسين عميد الأدب، وقد جمع لها فى بيت طه حسين (فيلا رامتان) كل رموز الفكر والأدب ودار نقاش جرىء محترم لعله وثيقة نادرة للأجيال.. الخلاصة أن الجرأة فى البرامج الحوارية ذات التأثير الفعلى الراسخ فى الشارع وليس المؤقت يحتاج لمصداقية وخبرة وتعريد، فالمحاور هنا، صاحب (رأى) لأن الحياد موت للحوار، والجدل الراقى.. له عطره الخاص عند مشاهد راق.

الكلمة بين الجدية وحبوب الزعامة!

لا أظن أن مصر قد شهدت ارتفاعا فى سقف الحريات مثلما تعيشه الأقلام الآن.. وكاتب هذه السطور قد أتيح له أن يرى الرقيب يجلس فى الغرفة المجاورة يقرأ بروفات المقالات والأخبار ورسوم الكاريكاتير، يحذف منها ما يشاء حسب تعليمات الزمن الشمولى، ولا أنسى حينما تعرضت ـ عبر تحقيق صحفى ـ لقضايا تدنى أجور المدرسين فاستدعانى الرقيب وكان رجلا مهذبا ونصحنى بالابتعاد عن (الدوشة ووجع الدماغ).

ولكنى واصلت عندما أرسلت خطابا نشرته صباح الخير لعبد المحسن أبو النور نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة أهمس فى أذنه أنه زار قرية صالحجر وللدقة بلاتوه صالحجر وأن سيارات الاتحاد الاشتراكى نقلت شتلات الأرز لتزرعها فى الأرض التى سيتفقدها الباشا أبو النور، وقلت إن لدى أرقام السيارات التى نقلت الشتلات وأسماء سائقيها، وقد فصلنى النظام الشمولى ١٤ شهرا بلا أجر ولولا رجولة محمود السعدنى وشهامة الفنانة نادية لطفى لاختنقت من الوحدة والعزلة والجوع.

أريد أن أقول إننا كأصحاب أقلام زمن جيلى عشنا أسوأ أنواع العقاب فى حالة مجرد التلويح بالإساءة للنظام مهما كان حجم الصدق.

كثيرون ينسون هذه المرحلة لأنهم (سمعوا) عنها ولكن أحدا لم يكتو بنارها، واسألوا سامى شرف ـ متعه الله بالصحة ـ فقد كان من أهم رموز الزمن الناصرى وعنده أسرار

كثيرة منها ذبح حرية التعبير والإطاحة بكبار الكتاب بسبب رأى، من فكرى أباظة إلى.. مصطفى أمين.

فى زمن مبارك، فتح الأبواب والنوافذ ليستنشق الناس نسمات الحرية وأعطى حرية التعبير آفاقا بعرض المدق حتى طال الأذى المعنوى الرئيس نفسه وعائلته، لم أسمع عن كاتب كسر مبارك كبرياء قلمه، وكلنا يتذكر عفوه عن زميلنا المشاكس الصادق إبراهيم عيسى. ولم تكتف الصحف الخاصة والمعارضة بـ (استثمار) حرية التعبير، بل حظيت به قنوات فضائية وساد مفهوم مضحك يدل على عدم الفهم والنضج وهو وجود (إعلام رسمى) و(إعلام حر)، مع أن المنظومة واحدة ما دامت معبرة عن مصر وليس عن جزر القمر أو نيكاراجوا.

وأصبح كل من يكتب أو يذيع فى أجهزة الدولة (صحف ومجلات وشاشات) يسمى (بتاع الحكومة)، وأصبح كل من يشتم ويسب ويتهجم على الحكومة أو النظام (جبهة الأحرار الرافضين)، لحسن الحظ أن الشعب المصرى من أذكى شعوب العالم فهو يبحث عن الجدية فى الكلمة والاستنارة فى الرؤية والتبصير فى النصيحة والنضج فى الرأى، المصرى البسيط حتى محدود الدخل والثقافة لم يعد يلهث وراء الشتامين والمهيجين للرأى العام، صارت النبرة الصادقة تؤثر فيه، وصار لديه التمييز بين كاتب جاد لا تهمه الشعبية الرخيصة وكاتب مهياص يتعاطى حبوب الزعامة وينصب نفسه زعيما، هل الزعامة هى التشكيك فى مقاصد الدولة العليا؟ هل الزعامة فى إفساد العلاقات الثنائية بين مصر ودول صديقة؟ هل الزعامة هى التحريض على الرموز وتعميق عدم الثقة بالحكومة؟ هل الزعامة هى التهليل لزبانية جهنم الذين يريدونها نارا مولعة؟ هل الزعامة هى تعرية ثياب المسئولين (واللى ما يشترى يتفرج؟).

من المهم أن أقول إن ليس كل آراء وقرارات الدولة صائبة، هناك قرارات هوجاء وهناك قرارات عشوائية وهناك آراء تنقصها الرؤية السليمة، من المهم أن أقول إن فى البلد فسادا تترصده أجهزة الرقابة فى الدولة.. وهناك واسطة مدفوعة الأجر، وشراء ذمم وقنابل دخان مفتعلة، وسحب سوداء تسحب تفكير الناس إلى مناطق أخرى للتعمية، كل هذا وارد فى دولة، ولكن دور الكاتب فيما أظن هو التبصير بالصواب لا بتقويض الحلم والأمل، هذا البلد لن يقوم له أى كيان إلا بعقولنا وسواعدنا، وهذا البلد نحن ربانه وبكل بساطة يمكن أن يغرق بمن عليه ولن يهب لنجدتنا أحد، من هنا تأتى مسئولية الكلمة ومدى جديتها. ملعونة النجومية إذا كان ثمنها سقوط دولة وانتكاستها، ملعونة الشعبية إذا كان ثمنها زراعة اليأس فى الصدور.

إن الأعراض الجانبية لحبوب الزعامة هى التهور والخلط بين الأوراق وإشاعة الأسى ومفيش فايدة وخربانة خربانة، وأظن أنه من حق دولة فى حجم مصر أن تحمى نفسها من أنفلونزا الكتاب قبل أعدائها الحقيقيين. للعلم، لست مع (ميثاق البث) فالسماوات المفتوحة لا يمكن مصادرتها بقانون، وفى الوقت نفسه لست مع (التهييج) للشارع واللعب على أوتار الدين والتن والكلام المقزز عن الأقليات، هذا وطن واحد ضم مسلمين وأقباطا ويهودا فى سلام ووئام، من صاحب المصلحة فى إثارة هذه النعرات؟ كفانا هوانا من التخلف باسم خصائصنا وهويتنا، فلنهذب الخصائص فإن الحبر الذى تستهلكه الصحافة فى المعارك المفتعلة، حبر فاسد كالدم الفاسد، إن كل نقطة حبر لا تبنى طوبة هى حبر عدو وأحيانا من (أقلام صديقة) و.. ويا متعاطى حبوب الزعامة، اتركوا الزعامة لأصحابها، فإن فى رقابهم وفوق أكتافهم مسئوليات جساما والعبوا فى ملاعبكم الصغيرة.

وقد كان المفكر العظيم سلامة موسى يلخص مفتاح التقدم فى مصر بكلمة واحدة هى (الضمير)، لن أقول ـ مثل القطيع ـ لقد اختفى فى ظروف غامضة، فما زالت هناك ضمائر حية بصوت منخفض وبتواضع العشب، ما زالت مصر (الأمل) هى ضوء الشمس ومن يملك أن يحجب ضوء الشمس؟!

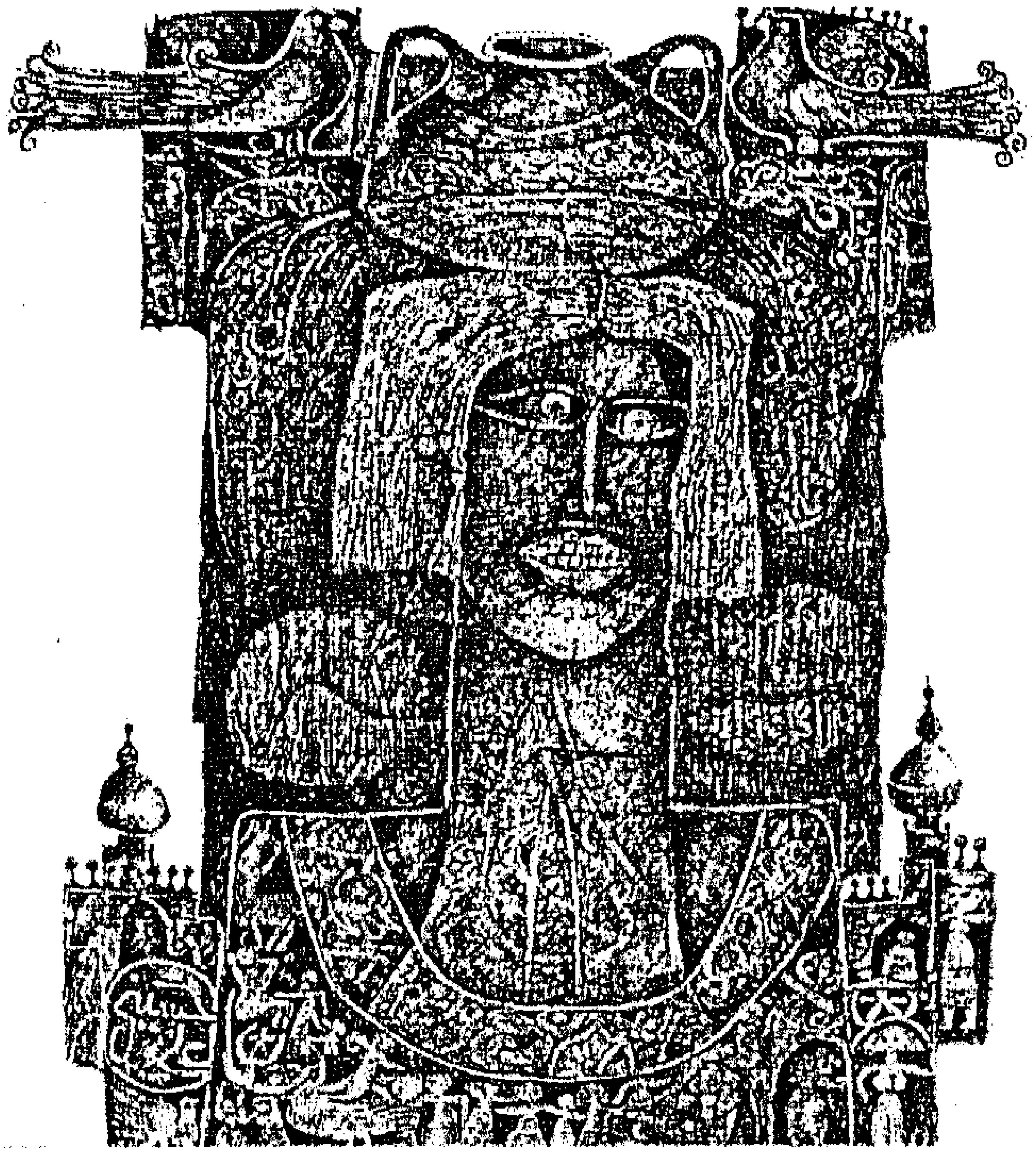

إن أتيت الروض يوما!

إن جلست تتفرج لأنك بلغت الستين وشدتك شيشة فى مقهى أو ثرثرة بلا طائل فى ناد أو أدمنت النميمة وفقدت الشهية للمشاركة مع الآخرين وانضممت إلى عجايز الفرح، فأنت قد يبست وتكلست، وتحفر قبرك!

إن لم تحزن لأن شجرة طويلة العمر وارفة الظلال.. ذبحها مسئول محروم من نعمة الجمال، ولم تحزن لأن وزيرا تهمه الشعبية قبل خدمة بسطاء الناس، فأنت مغلق القلب، سقيم الوجدان، تكبر قبل الأوان!

إن تذكرت شهادة ميلادك وكلما مر قطار العمر.. تراجعت طموحاتك ولم تعش تجربتك وتمتطى خيول الأمل لتهزم كتائب الإحباط، فأنت تدنو ـ عفوا ـ من لحظة الرحيل!

إن لم تحلق بجناحين وتفكر بجسارة وتركب الصعب وتحذف من قاموسك كلمة مستحيل وترنو للأفق البعيد، داهمك اليأس، واليأس عتبة الرحيل!

إن لم تسعفك دمعة فى لحظة حزن أو نشوة فى دمعة حب، أو رعشة إحساس غامض سرى فى بدنك بلا مقدمات، فقد آن الأوان أو ساعة الرحيل. صحيح أن لكل إنسان فوق الكرة الأرضية سيناريو له بداية وله نهاية تقررها السماء!

إن لم تستغرقك أحلام غد أفضل أو مشاعر حب أرقى، أو عذوبة نهار أحلى، فالرحيل قد صار على بعد خطوات منك، وليس بالضرورة أن يكون الرحيل هو الموت، ولكنه فقدان

البصر والبصيرة فى آن واحد!

إن فقدت الدهشة وهاجرت الطفولة من صدرك، فأنت تزف نفسك للغروب ولن يستلفتك جمال زهرة أو أنوثة امرأة أو سحر لحظة الشروق وهى تخفف الندى!

إن لم تنادك ذكرى حلوة أو تراكمات ألم أو أيام طفولة باقية أو خربشة حب لا مستقبل له، فأنت محسوب ضمن (الأموات) برغم أنك فى سجلات الحكومة من الأحياء!

إن المدهش جميل وفتح المسام والشرايين ومؤسسة الارتباط الزوجى فى حياتنا تصادر الدهشة، فيأتى الملل وشقيقه الضجر يغلقان المسام المفتوحة ويغتالان البراءة والدهشة!

إن لم تسافر فى الخيال وتعانق الهذيان وتتسكع فى مدن لم تزرها ودست شواطئ لم تطأها قدماك من قبل وقابلت امرأة لفحك لهيب جمالها، فنبع خيالك قد جف وربما أصابتك الهشاشة وضعفت مناعتك للمغامرة!

إن محوت ذاكرتك فلم تتبين الفرق بين الأمس واليوم، ومحوت ذكرياتك متعمدا عامدا، فأنت بلا قلب يختلج، إذا هبت رياح ذكرى وأنت بلا ذاكرة أو هوية، فستذهب لمقبرة النسيان بعد قليل!

إن أتيت الروض يوما ولم تسله عن نضارة الورد ولماذا اخضرار أوراق الشجر، ولماذا زقزقة العصافير فوق الأغصان، فأنت تخاصم الجمال والقتامة تسكن صدرك، وتشيع نفسك بلا دموع ندم!

إن ضقت ذرعا بالشباب وبأغانى الشباب وملابس الشباب وسينما الشباب وجنون الشباب وصراعات الشباب، تكون قد أخذت مقعدك فى مدرجات الشيخوخة والمسنين وأوجاع الظهر وتحجر العقل!

إن لم تفرح بسقوط مطر يبلل معطفك ولم تفرح لموقف عز عاشه وطنك ولحظة كبرياء يصر عليها بلدك، فلقد هاجرت من صدرك آه الإعجاب وآه الإحساس وآه الدهشة، ولم يبق لك سوى آه الحسرة!

حين لا ترى نور الشمس يسطع فوق الأسطح ولا ترى ضوء القمر يلمع فوق أكتاف نساء جميلات، تفقد شهيتك للحياة تحت وطأة هموم ثقيلة وتشعر أن وزنك تضاعف فأنت تؤهل نفسك لتصبح خبرا فى صفحة الوفيات!

إن ضخمت التوافه التى تلتقى بها فى شارع الحياة واعترضت على ناموس الصدام بين الناس لأسباب مختلفة، وأقمت طويلا فى محطة النكد، فأنت تستدعى على عجل أمراض الضغط والسكر وتنادى الجلطات والموت بالسكتات!

إن تصورت أن المرأة هى حائط المبكى والصدق الذى ترتمى عنده، تكون قد أخطأت الهدف، وإن تصورت أنها طوق النجاة من الكآبة، تكون قد أخطأت الهدف، وإن تصورت أنها تمنحك راحة البال ورغد العيش، فالأمر يتوقف على فهمك لها، فهى - أى المرأة - جزيرة تحكمها الانقلابات، ومصنع للشكوك والريبة يدار بسولار الهرمونات الذى يصعد بها إلى جبل الأمنيات ويهبط بها إلى سفح الواقع.. فكن.. كن حذرا على حياتك من حوادث محور الفساد!

إن رفضت رياضة الافتراضات وهى سباحة العقول ضد التيار، ورفضت رائحة الأشجار بعد المطر، ورفضت دموع الشوق بعد الفراق، ورفضت موسيقى الزمن الصاخب، ورفضت التجارب الجديدة فى الفن، ورفضت ثمن التمرد والعصيان، ورفضت ضريبة رأيك ورفضت عقوبة انتمائك وولائك، فأنت تنتمى لزمان غير زماننا وتهوى الانكفاء على الذات وتسقط من ذاكرة المجتمع!

إن أتيت الروض يوما، اقفز فوق الأشواك والثم زهرة التفاؤل، وتعلم الدأب من ملكات النحل، واستظل بأشجار الجسارة واستنشق عبير الحب.. الحياة والعمل والمرأة، وخضّر أرض حياتك بالتجربة وتأمل مخلوقات الله لتسجد امتنانا لمهندس هذا الكون.

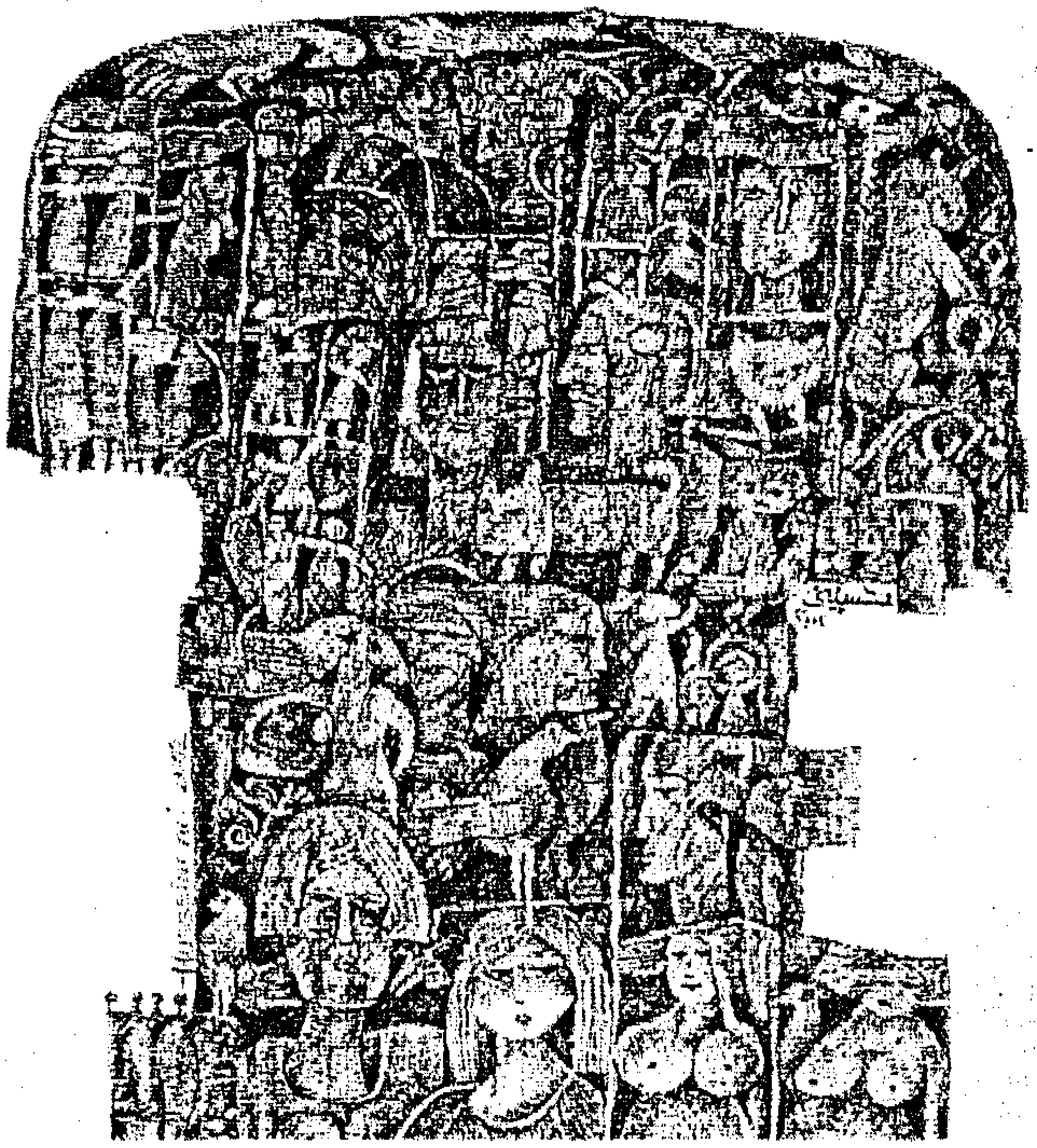

عطش إلى شيء غير.. الماء!

لست مثاليا ولا أستطيع! أنا إنسان من لحم ودم ومشاعر وأحاسيس، ومن أخطائي تعلمت الصواب، ومن هزائمي ذقت طعم الانتصار، وفي مرايا الآخرين رأيت نفسي! لم أفقد الدهشة، فما زلت أنبهر، ولم أفقد الحماس، فمازلت أغضب، أعيش العصر بهمومه وأوجاعه قارة النفس البشرية بالتأمل ولا تزال النزوات وقودا على الطريق ولولا الأمل، لكفنت نفسي!

أشعر بالعطش لشيء غير الماء، هذا الظمأ في عقلي وصدري ويعشش في وجدان عقلاء منا في مصر تلك الدرة المحروسة بعناية الله ورعاية المخلصين لها، نعم (الميه تروي العطشان) ولكن هناك ما يروي القلب والوجدان.

أتوق للعطش لتفعيل العقل وبلغة الشارع تشغيل المخ وتقفز أمامي عبارة رددها الحس الشعبي وهي: ده مخ مش مهلبية، لكننا عاملنا المخ، في أحيان كثيرة على أنه مهلبية وهبطنا به إلى مستوى (البرطوشة)، كان الفنان الراحل الكبير حسن فؤاد يقول: (دي أمور تتاخد بالعقل، إحنا مش بنعمل قباقيب).. ألغينا عقولنا لأن الأنانية في أبلغ صورها سكنت نفوسنا وجعلت منا(نفوسا ميتة) نسبة إلى رواية جوجول الشهيرة، وحين نلغي عقولنا، نصبح فريسة سهلة للدهماء والعشوائية والغوغائية، ونفكر بعواطفنا وتتحول مباراة كرة قدم رياضية مع فريق الجزائر كساحة حرب مشحونة بعدوانية صنعها إعلام طائش وتسقط فيها الرياضة شهيدة.

في انتخابات مجلس الشعب، نلغي عقولنا لأن (القبلية) تسكن نفوسنا ونتصرف في أصواتنا كالسائرين نياما، بجنيهات معدودة تشتري الأصوات وبشوية بطاطين وشكارتين

رز تشترى الأصوات وبوعود عمل بعد البطالة تشترى الأصوات، نعم، فلا شىء يدهش أكثر من الحقيقة.

أشعر بالعطش للتسامح، إنها قيمة إنسانية مضطهدة فى حياتنا؛ وما كل الفتن الطائفية التى تظهر على سطح المجتمع بين الحين والآخر إلا نتيجة غياب التسامح.. فى السبعينيات طرت إلى نيقوسيا العاصمة القبرصية لأحاور الأسقف مكاريوس حول الحروب الناشبة بين الأتراك والقبارصة، وقال لى الأسقف الحكيم يومئذ: إننا بحاجة للتسامح في العقول والصدور، لأن قوات الأمم المتحدة ستحفظ النظام الحدودى وقتا ثم يعود الصراع. ما أبلغ قول مكاريوس، فالقوة لا تمنع الصراع والمعالجات الأمنية لا تمنع الصراع، ولكنه التسامح وقبول الآخر والرغبة المشتركة فى الحوار.

ولست فى حاجة إلى التذكرة بأن (التعليم الراقى الكامل بدون مناهج محذوفة وبدون قنوات تعليمية تستعيض فيها عن اللقاء الحى المباشر بين التلميذ وأستاذه) هو القادر على أن يملأ خياشيم الروح بالتسامح.

بى عطش إلى التقدير، المعنوى في المجتمع، إننا من فرط أنانيتنا المزدوجة لجأنا للتعتيم على أى جهد أو نجاح واختفى التقدير ولكنه أحيانا يلمع فى أداء فعلى يثير الاحترام، إن قيمة التشجيع ضرورة قصوى فى ميدان العلم ومعاهد البحوث والمراكز القومية للبحث العلمي، لأن العلم فى مصر (مولد وصاحبه غايب)، وأن يتبع البحث العلمى ذيل وزارة، إهانة لمصر وللعلم، تشجيع العلماء ماديا ومعنويا فريضة غائبة.

بى عطش إلى الحب بدون مقايضة، إن أسوأ الأشياء فى الحياة هى (الود بأجر) وأكثرها سوءا حين يصبح الحب صفقة، لكل لفتة ثمن ولكل إيماءة ثمن، هنا، يتمنى المرء تصحير الشفاه، ولست خياليا، فلا حب بدون مقايضة إلا حب الأم وليس لعطائها السخى فواتير. بى عطش للصدق فى الكلمة، بى عطش لثقافة الفرح وليس بالضرورة أن ترتبط بالكورة، بى عطش إلى الذوق السليم ولن يكون إلا إذا قاطع الناس وجهه الدميم، بى عطش إلى الحساب الدائم، فبدونه تكبر خطايا المجتمع وتصنع بركة راكدة من الفساد ويستفحل! بى عطش للولاء الحقيقى لبلد أعطاك وعلمك ومن حقه عليك الانتماء الصادق له، بدون الانتماء تغدو البلد جزرا معزولة من المصالح الرخيصة. بى عطش إلى الحياة والخشا والسفور آفة والحرية ليست فوضى العبث بالقيم، والحياء من أجمل صفات الأنثى بل هى مرتبة الأنوثة العالية، إن الناس تصف شبابا لاهيا بقلة الخشاء، نعم.. ما عادت البيوت فى معظمها تربى، صار هدفها الأوحد تستيف الجنيه فوق الجنيه من أجل أحلام استهلاكية أو دروس خصوصية، ويوم غابت سلطة الأب، فقد الأولاد والبنات معيار الخطأ والصواب. بى عطش الديمقراطية غير منقوصة، ديمقراطية مصارحة ولا تجلب نكسات ومهما كانت مساوئ الديمقراطية فهى أقل بكثير من مآسى اختناق الحرية وانتهاك العدالة.

نهر الحياة بين الماضى والحاضر

لا يتوقف نهر الحياة عن الجريان مهما صادفه من نتوءات أو صخور، إنه ماض فى مجراه والماضى يصب فى الحاضر والحاضر يستشرف المستقبل، ولا يبكى نهر الحياة على ماض راح ولا تؤرقه ذكرى طواها النسيان، تفترسنا الحياة بين فكيها وتمضغ عذاباتنا، فهى غابة بشرية وعددها بالمليارات وما زالت صرخات ميلاد أطفال جدد تضاف إلى تعدادها، وما زال الموت يحصد الأرواح، وكل ساعة تستفحل أنانية البشر ويسقطون صرعى ذواتهم، فهم محور العالم وغيرهم جزر معزولة.

وسط هذا الركام، يرتفع صوت أرغول حزنى، فهو قادم من جيل آخر، ربما يصادف أذنا عطشى للشجن، وربما يضيع صوت الأرغول وسط أصوات صاجات وطبول المداحين والكورس، وأكتشف أنى صفقت لمن استحق التصفيق ولو كان للقطيع رأى آخر، واكتشفت أن صفيرى كان لمن لا يستحق غير ذلك مهما كانت الزفة، وعلى سن قلمى تتجمع أحزانى وكأنى ألملم سحبا داكنة تنذر بالمطر، أفتقد أسماء كبيرة رصعت هذا الوطن، أفتقد جمال حمدان وسيد عويس وحسين فوزى ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وأم كلثوم وزكى رستم وأحمد زكى ومحمود مرسى وسناء جميل، أفتقد موسى صبرى ومصطفى أمين ومصطفى شردى وأحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس وسمير سرحان ونزار قبانى، أفتقد عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين وكمال الطويل ومحمد الموجى ومرسى جميل عزيز، وبليغ

حمدى، أفتقد محمد زكى عبد القادر وإبراهيم المصرى وصلاح حافظ.

ما أحلى أدب الافتقاد، حين أتذكر فوق الورق واحدا أعطى عصارة حبه للبلد ومضى وصار ذكرى- مجرد ذكرى، وفى بعض الأحيان (يعتمون) على هذه المنح الإلهية لوطنى، متصورين بغباء وسطحية أنهم (عاشوا زمنهم وكفى) ونسوا أن هذه العصارات أسهمت فى تخصيب أرض المعرفة إن صح التعبير! اكتشفت أنى عشت زمن هؤلاء فاتنا واحد من اكتشافات كامل الشناوى وحسن فؤاد، يوم كان الوقت يسمح للكشافين العظام أن يشيروا إلى جنين موهبة.

حينما يزفر أرغولى آهته، أكتشف أن هذه الأسماء رحلت من عالمنا بعد أن أهدتنا فى كل مجالات الحياة المهنية والحرفية، التى فيما بعد تبعثرت على الطريق، أكتشف أن هذه العبقريات جعلت لحياتنا معنى ذات يوم وعزفت علما وأدبا وفنا وصحافة، ومن تتلمذوا على أيديهم يذرفون الدمع حين أصبح المشهد مؤثرا، صعد الأقزام واتكأوا على أكتاف العمالقة، صار النمط السائد (خدوهم بالصوت) لقد انقلب الهرم الاجتماعى وساد الذوق المجوج الذى لا يحس أنه ممجوج، الذوق المرهف مات، ذلك الذى أفنى د. حسين فوزى وصلاح طاهر عمريهما فى زرعه وتسميده، لكنه مات، فلا أحد كان يرويه ولا أحد اهتم بما وصل إليه من حال، وعندما فسد الذوق سرت العدوى فى كل شىء، صرنا نرى القمامة تملأ جنبات الطرق، فلا نشكو أو نتأفف لأننا تعايشنا مع الزبالة والقبح.

أنا من الجيل الذى كان من يشغل منصبا ذا أهمية (ملو هدومه) ويستحقه عن جدارة.

أنا من الجيل الذى رأى قصيدة لشوقى بك فى صدر الأهرام وعاش مساجلات أدبية بين الروائى ثروت أباظة والناقد عبد القادر القط، أنا من الجيل الذى قرأ مفهوم الحب فى خطابات متبادلة بين فتحى غانم ومحمود أمين العالم، أنا من الجيل الذى قرأ العاصفة الأدبية التى فجرتها يوما غادة السمان - يوم نشرت خطابات غسان كنفانى الخاصة بها وجمعتها فى كتاب، أنا من الجيل الذى سعدت أذناه بأصوات جلال معوض وعباس أحمد وسميرة الكيلانى وسعد لبيب، يوم كان مذيع الراديو نجما، أنا من الجيل الذى اقترب من رقى مدحت عاصم ورقة حسين السيد وخيال بابا شارو.

ولقد عشت الجيل الذى عصفت مباراة كورة بمستقبل شعبين عربيين، وعشت الجيل الذى صار فيه الصراخ لغة الشاشات، وعشت الجيل الذى تعددت فيه استديوهات التحليلات الرياضية، وصارت ركبة لاعب هى حديث المدينة وتعليقات الناس فى القهاوى، وعشت الجيل الذى فرح بالتكنولوجيا فأخذ قشورها وصور الشر والأذى منها، عشت

الجيل الذى يصعد على سلالم الإلحاح ويصير شيئا حتى لو افتقد كل المقومات، فهذا زمن الإلحاح على الناس، عشت الزمن الذى صارت فيه الكرة فى مصر هى الهواء والماء وعذرا لطه حسين يوم قال إن (التعليم كالماء والهواء)، عشت انهيارا فى منظومة القيم وتصدعا فى مؤسسات كانت لها قداسة.

وليس مستغربا شعورى بالغربة، ولست ألوم الحاضر ولا أوسعه بسياط النقد، فهو ترجمة فورية لواقع حى، هو اقتصاد يحاول أن يهب من رقدته وفوضى ضربت أطنابها وشعب يظن أنه أعظم شعوب العالم وهو ليس كذلك، لست ألوم الحاضر وأنا جزء منه وألتحم معه فى حياتى اليومية، لكنى ألوذ ببيتى أغلب الأحيان أجد (الونس) مع نفسى حين عز اللقاء بونس جيلى.

أشعر بغربة حين تفشل مفرداتى فى وصف حالتى، إذ صار التفاهم صعبا، وصار الحوار صعبا، العقلاء ينصحون أن (أتجاوز) والحكماء يرون أنها (حتمية) الاعتراف بالجيل مهما كان سيئا ويعتقدون أن للشعوب خطا بيانيا، ربما كان الازدهار فالانحطاط ويعود الازدهار بعد قرون.

لماذا كل شىء (يصغر)؟ لماذا القرائح (مجدبة)؟ لماذا الإبداع(ضئيل)؟ لماذا كل الأمور هى(كام .. بكام)؟ لماذا الإنسان فى (بورصة الحياة) صار صفرا؟ إن ثروة مصر وبترولها فى رجالها ومفكريها فلماذا أصبح الفكر بضاعة (رخيصة) ولماذا (ناس بتكسب ولا تتعبش)؟

وليس الأمر عصى الفهم، فالحس الشعبى يحل الفزورة ببساطة: القوالب نامت والانصاص قامت!!

رسائل عاشق مسكون بأخرى!

أحبك؟ نعم، ولكنى أحب الأخرى أكثر! أهيم فى دلالك؟ نعم ولكنى أهيم فى دلالها وتيهها أكثر! أذوب فى رقتك؟ نعم، ولكنى أذوب فى رقتها وحنانها أكثر! أشتاق إليك؟ نعم، ولكنى أشتاق لها إذا ابتعدت عنها قليلا، أكثر! تخاف على؟ نعم أخاف، لكن خوفى عليها أكثر! تسهر عيونى من أجلك؟ نعم، لكن النوم يخاصم عيونى من أجلها أكثر! أحتويك؟ نعم، لكنها هى التى تحتوينى أكثر! أسهر عليك فى مرضك؟ نعم، ولكنى أتعذب إذا نالها الأذى أكثر!

أشتاق لذراعيك.. تضمانى؟ نعم، ولكنى أحسن لصدرها الحنون أكثر! تخبئنى فى قلبك؟ نعم، ولكنى أقل وأصغر من أن أخبئها فى قلبى فهى التى تخبئنى فى قلبها أكثر! منذ متى أعرف الأخرى؟ منذ رضعت حبها وأنا فى المهد صبيا، منذ رأيتها بضفائرها المجدولة على ضفاف النيل، منذ رأيتها حزينة فى انكسار إثر هزيمة ومنذ رفعت رأسها مع فارس أعاد إليها شبابها وعطرها الأخاذ (المخلص لها ولك).

....

.. لم أسترح كثيرا لخلافك مع شقيقك، اعذرينى لأنى لم أتابعك فقد خطف انتباهى (خلافات) أشقائها هى فى ديروط، حكاية صبى وصبية جمع بينهما الحب وفرق بينهما الدين وهبت القبيلة المعجونة بالجهل، والتخلف، وكبر الشقاق ولم ينفع معه محضر شرطة

ولا عناق عمائم ولا تراتيل كنيسة، خلافك مع شقيقك يمكن بحوار هادئ وبعض التنازلات الصغيرة احتواؤه، أما خلافات الأشقاء فى ديروط وأى بلد فى الصعيد فيحكمه العناد الأسود والتحجر اللعين.

مهموم أنا - يا حبيبتى - باندلاع شرارات التعصب سواء فى مباراة كرة أو ساحة مسجد أو كنيسة، مهموم أنا - يا حبيبتى - بهذه الأصابع الخفية التى تشعل النار فى البيت وربما يأتى يوم - لا قدر الله - لا تنفع فيه كل سيارات الإطفاء فى إطفاء نيران التعصب المبتذل، هل هو الفراغ - يا حبيبتى - السبب فى الصعيد أم الافتقار إلى جهد يجمع هذه الطاقات المهدرة؟ ولو على طريقة نخمد فيها الشرارة قبل اندلاعها، ساعدينى فأنا مسكون بها، فربما يصحح الوعى يوما السير معصوب العينين والأذنين (المخلص لها ولك).

....

غضبك فى محله، هى أيضا غاضبة بنفس الحدة، التقيتما سويا فى شعلة غضب واحد، فهى تزهو بأولادها الميامين، الفرسان محفوظ وزويل والبرادعى، وأنت غاضبة لغضب صديقتك شقيقة البرادعى، ظل الرجل رمزا دوليا عالى المقام حتى حانت لحظة رحيله من منصبه الدولى عائدا إلى بيته فى الدقى ليتفرغ لكتابة حفنة من أيامه الصعبة فتواجهه زوبعة أوجدتها التكهنات فوق الورق وفوق الشاشات وتدخل أسماء زويل والبرادعى بورصة تهوى بأسهمها لدرجة لا تسر عدوا ولا حبيبا، ويضطر البرادعى لإصدار بيان يرد على أحجار وغبار اقترب منه، لماذا تنفلت الأقلام وأصحابها، قبل غيرهم، يدركون الحقائق المختفية تحت الجلد وفوق الجلد؟

حبيبتى (المسكون أنا بها) تبكى بدمع سخى على اهتزاز الثوابت فى حياتنا، تهمس فى أذنى بصوت مشروخ: بدلا من أن ترحبوا بشقيقكم العائد من مهام دولية وتطوقوه بالورد والياسمين، تضربوه تحت الحزام؟ لم أنطق بكلمة، فالعيب فينا، وليس فى غيرنا، صارت شهيتنا مفتوحة للاغتيالات الروحية، وصرنا نتغذى بلحوم رموزنا دون أن نذكر لهم حسنة ولو واحدة، قولى لصديقتك شقيقة البرادعى: ننتظر مذكراته عن نهاية الشوط مع إيران والسباق المحموم لتخصيب اليورانيوم وأى مصير ينتظره العالم غدا، قولى لها إن كتاب السياسة فى مصر نقرؤه فى زمن طويل والبرادعى جاء يفتحه فى الصفحة الخامسة بعد المائتين !(المخلص لها ولك).

عتابك لى جميل، إنه محطة قبل الاندفاع بقطار الغضب الجامح نحوى! عتابك متحضر

وهو بحجم حبك، ولا تغضبى إذا كنت أتمنى لو تسمعى عتابها هى، دعينى أحكى لك قليلا عنها فلا تغارى، إنها تملك كبرياء القمم الشاهقة وتملك صبرا بلا حدود وتملك حنانا يذيب الصخر، تؤثر الحب على طريقتى سلوكا فعليا لا كلاما مرسلا، الحب عندها ليس نشيدا مدرسيا ولا خفقة علم فوق سارية ولا أغنية فى ستاد كورة، الحب عندها مختلف، تحب من يحافظ عليها بدمه ودموعه، تحب من يزيل القمامة من أمام بيته، تكره من يخرب ويدمر عقب لوثة فرح! تحب احتواء الجغرافيا للتاريخ، كرهت تعميم بعض الشغب الجزائرى المصرى على علاقات بلدين، الحب عندها التنبه لعدم التفريغ للهم فى خلفة العيال، الحب عندها عدم الجلد للذات، الحب عندها احترام الرموز، الحب عندها لمن لا يلوث نيلها، هى تعاتب أولادها ولا تغضب، هى تسامح أولادها ولا تحنق أو تحقد وقلبها بعرض الأفق (المخلص لها ولك).

....

آخر مرة قابلتها كان بيننا لقاء طويل، نقلت لها بعضا من آرائك القاسية فسمعتها بإصغاء حنون، قلت لها رأيك فى أن الدنيا حظوظ، فأضافت (ونبش فى الصخر)، قلت لها رأيك أن الكلامنجية يكسبون فأضافت (حتى يسقطوا من الإعياء)، قلت لها رأيك أن الواسطة هى الحل، فأضافت (حتى تولد المعايير)، قلت لها رأيك أن الولاء قبل الكفاءة، فأضافت (الكفاءة أطول عمرا)، قلت لها رأيك أنها مستعدة للصبر على أى أذى بشرط سيولة المرور، فأضافت أسمع (طحنا ولا أرى غلة)..! (المخلص لها ولك).

....

أحبك؟ نعم، ولكن أحب الأخرى مصر، أكثر، إنها تسكن تحت جلدى وعلى ضفاف شراييني وأوردتى وبين جفونى، مطبوعة فى القلب كالوشم، ساكنة وجدانى، تجرى فى دمى، تحنو على أولادها فلماذا لا نحنو عليها؟ ترعانا بكفها الرحيم، فلماذا لا نرعاها؟

يا أهل المحبة!

للمطرب الشعبى محمد عبد المطلب أغنية يتذكرها رفقاء جيلى يخاطب بها (أهل المحبة) وعندما سمعتها منذ أيام فى إذاعة تنصف غناء الماضى من حشرجات الحاضر، دق قلبى وهبت على نسمات الشجن، فأنا تروق لى كلمة (المحبة) أكثر من كلمة الحب، المحبة فضاء فسيح من المشاعر والحب يتحطم على صخور الأنانية والمصالح والملل، المحبة طير طاير فى السما، مرتفع متسام فوق الجحود والأحقاد، والحب كائن أرضى بكل ما فيه من عوامل الفناء، وفى زماننا تقلص أهل المحبة واستفحل أهل العداوة، فلم يعد هناك حزب لأعداء النجاح، بل صارت هناك أحزاب لأعداء الحياة وراجعوا خرائط العالم المخضبة بالدماء وتعاريجها تلك الغارقة فى العنف! فى جيلى، ما كان جائزا أن أضع ساقا فوق ساق أمام كبير، الآن يقذف مواطن رئيس وزراء إيطاليا بتمثال صغير فيحدث كدمات وجروحا، ومن قبل قذف صحفى الرئيس الأمريكى بحذائه وهلل الشباب.

يقولون أن الدنيا تغيرت، نعم، تغيرت إلى الأسوأ! يقولون إن العالم تقدم، نعم تقدم إلى الخلف! لقد منحنى الله العمر لأرى جنازة تشييع قيم الشهامة والمروءة والجدعنة، وأعترف أنه يطربنى صوت فنانة من جيلى لا تغنى إنما بح صوتها وهى تجمع نقودا من قادرين لعلاج مخرج سينمائى متميز يفترسه المرض، فنانة جيلى هى نادية لطفى وأعرفها باسم بولا، والمخرج هو سعيد مرزوق الذى سافر للعلاج فى الخارج تصحبه دعوات (أهل

المحبة) بالشفاء. .البعض من فنانى هذا الزمن لا يعرفون سعيد مرزوق ولهم العذر، فقد تعرض الكبار - أحيانا - للطمس أو التعتيم، حين أرى المجتمع المدنى الجاد ممثلا لى فى سيدات فضليات يقدمن الغذاء والكساء لفقراء معدومين، أشعر بفرحة غامرة تختلج فى نفسى، فهذا نشاط (أهل المحبة) ينفى شائعة موت المروءة فى المجتمع، لكنى أشعر بانقباض حين يشكو لى مرضى لا أعرفهم هاتفيا أنه لا فرق يذكر بين الزبالة ومستشفى الحميات التى تستقبل ضحايا فيروس دق على بابنا وبدأ يحصد الأرواح كلما توغل الشتاء.

نعم، قليلون للغاية، هم أهل المحبة فى الأجهزة الحكومية المعنية بمطالب الجماهير من رغيف عيش، لكوب ماء نظيف لأنبوبة بوتاجاز، لسرير فى مستشفى! ويكاد يصرخ الناس على مسمع من الحكومات المتعاقبة عليهم (يا اهل المحبه، ادونى حبه..!) القانون فى بلدى لا يعاقب إلا من ارتكب جرما، ولكن رجال أمن البلد لا يقبضون على حاقد أو جاحد مع أنهم كثر والمجتمع يعج بهم، إن أهل المحبة يرونهم جيدا ويدركون عمق جريمتهم ولكن لا توجد مواد فى قانون العقوبات تحاسب على النيات وما تخبئه الصدور، إنه حاقد من أطلق شائعة وفاة عادل إمام، وحاقد من أطلق شائعة نور الشريف فى عرضه، هؤلاء طريدو أهل المحبة الذين يتناقصون يوما بعد يوم. أبحث عن (الأخيار) ولكن يبدو أن الكلمة سقطت من قاموسنا بفعل الاحتباس الأخلاقى فى مناخ مجتمع، ولكنى لا أتخيل أن (أهل المحبة) يهبطون بالبرادعى صاحب السمعة الدولية إلى محلية الصبيان للغلوشة على شاب متنور مزروع فى غيطان الذرة مثل جمال مبارك ويعرف القرى المعدمة قبل قصور الرحاب، ومتربى.

ولا أتصور أن (أهل المحبة) يعتدون بالسلاح على رجال أمن مصر، وكأنهم قراصنة من جزر الكنارى وليسوا مصريين لحما ودما يطاردون قوى الشر.

ولا أتصور أن نارا تندلع فجأة بين رمزين فى مصر: عادل إمام وخالد الجندى بسبب وشايات صحفية وهمهمات غير مسئولة، وكأن البلد انتهى من وباء التعليم المبتسر ووباء الصحة المريض ووباء العشوائيات الصدفة ووباء الموت غرقا على سواحل أوروبا ووباء الفضائيات التى تسلخ فروة مصر فى غير عيد (الأضحى) ! هذه ليست أفعال أهل المحبة على الإطلاق.

إن أهل المحبة ينتمون بأرواحهم قبل أجسادهم للمسجد والكنيسة وكلاهما صار ملعبا للإعلام يرتع فيه كما يشاء، وكنت أراهن على هاتين المؤسستين الدينيتين فى حلول

لقضايا كثيرة يحملها وتر الدين لكن (الباروما) بدأت تقترب من قيم كثيرة كانت تسكن الوجدان.

يا أهل المحبة المفقودة، قفوا قليلا وتأملوا واقعكم، تأملوا شباب مصر الحائر المتخبط بين القيم وتأملوا حال الجيل الجالس على الكراسى غدا، تأملوا الكورة التى شاطت الكتب والثقافة والتنوير، وتأملوا اللغة التى تروجها مسلسلاتنا ودراماتنا الذكية، تأملوا الإعلام النافر من الجدية والبناء الحضارى لدولة نامية وحول المجتمع إلى سيرك لقردة من البشر تحاكينا على طريقة عجين الفلاحة، تأملوا دور مؤسسات التربية فى تربية الانتماء، هذه القيمة الضائعة التى بغيابها كفر الشباب بالبلد واكتشفوا أن البيزنس السريع يحقق الأهداف أكثر وأن الأحزاب ديكورات! ولو كان فى البلد حزب يحمل اسم (حزب المحبة) يترأسه د. مصطفى الفقى ومنير فخرى عبد النور، لانضممت إليه، ذلك أنه فى تصورى يقوم على السماحة ونبذ العنف بكل صوره وهدفه حق الأجيال القادمة فى حياة آمنة، يعكف بدأب وجدية وعلم على حلول مبتكرة مجنونة خارج السيناريو لأمهات المشكلات وإشراك الشباب فى الرأى.

يا أهل المحبة - إن وجدتم - إن مصر تحتاج كل دقيقة تذهب هدرا فى لغو فارغ، يا أهل المحبة - إن وجدتم - بعضا من الحب لا البغضاء فترسو مركبنا فى ميناء التحضر.

يا أهل المحبة - إن وجدتم - لا تفتعلوا الجنازات لتشبعوا فيها لطما وعويلا.

يا أهل المحبة - إن وجدتم - الزعامات الورقية، حناجر بصوت عال على مفيش. يا أهل المحبة - إن وجدتم - اقطعوا دابر الأصابع الخفية التى تعبث بالوطن من داخل الوطن.

يا أهل المحبة - إن وجدتم - دولة مدنية هى الحل، أمس واليوم وغدا، فـ ..فالله محبة..

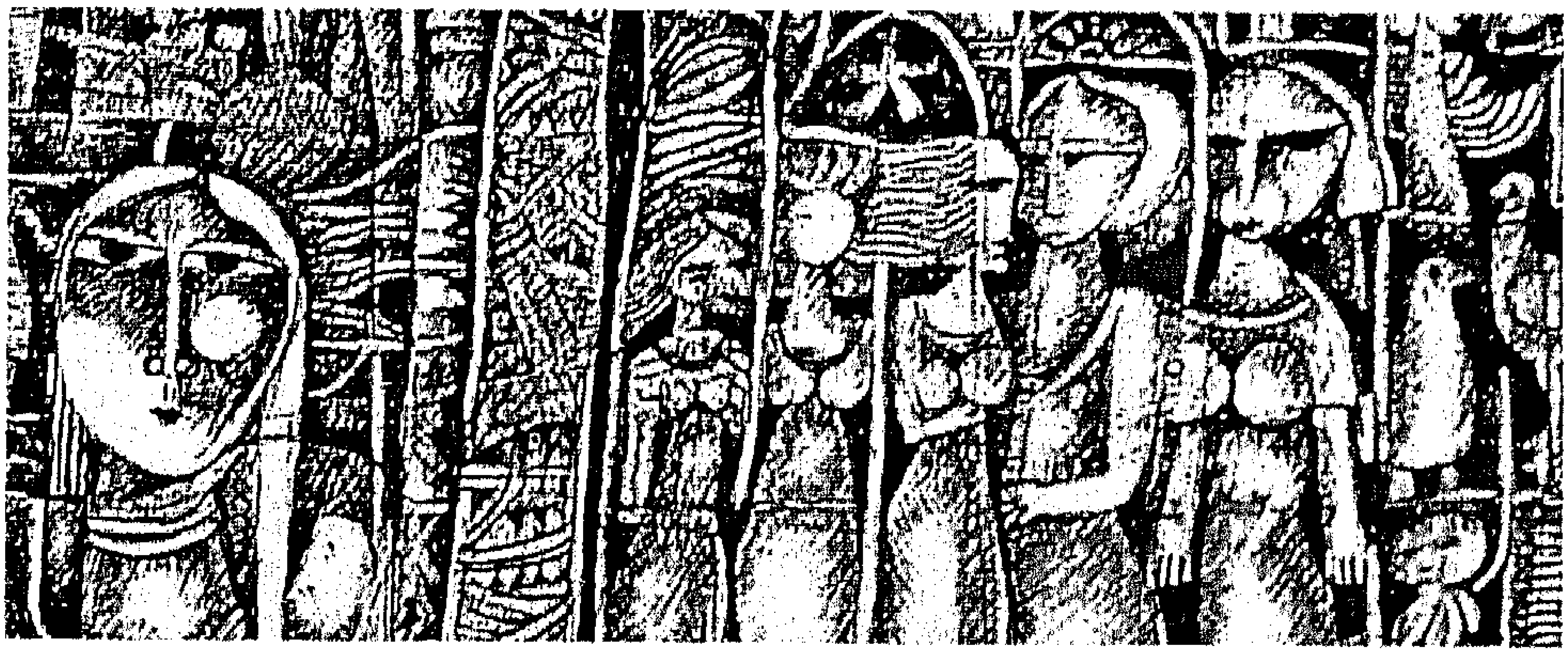

فاتن حمامة .. زمن الروقان!

بلا مناسبة تفرضها أبجديات المهنة، أكتب عن فاتن حمامة، الساكنة الوجدان المصرى، المقيمة فى صدور المصريين على اختلاف أذواقهم وأجيالهم، الراصدة لمشوار المرأة المصرية من عصر الاستكانة إلى عصر الكينونة عبر فنها .. الذى يعطى لحياتنا مذاقا.. كقصائد غناء أم كلثوم وهديل شدو فيروز، لقد (أطربتنا) فاتن حمامة حقا بحفنة أفلامها، ولا تزال كلما طالعتنا ملامحها الحانية الممزوجة بقوة داخلية منحتها لها شلالات الأيام وصخور الزمن، أعطتها الصلابة وذكاء العقل والقلب ولا تزال - حتى فى مقاعد المتفرجين - ترى وتبصر ولها رأى.

وجود فاتن حمامة بيننا، منحها الله الصحة والعمر، بمثابة ونس حميم، ولا أعرف لماذا اخترت كلمة ونس، ولكن كم من لفظة نائمة فى القاموس تنتظر من يوقظها ويبطل عزلتها ويصحبها على سن قلم إلى بحار تائهة الضفاف!

ولكن لماذا فاتن حمامة تحوم سيرتها فوق أوراقى كسحابة أشواق تنتظر أمرا بسقوط مطر الكلمات؟! هل لأنها ترمز إلى زمن الروقان الذى تحبه هى وأنا .. أفتقده الآن؟ هل لأستريح من صداع الحاضر بين ذراعى قصيدة اسمها وعنوانها فاتن حمامة؟ هل أعبر عن اشتياقى لسينما فاتن حمامة، سينما الإنسان والمشاعر ونبضة القلب ورعشة الشفاه والتردد فى البوح بالحب والخطابات الزرقاء؟ هل لأهرب من معانقة هموم وقيود؟

حين أرى أفلام تونة كما يناديها أصدقاؤها الأنتيم، أتابعها بشغف برغم أنى ربما أراها للمرة المائة، ولكن شيئا ما يشدنى، لعلها البساطة المذهلة فى شخصيتها، لعلها رهافة الحس، لعلها العذوبة فى التعبير، لعلها سينما بلا عنف مخيف وبلا مخدرات وبلا جنس محموم! إنما سيناريو بسيط يمضى كجدول رقراق، نحس فيه بالعيون المشتاقة ولمسات الأصابع المتعانقة، قد نشهق وتروح روحنا من مشهد حب أو فراق أو لهفة لقاء، مشاعر لا يعرفها جيل sms جيل احلق له وسيحه! هناك سبب آخر خفى لشغفى بأفلام فاتن حمامة وهى شوارع تلك الأيام الخالية دليل زمن الروقان، حيث يظهر الشارع بعدد يعد على أصابع اليدين من السيارات قبل نزيف التصاريح للسيارات الجديدة بضغط الوجاهة الاجتماعية، والتكدس فى الشوارع التى أضحت جراجات وأصابتنا بالخنقة.

فى سينما فاتن حمامة - إن صح التعبير - هناك حضور قوى للأب كسلطة عقابية، حيث لم يعد الآن كذلك، فهو غارق فى الهموم والديون وما عادت له تكشيرة تهز جدران البيت، هناك حضور قوى للأخطاء كطبيعة بشرية ما دمنا لسنا فى مصاف الملائكة، هناك فى سينما فاتن حمامة، العصفور مغرد والسماء صحو والمصريون لا تميزهم بالملابس، الدين الذى يعتنقونه، صمتت فاتن حمامة طويلا بعد (تحفتها) مسلسل وجه القمر، فهل هاجرت إلى داخل نفسها كهجرة الكثيرين الرافضين لواقع مر ومستقبل أكثر غموضا؟ هل هاجرت فاتن إلى غابة النفس البشرية لتهرب من غابة البشر؟ هل هاجرت فاتن جغرافيا من الزمالك حيث أمضت ثلث عمرها بحثا عن هدوء وروقان ونسمة هواء نظيفة وتملك أن ترى النجوم فى السماء دون أن يحجبها الغبار؟ هل هاجرت فاتن بعد أن اكتشفت عالما آخر فى الفن لا يمنح الجمال والفائدة معا؟

هل هاجرت فاتن بعد أن أعطت عمرها للسينما وأفنت شبابها فى البلاتوهات ولم يبق سوى أن تحول تجربتها الحياتية إلى.. وعى؟ هل كانت فاتن حمامة تريد أن تقول لنا (الحقيقة .. قبل الخبز)؟ هل تعبت فاتن من الصراخ الصامت فى البيوت لنلتفت إلى البنات والأولاد قبل أن يجرفهم التيار وهى التى - بالفن وحده - عبرت عن رؤيتها وليس بالسير فى مظاهرات تحمل لافتات؟

إن فاتن حمامة التى أطلت علينا فى عمر يتجاوز السادسة وشقت نهر الفن بسلاسة تمجد قيمة الموهبة.. فالإبحار فى النفس ما زال (ترنيمة) فاتن حمامة فى الفن.. تعيش فاتن حمامة مستورة فقد جنبتها الراحة المادية الصراع فى خريف العمر، وتعيش وسط صداقات معمرة، حتى لو اختلفت مع أحد فهما يتصالحان على ناصية كلمة حلوة تذيب الجفوة.

ليست فاتن حمامة متعالية على ندوات ومهرجانات هذا الزمان، إنما هى تملك - برغم الشهرة العريضة المدوية فى أرجاء وطن عربى - خجلا وكبرياء!..

لماذا فاتن حمامة ع البال؟ إننا نجدد لها البيعة ونحبها أكثر، إننا نقف على باب محارتها مشتاقين لها ولفنها الأخاذ، إن عشرات القضايا تناديها كى تجسدها فنا فنصدقها، فليس أعظم من سمات ما فى فنان أكثر من مصداقيته، هى التى قالت لى مرة (أحب البنت تكون عاقلة ودوغرى لا تعرف الحنجل ولا المنجل)! وفاتن حمامة نموذج للبنت المصرية قبل أن تفقد صفة العقل، وأشعر بأسى عندما يتهكم أحد على نجوم الأمس الذين عبدوا الأرض لمن جاءوا بعدهم، ظنا منهم أن نجوم زمان راحت عليهم..

يا سيدتى - أنت (فهرس) للحياة المصرية، كبرنا معك، ونضجنا معك، وفوق الدرب سرنا معك، وخاطبتنا بلغة الزمن، وكنت بليغة.

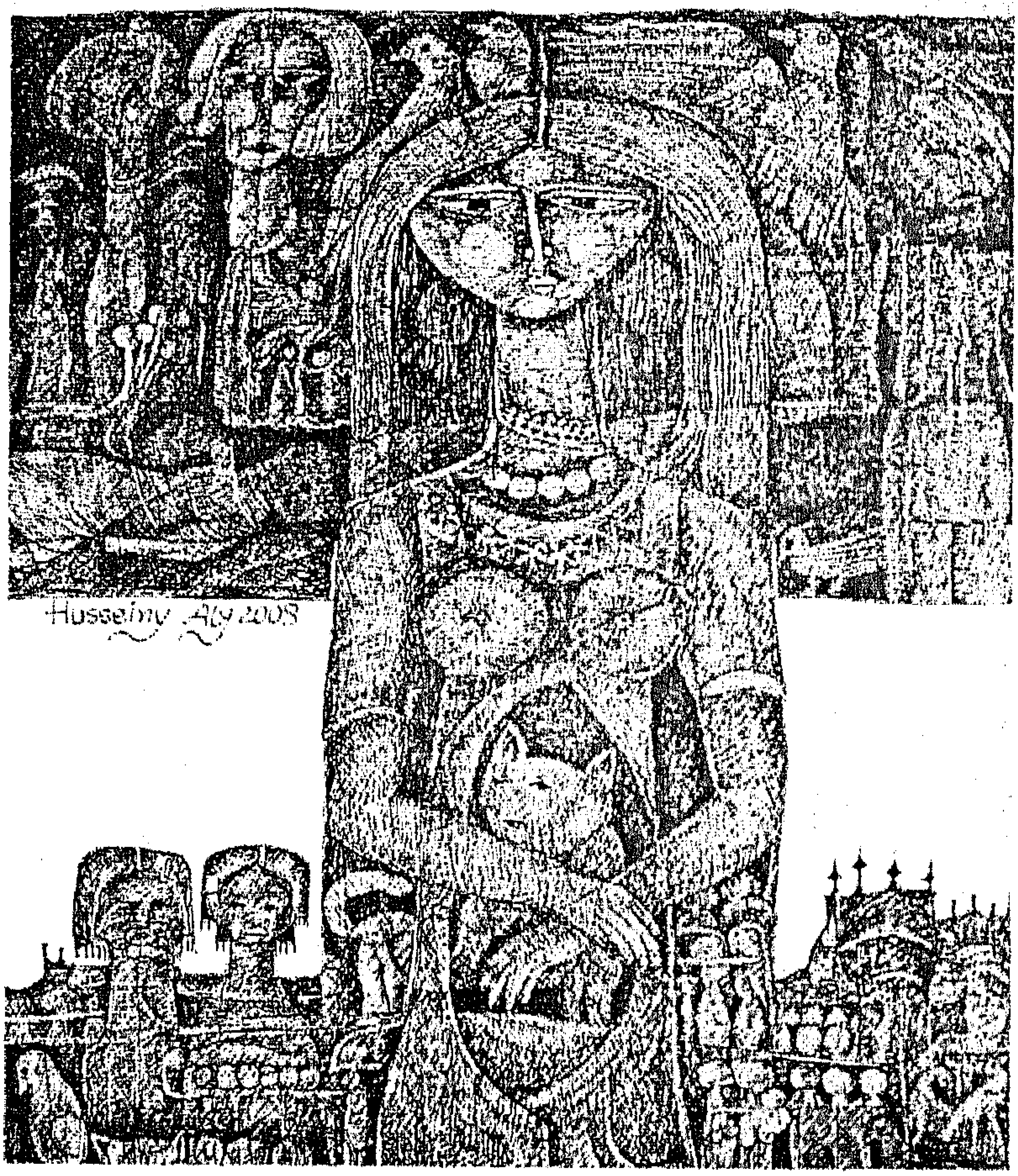

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه إسهامات ورؤى لكاتب كبير، اعتاد دومًا أن يقتحم أعقد القضايا وأن يفجر عظيم الأفكار بأسلوب خاص.. شيق وسلس.

إنه الكاتب الكبير مفيد فوزى الذى يحتل موقع الصدارة فى مجالات عدة، ارتادها وترك فيها أكبر الأثر.

فهو الكاتب والمحاور الأشهر الذى يقدم دائمًا.. الكلام المفيد.

الغلاف ... د. خالد سرور

Bibliotheca Alexandrina
0943166

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الثمن : أربعة جنيهات

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com